AMIN رواية AL-SHAMI

طاوي الليّل

أميـن الشـامـي

الطبعة الأولى
2017

إشراف عام

عبدالعزيز المسلم

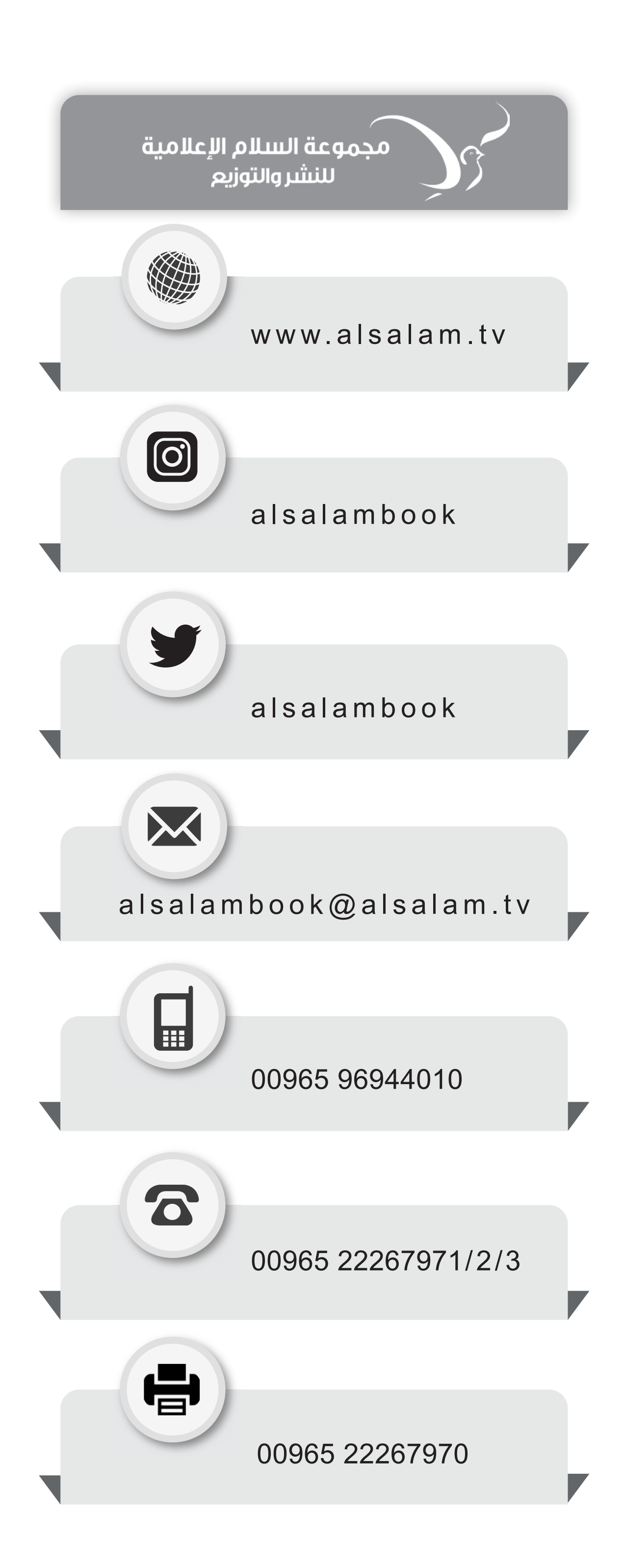
عبد العزيز الزيدي

الناشر

مجموعة السلام الإعلامية

للنشر والتوزيع

22267971/2


مجموعة السلام الإعلامية
للنشر والتوزيع
www.alsalam.tv
alsalambook
alsalambook
alsalambook@alsalam.tv
00965 96944010
00965 22267971/2/3
00965 22267970



إهداء...

إلى كل أهلي ومن يعرفني ومن يقرأ هذا الكتاب.

للتواصل مع الكاتب

ameenup78@gmail.com

1
الغياب

الساعة العاشرة ليلاً، كان يتكئ على وسادة محلية الصنع محشوة بملابس بالية متفرقة، وتحته فراش عارٍ، من الإسفنج الرقيق، يتأمل بسكون، كسكون الفانوس المعلق على الجدار، بجوار نافذة خشبيةٍ مغلقة، إلا أن ريحاً خفيفة، في تلك الليلة الباردة، اخترقت شقوق تلك النافذة، لتتراقص معها شمعة الضوء، داخل زجاجة الفانوس الحلزونية، وتتوهج فتيلته أكثر، فتتمرد رائحة الكيروسين، لتملأ المكان، وعيناه تراقب بصمت، كان مشهد الفتيل المحترق، قد لامس قلبه بعمق، فهما يتشابهان في الاحتراق، كانت رائحة الفتيل والكيروسين، تتمرد أكثر وأكثر، وكلما ازداد تسلل الريح من تلك الشقوق الخفية، أصبح ضوء الفانوس، يخفت أكثر فأكثر، مد يده ليلف الفتيل قليلا إلى الأعلى، لكن الفتيل يعلن الرحيل، فقد كان يحرق آخر الذيل، نفخ الفانوس نفخةً قوية، أنقذت الفتيل من سكرات اللحظات الأخيرة، وحدث نفسه ساخراً: «قريبا تصلنا الكهرباء»، وكما ودع الفانوس النور، فقد ودع طاوي الليل المكان، ولبس معطفهُ الصوفي الأحمر، وحمل رشاشه الكلاشنكوف، وتسلل من الديوان «المجلس» بحركة خفيفة، ولبس نعاله، وهرع من الدرج، إلى الطابق الأول، ودلف إلى الحوش، ليستقبله الحمار، بصوت لا ينتمي إلى النهيق، ولا يفزع أحداً، مسح على رأسه، وفتح باب الحوش بهدوء، لكي لا يوقظ أحد. كان الليل مظلما، وكان منهمكا في التفكير فنسي جلب كشافه الصغير، لكنه يعرف المكان جيداً، والقبيلة كعادتها تنام باكراً، فعند التاسعة مساءً تموت آخر المصابيح، سار بخطوات متقاربة، مبتعداً عن المنزل تُنازله عصبة من الأفكار، يختلق الأعذار، ثم يرسل الاستفسار، ثم يقدم الاعتذار، كان السؤال الذي يتردد صداهُ في عقله! لماذا لم يتصل زوكان؟ ليجر بعدهُ أسئلةً

مرهقة، مؤلمة، هل أصابه مكروه؟ هل هو مريض؟ أم أنه سجين؟، لتجر تلك الأسئلة وراءها صوراً من الخيالات المرعبة.. هل حدث له حادث سيارة، فلم ينقذه أحد، حتى نزف ومات؟ هل أصابه المرض في مكان لا أحد فيه، فلم يسعفه أحد؟ هل تعارك مع أحد، فأخذته الشرطة للسجن، ففضل ألا يخبر أحداً؟ أسئلة كثيرة وإجابات أكثر، تعصر رأس طاوي الليل وأمعائه، توقف عند منتصف الباحة الكبيرة أمام منزله، وتساءل: لكن غدا عيد الأضحى، ولم يحدث قط أن تأخر زوكان عن الاتصال، خاصة قبل الأعياد! لابد أن أسأل الشيخ جلمود غداً ...

كان طاوي الليل ذو الخامسة والثلاثين عاماً، متوسط القامة، ضخم الجثة، على خده الأيسر حفرة سوداء من أثر رصاصة أصابته في أحد الأعراس، حليق اللحية، وشارباهُ طويلان وعيناه صغيرتان، غارقتان في تجاويف عميقة، وله أخ وحيد، يصغره بعشر سنوات، مغتربا في السعودية، يرسل له بين الفينة والأخرى نقوداً عن طريق أحد المسافرين الذين يمرون من الطريق العام الواقع عند أطراف القبيلة، أو عن طريق أحد محلات الصرافة، المنتشرة في العاصمة صنعاء، وكان طاوي الليل يفضل المسافرين على الصرافين، لأن العاصمة غير آمنة، وحوادث الثأر فيها أسهل وأيسر، ولم يمر عيد إلا وتسبقه حوالة مالية، ويسبق تلك الحوالة، اتصال مختصر من أخيه، إلى بيت شيخ القبيلة جلمود، يحدد فيه مكان وزمان استلام الحوالة، كان المال عونا له في تسيير حياته، وإعالة أسرته التي تتكون من أمه و زوجته عشبة وولده حميدان وابنتيه حمامة ورمانة، فلم يكن ميسور الحال ولا يمتلك في القبيلة، سوى مزرعة واحدة بعيدة، ورثها عن أبيه، يعتمد في زراعتها على ماء الأمطار، لا تكاد تغطي احتياجاته، واستمر عطاء أخيه الأصغر، على هذا المنوال، لخمس سنوات،وما إن اقترب وصول عيد الأضحى، حتى كان طاوي الليل مترقباً للرسول الذي يأتيه

بالنبأ المأمول، لمقابلة الشيخ جلمود، ليخبره عن اتصال أخيه، ومكان وزمان الحوالة المالية، واقترب العيد أكثر، فاستدان طاوي الليل مبلغا من المال، على أمل تسديده بعد استلام الحوالة، واشترى كسوةً فاخرةً لزوجته وابنتيه، وابنه حميدان، ولنفسه اشترى معطفاً أحمر، وشالاً بنياً، وثوباً أبيض، ونعالاً سوداء، واشترى حزاماً وعسيباً «مخبأً» للجنبية «الخنجر».

وفي صباح يوم العيد كان الجميع في فرح ولهو، وكان طاوي في بحرٍ لجي، يخفي آلامه، لكي لا يعكر فرحة العيد، فلبس الجديد، وقبَّلَ ابنتيه، وصافح أمه، وزوجته وولده، وذهب للسلام على شيخ القبيلة، وصل منزل الشيخ والذي يقع على ربوة مرتفعة قليلا، ويتألف من طابقين -وفي عرف القبيلة يسمى الطابق الأرضي هو الطابق الأول-،مبني من الحجر الأبيض والأسود، من تلك الجبال الشامخة، التي يربض عند أقدامها، وفيه حوش كبير يتسع لحوالي مائة سيارة، وبجواره مبنى صغير للمواشي، وللمنزل بوابة كبيرة، فوقها أربع غرف وحمام ومطبخ، للحرس والطباخ، وكان المنزل يتوسط القبيلة، في مهابة، لا تقل عن مهابة الشيخ، الذي وجده أمام المنزل متكئاً، تحت ظل أشجار مزرعته، على بساط ممدود، وكان في كامل أناقته، يلبس ثوبا أبيض، ويلف حول خصره الحزام والجنبية «الخنجر»، وعلى رأسه شال أخضر ملفوف بإتقان، وكان في الثانية والأربعين من عمره، طويل القامة، متوسط البنية، أقنى الأنف،حليق اللحية، محفوف الشارب، سلم عليه وقبل يده، واحتسى القهوة التي قدمت له، وانفرد به عن المرافقين والأصحاب، وهمس في أذنيه سائلاً بعتاب: هل اتصل أخي؟ وجاءه الجواب المر، في حديث لا يسر، في جواب الشيخ قائلا:

-لا لم يتصل أخوك زوكان، وآخر اتصال منه في رمضان...

2

البحث

سافر طاوي في الليل والنهار، إلى كل عائد من تلك الديار، لعله يجد عن أخيه بعض الأخبار، لكنه كان يعود بخفي حنين، تكاثرت عليه الديون، وأصبح منها ومن غياب أخيه كالمجنون، باع عجلاً مولودا للتو، وباع النعاج الست التي يملكها، ولم يسعفه ثمنها، في سداد ديونه، قرر أن يبحث عن عمل، وألا يعتريه كلل أو ملل، ذهب ذات صباح إلى المحكمة التي تقع في الوادي الأعلى، وليس فيها سوى القاضي وكاتب وحارس، وقبل أن يصل إلى المحكمة، رأى القاضي شمس الدين، وكان في الثانية والأربعين من عمره، ذا هيبة ووقار، متوسط القامة، نحيف الجسم، لحيته سوداء قصيرة، وعلى رأسه عمامة بيضاء يلبسها القضاة، ومعطف أبيض طويل، يغطي حتى ركبتيه، ناداه من قريب، بصوت عال: يا قاضي! التفت القاضي إليه، وتوقف مسندا ظهره إلى شجيرة سدر، والتي تكثر في الطريق المؤدي إلى المحكمة، كانت الشمس ما تزال في قمم الجبال، يسابقها نسيم بارد، أقبل طاوي وسلم، وقبَّل يد القاضي وبادره بالسؤال:

-أريد عملاً يا قاضي، فقد ضاق بي الحال.

أجابه القاضي متعاطفاً:

-المحكمة ليس فيها عمل، والناس يحلون مشاكلهم في ديوان الشيخ، وكل يوم آتي للمحكمة، تبرئة للذمة فقط، وفوق هذا أنت لا تقرأ ولا تكتب...

ثم أردف القاضي قائلا:

-لم لا تذهب للشيخ جلمود فقد يجد لك عملاً؟

أجاب طاوي ويده اليمنى تفرك شاربه، واليسرى تمسك شعر رأسه،

المغـطي أذنيـه:

-لقد سألته وأجابني: إن وجد فرصة سيخبرني، ولا أظن الفرصة تعرفني.

-تفاءل بالخير يا طاوي.

ودّعه وانصرف...

توالـدت الإشـاعات عـن أخيـه زوكان، كما تتوالـد الأسماك والحيتـان، واحـدة تؤكـد وفاتـه، مـن خـلال حـادث سيارة، وأخـرى تؤكـد إصابتـه بالأمـراض، ورقـوده في أحـد مستشـفيات الـرياض، وطـاوي يلاحـق تلـك الإشاعات المنمقة، لعله يجد واحدة منها صادقة، مرت الليـالي والأيام، ولم يعـثر عـلى بصيـص أمـلٍ في الـركام...

وقـف ذات صباح على مزرعتـه الجدباء، وقد وجـه بصره نحـو السماء، وكانـت نقيـة صافيـة، ولا تحمـل البـشرى لأرضـه النائيـة، مزرعتـه تنتظـر المطـر، كما ينتظر أخاه بفـارغ الصبر، أخـذ يسير على أطرافها، وخلفـه ولـده حميـدان صامتـا، يجـر الحمـار بحبـل قصير، يحـدث نفسـه: مـتى يأتي الغيـث فـنزرع الـذرة ونبتاعهـا...

كان حميدان في الرابعـة عشرة مـن عمـره، يشـبه أباه، في منخـره العريـض، وعينيـه الصغيرتـين الغارقتـين في تجاويـف عميقـة..

أشـار إلى حميـدان بالعـودة، ولم يـدرِ سـبب المجـيء، وفي الطريـق مـرا بمزرعـة وارفـة الخضرة، مليئـة بأشجار الرمـان والتفـاح والعنـب، قـال لأبيـه وقـد أشـار إلى المزرعـة:

- انظـر يا أبي! هـذه مزرعـة جرمـل، المرافـق مـع الشـيخ جلمـود، كانـت مثـل أرضنـا جافـة يابسـة، تنتظـر المطـر، وتغـيرت بعـد أن وصلتهـا الأنابيـب مـن الخـزان الكبـير الـذي تصـب فيـه الآبار الارتوازيـة ...

فقاطعه أبوه قائلاً:

-تكلفة الأنابيب كبيرة جدا، لأن المسافة طويلة، ولست من مرافقي الشيخ، وليس لدينا المبلغ الكافي، وما يشغلني هذه الأيام، هو كيف نجد عمك زوكان؟

وصلا المنزل، وكان النهار قد انتصف، وكست وجههما الأحزان، راسمة كآبة جلية للعيان...

وفي المساء أسرَّ طاوي الليل زوجته عشبه، بقرار سفره، للبحث عن أخيه في المهجر، وأخبرها أنه زار كل الأصدقاء والأصحاب، وطرق كل الأبواب، بدءاً بالشيخ جلمود، وانتهاء بالمرافق مهياب، ليجمع مؤونة السفر، وكيف خيّب الجميع ظنه، كانت تسمعه باهتمام، لم يعد لديها ما تواسيه، ولم يعد لديه ما يخفيه، فأشارت عليه ببيع الأرض، وأشار عليها ببيع البقرة.. رفض بيع الأرض في غياب أخيه، ورفضت بيع البقرة الحلوب الوفية...

اختلف معها، ولم تتفق معه، ذهب لينام، وكيف يأتي النوم...أخذ يحدث نفسه:

كم هو الليل ثقيل، حين تتردد فيه الأقاويل، وتنعدم الحيلة، وتنفد الوسيلة، في امتحان بلا مقدمات...

خرج من بيته وقد بلغ الليل منتصفه، ودعه الحمار بنهيق خفيف، دلف إلى الباحة الكبيرة المقابلة، والتي تعد متنفسا، وأحيانا ملعبا لكرة القدم التي يلعبها الصبيان، بلا قوانين ولا عمدان، وكثيرا ما تنفجر الكره، فيستعيضون عنها بكرة محشوة ببقايا ثياب، وتستغل تلك الباحة الواسعة، لألعاب كثيرة يجيدها فتيان القبيلة، ويجدونها فرصة لعرض المهارات، وعادة ما يكون اللعب قبل الغروب، كانت السماء صافية والقمر يرسل ضوءاً خفيفاً...

تابع خطاه بصمت، يحمل ألف حكاية، وألف سؤال، يأمل أن يجد جوابا، في سكون الليل، وهدوء المكان، رأى كتلة كروية سوداء تتحرك باتجاهه، تذكر أنه لم يجلب سلاحه، ولا حتى عصاه، حاول طرد فكرة الضباع والوحوش، وأنه لابد أحد الحراس، فكر كيف يواجه الخطر، بألا يتحرك أو يفرّ، اقتربت الكتلة الدائرية، فإذا هو بخيت يلقي عليه السلام، وقد لف جسمه بثياب كالركام، وكان متوسط القامة، قوي البنية، في الثانية والعشرين من عمره ...

«وافق شن طبقة»، قص طاوي على بخيت ما يؤرقه، يشتكي له: غياب أخيه، وقلة الحيلة، وبخيت يشتكي له: الغلاء، وقلة ذات اليد. وبخيت عاطل بائس، لم يفلح في دراسته، وتركها مبكرا، لغبائه الشديد، ولم يكن إلا فقيرا مستورا، يغطي عورة فقره، راتب التقاعد الضئيل، الذي تركه لهم أبوه، من الجيش بعد وفاته. وجد كل منهما في رفيقه ضالته، جاءت من بخيت فكرة غبية، كغبائه المركب، وافقت عند طاوي حاجة ملتهبة، وظرفاً استثنائياً، ومؤهلات حاضرة كافية، وضع كل منهما يده على يد صاحبه، تعاهدا على السرية، اجتمع دهاء ومكر طاوي، بغباء وشجاعة بخيت، في خليط نادر مميت.

أمسك بخيت بيد طاوي، ولم يجف حبر الاتفاق، يجره كمحراث خلفه، فيسأله طاوي :

-إلى أين يا بخيت؟

-إلى العمل.

-من الآن؟

-نعم من الآن، وهذه أفضل ساعات العمل.

توقف بخيت أمام منزلٍ صاحبه مقاول والذي انتقل بأهله إلى صنعاء، لا يأتيه إلا في عطلة نهاية الأسبوع، حاول بخيت خلع الباب،

أوقفه طاوي وقال:

-ليس هكذا يا ثور! لابد من مراقبة المكان جيدا! .. قاطعه بخيت:

-أراقب المكان منذ شهور، ولم يكن ينقصني سواك...

تسلق طاوي جدار المنزل، وفتح لبخيت من الداخل، وطفقا يبحثان في الغرف، وجد طاوي سلسلة وثلاثة خواتم ذهبية، في إحدى الخزائن، التي لم يجد في فتحها أي صعوبة، بينما حمل بخيت اسطوانتي غاز على ظهره، خرجا من المنزل بتلك الغنيمة، وتم التقسيم بعد عناق، حسب الاتفاق، وكان من نصيب بخيت أسطوانتي الغاز وثلاثة خواتم ...

استمرت السرقات في القبيلة، وتطورت كفيروسات متجددة، فمن سرقة البيوت، إلى سرقة المزارع، إلى سرقة لوازم السيارات، كالمرايا والإطارات، والراديو والمسجلات.

وأصبحت القبيلة تضج بالرعب، وتئن من الفزع، وكان الجميع يلجأ للشيخ جلمود، والشبهات تدور حول بخيت وطاوي، أما بخيت فقد ظهر عليه تغير الحال، بدءا من شراء سيارة هايلوكس، إلى محاولته شراء أرض كبيرة، لولا تدخل طاوي، وزجره بقوة.. وأما طاوي فلم يظهر عليه أي تغيير، إلا صداقته الحميمة المفاجئة، مع شخص كان يتجاهل وجوده، ويعتبره حيواناً في جسد إنسان... ولم تكن القبيلة تعرف هذا الوباء، أو تبتلى به، فالسرقات لم يسمع بها أحد من قبل، والناس معتادون على ترك مزارعهم، ومنازلهم وسياراتهم، وينامون بأمان.. لكن طاوي وبخيت كسرا قوانين الفضيلة.. وكان طاوي يخطط لهدفه، الذي لا يفارقه.

لم يجرؤ أحد على اتهامهما، والجميع لا يأمن ردة فعلهما، لم يجد أحد أي دليل أو إدانة، فقد كانت السرقات محكمة، والتخطيط عالي المستوى، والتنوع والتمويه فائق التصور...

3

الإعداد

وبعد أربعة أشهر من السرقة، وفي ليلة باردة، وعلى إضاءة الفانوس الخافتة، ورائحة الكيروسين الخانقة، ووجه بخيت المتورم، وأنفه العريض، كانت القسمة مرضية، ووجد طاوي مبلغا من المال، يفوق احتياجه، شعر بفرحة غامرة، صنع ضحكة مجلجلة، كادت أن توقف شخير حميدان، النائم آخر الديوان.

أخبر بخيت أن يأتي في الصباح الباكر بسيارته، قبل بزوغ الشمس بساعة، وألا يحمل من السلاح إلا مسدسه فقط، لم يسأل بخيت ولم يستفسر، إنما هز رأسه بالموافقة كالعادة.. نام طاوي نوماً عميقاً، لم يوقظه إلا صوت بخيت وطرقه للباب، لبس طاوي سريعاً كوته «معطفه» الأحمر وثوبه الأبيض والجنبية ودفن مسدسه في الحزام، واعتمر على رأسه الشال الأحمر، وخرج إلى بخيت الذي كان يعبث بأنفه العريض المفلطح، و يلبس كوتا «معطفاً» أسود، وشالاً بنياً وثوباً رمادياً، وجنبيته الصفراء وحزامه الأحمر، ركب طاوي سيارة بخيت الهايلوكس، ذات المقصورة الواحدة، وكانت بيضاء اللون، ذات غطاء عالٍ ...

أخبر بخيت بالتحرك إلى صنعاء، وقبلها لابد من السلام على الشيخ جلمود، والذي لم يكن منزله بعيدا، انطلقت السيارة، بأصوات متداخلة، توقفت بعد عشر دقائق أسفل الربوة، ترجل طاوي ليصعد إلى بيت الشيخ، استقبله المرافق جرمل وسأله عن حاجته؟ أجابه طاوي بأنه يريد السلام على الشيخ، ويخبره بذهابه إلى صنعاء، لغرض ترتيب السفر، كان الشيخ لا ينام بعد الفجر، ويقف غير بعيد منهما، يتفقد المزرعة التي

بجوار المنزل، سمع حديثهما وأقبل مبتسماً، لقرار طاوي وشجعه، وأعطاه رمانة كانت بيده، ودس في جيبه ربطة من النقود، قبَّل طاوي يد الشيخ وودعه، تحركت السيارة، مخترقة تلك الأزقة الكثيرة، والتي ركوب الحمير فيها أيسر من ركوب السيارة، فالطرقات غير معبدة، ومليئة بالأحجار والحفر، والسير على الأقدام، في كثير من الأحيان، أهون وأقصر. وصلا إلى السائلة «ممر السيل» الذي يفصل بين الوادي الأسفل والذي يقع فيه بيت الشيخ ومعظم بيوت القبيلة، وبين الوادي الأعلى، والذي تقع فيه المحكمة ومسجد الجمعة الكبير، والمدرسة الثانوية، وبعض المزارع، وسوق القبيلة، الذي ينشط يومي الثلاثاء والخميس من كل أسبوع، نزلت السيارة بأصوات صفير وشخير، وصعدت من تلك السائلة، بأصوات كالرصاص تطلقها، بين الفينة والأخرى، كان الغبار يتصاعد. حاول طاوي عبثاً، رفع زجاج النافذة، فما أن يرفعه قليلا، حتى يهبط نزولا، امتلأت السيارة بالغبار، وكذلك طاوي وبخيت، وكأنما هما عفاريت من الجن، طاوي في معركة مع الغبار، يتمنى أن يصل صنعاء نظيفا، لكي يلتقط صوراً لتأشيرة السفر والجواز، وبخيت في معركة مع السيارة، يتفادى حجرا، فيصطدم بآخر، يحاول أن يسرع، فتفاجئه حفرة ويقع، كان الطريق صعباً، وكانت قيادة بخيت أصعب، والتي تعلمها بنفسه، وقاد سيارته بعد شرائها، بنصف ساعة فقط، من(أبو ناهل) وهو من منطقة بني شامخ، تاجر معروف ومشهور، في بيع وشراء وتصليح وتشليح السيارات، وله محلات في صنعاء أيضا، وقد كان كريما معه، فقد علمه و أرشده، أين يضع يديه وقدميه، وإن شاء استخدم عينيه، في تلك المرآة الوحيدة، التي تقع بين السائق والراكب، وفي الغالب لا يستخدمها.

طاوي ينفض الغبار عن ثوبه، في كل مطب وحفرة، ويكيل لبخيت اللعنات، ولسيارته غضب الدعوات، وبخيت يخفي ابتسامته بصمت، كانت

الشمس قد نزلت من قمم الجبال العالية، لتضع إكليلها الذهبي فوق شجر السدر، الذي يحيط بالطريق الترابي، وصلا أخيراً الى الطريق الإسفلتية، القابعة في أطراف القبيلة، بعد معركة استمرت حوالي ساعتين، كان أنف طاوي وفمه ترابيا، وشواربه ترابية أيضا، أشار إلى بخيت أن يتوقف، نزل وبيده علبة ماء كبيرة أحضرها معه، وغاب عن بخيت ثلاث دقائق، مختفيا بين صخور كبيرة، رجع إلى السيارة، أدار المرآة باتجاهه، عاد بشيء يذكره بنفسه،أدخل أصبعه داخل أنفه، ليخرج التراب المتكدس فيه، طلب من بخيت بسرعة أن يغسل العفريت الذي يلبسه، بالماء المتبقي في العلبة،خرج بخيت وعاد، والعفريت على وجهه، وأخبر طاوي قبل سؤاله، بأن الماء لم يكن يكفيه، انطلقا بالسيارة ثانية، انتهت معركة الحجارة والتراب، وبدأت معركة الحفر، شغّل طاوي الراديو فصدح صوت بخيت مع الوشوشة، يفيد بأن الإرسال ضعيف، ولن يعمل الراديو، إلا بعد الوصول إلى أطراف صنعاء، وفجأة وبدون مقدمات، توقفت اللعنات، التفت بخيت في ثبات، فإذا طاوي في سبات، بطأ سرعته أكثر، وذهب يتجنب الحفر، حتى وصل صنعاء، استيقظ طاوي على تلك الأصوات، التي تطلقها أبواق السيارات، بلا سبب ولا مقصد، وطلب من بخيت، أن يتوقف عند أستوديو للتصوير، والذي يقع على أقصى اليمين. طلب طاوي عشر صور فورية، بعد أن نزع شاله ومسح شواربه، وأضاف المصور للصور، بعض اللمسات الضرورية...

سأل طاوي بخيت إن كان يعرف منزل الضابط شاطر، هز بخيت رأسه بالإيجاب. وشاطر هذا من أبناء القبيلة، انتقل إلى صنعاء، وابتنى فيها منزلا ضخما، ويعيش في بحبوحة، ولا يزور القبيلة إلا في بعض الأعياد، ومشهور بتسهيل أي معاملة، في دوائر الحكومة، لكنه معروف بالطمع أيضا...

4

السفر

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ظهرا، الشمس تغازل صنعاء برفع حرارتها، والجبال ترد عليها، بشموخ هامتها، لتنتهي المغازلة، بنسيم لطيف، وجو رائع، تمتزج فيه البرودة بالحرارة، ليتخلق مولودا مناخي جميل ساحر، ليس له شبيه، في كل أرجاء الدنيا، وقفت سيارة بخيت البائسة، أمام منزل الضابط الفخم، وترجلا منها، وقبل أن يطرقا الباب، خرج الضابط شاطر من بيته، لابسا بدلته الأنيقة، على كتفه ثلاث نجمات وطير، نعاله لامعة، كشعره المصبوغ بالسواد، صافحهم وعرف طاوي وأنكر بخيت، تعلل طاوي بالطريق، وترابها، وابتسم بخيت غير مكترث، أخبرهم أنه ذاهب للعمل، وسيقضي فيه ساعة أو ساعتين ويعود، وما عليهم إلا أخذ قسط من الراحة في الملحق الخارجي حتى يعود، تعلل طاوي بحجج كثيرة، وبمشاغل أكثر، لكي لا ينتظر في بيت لا رب فيه، سألهم عن سبب مجيئهم، أخبره طاوي بقصة أخيه زوكان، وحاجته للسفر، ولجوئه إليه في استخراج الجواز وتأشيرة السفر إلى السعودية، زمَّ الضابط شفته السفلى، وشبك أصابع يديه وقد أطرق ببصره إلى السماء، وقال:

-نعم! نعم! الجواز، والتأشيرة، ثم كررها ثانية: الجواز والتأشيرة!

ثم بدأ يعد في أصابعه وكأنه يحسب حسابا..

كان بخيت قد فهم في حين طاوي لم يفهم، غمز بخيت يده في ظهر طاوي، وأشار إليه بفرك أصابعه، فأخرج طاوي حزمة كبيرة من النقود، كان قد أعدها خصيصا لهذا الجشِع، وقال:

-يا فندم! أعرف أن المعاملة تحتاج نقوداً كثيرة، خذ هذه كمقدمة

للمعاملة و إذا طلبت أي شيء آخر فأنا مستعد، أخذ الضابط حزمة النقود وضعها في جيبه و لمعت عيناه الزرقاوان وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة، حتى ظهرت أسنانه البنية المتآكلة، وقال:

-أريد منك ثماني صور، مقاس أربعة في ستة، وتقابلني غدا في الجوازات أمام كافتيريا الكوثر الساعة الحادية عشرة ظهرا، وكلها يومين والجواز و التأشيرة في يدك!

وفي صباح اليوم الرابع ذهب طاوي الليل إلى الشيخ جلمود يخبره بعزمه على السفر، وأن جوازه و تأشيرة سفره في جيبه، وسيسافر للبحث عن أخيه، في السعودية، فرح الشيخ جلمود فرحاً شديداً، وشجعه على ذلك كثيراً، ووضع في جيبه حزمةً أخرى من المال، وأخبره: بأن يتصل به فور وصوله، وأن يوافيه بما يتوصل إليه، ثم ودَّعه بحضور القاضي شمس الدين، والكثير من الأعيان والمرافقين، ولسان حالهم يقول: «اذهب لعل الشر يذهب معك»، ثم ودع طاوي أمه و زوجته وابنتيه و ابنه حميدان، بعد أن ترك لهم مبلغا كبيراً من المال...

كان بخيت بانتظار طاوي، أوصله بسيارته الهايلوكس، في معاناة لا تختلف عن سابقتها، إلا أن طاوي هذه المرة، أحضر كرتوناً كبيراً، وقصه، وغطى به النافذتين.

وصلا إلى الخط الرئيسي، ولم يترك بخيت طاوي إلا بعد أن استقل إحدى السيارات المارة، وقبل أن يصعد السيارة، كرر طاوي الليل وصيته لبخيت: بألا يسرق أبدا، وعليه أن يكتفي بما معه، حتى يلتقيا من جديد، وأن يكون بجانب حميدان إن احتاج لشيء، هز بخيت رأسه بالموافقة، ثم ودعه ورجع أدراجه..

كانت القبيلة قد اعتادت على خبر سرقة كل يوم، وإن تأخرت فكل أسبوع، ولم يكن للرجال والنساء من حديث، سوى أخبار السرقات،

ومهارة اللصوص، مضى اليوم الأول بلا إثارة، واليوم الثاني بلا جديد، واليوم الثالث بلا إشاعة، والرابع، والخامس وهكذا!

مر شهر كامل ولم يسمع أحد بسرقة، صغيرة كانت أو كبيرة، كان الجميع يتهامس، بأن مصدر الشر قد غادر، وتأكد للكثير، بأن طاوي الليل هو اللص الكبير، لكن لا يملك أحد أي دليل حتى الآن، واطمأن الناس، ولم يعودوا للحراسة والحرص...

بخيت يسمع ما يقال عن صديقه وشريكه، ويشعر بالغيظ والحنق، وأدرك أن حيدان وأمه وأختيه، أصبح خروجهم من المنزل نادرا، إلا للضرورة، تجنبا لنظرات السخرية، وعبارات الاحتقار، حدَّث نفسه، أن يوقف تلك المهزلة، التي لو قيلت في وجود طاوي، لأقام الدنيا وأقعدها، قرر تلك الليلة، أن يجدد خوف الناس، وأن يغرس في القلوب، شجرة جديدة للرعب، وأن يقتلع من ألسنتهم، اتهام طاوي الليل بذلك النَّهم، لم تعد تنقصه الخبرة، فقد أصبح متمرساً، ولم يعد يحتاج إلى مخططات، فقد علمه طاوي أخطر الاحتمالات، ذهب إلى المكان الأم، الذي أدى فيه القسم، واختار توقيتا مشابها.

وعند منتصف الليل جدد العهد، واستحضر العقد، وطاوي غائب حاضر، كغياب القمر في تلك الليلة وفي لحظة حاسمة تذكر، وصية طاوي قبل رحيله، حين أوصاه بترك السرقة، أعاد شريط التهم، خاطب طاوي الليل في ألم: سامحني أيها الكريم، فأنت ملهمي، وأنت معلمي، فقد كنتُ بدونك فقيرا معدما، وكنتَ معي وفيا، لكنك لو سمعت حديث الناس وقُبحَ قولهم فيك منذ مغادرتك، لأذنت لي، برد بعض اعتبارك. تخيل بخيت أن طاوي يرد عليه قائلا: مرة واحدة يا بخيت فقط! ردد بخيت : مرة واحدة، مرة واحدة، وسأشفي غليلك. أخذ بخيت يتساءل عن الضحية، لتلك الليلة، والتي ستقع تحت مطحنته، أخذ يمشط بفكره كل المزارع، وكل

البيوت، فكر أنه لابد أن يحظى بهذا الشر، كبير النامين، وعميد الساخرين، ومن يكون ذاك، إلا جرمل، ذلك البدين المنتفخ، الذي صار من أصحاب الأملاك والمزارع بعد أن كان فقيراً معدماً.

تدحرج بخيت نحو منزله القريب، وأخذ عدة المهمة: جواربه السميكة، وبقايا طعام في كيس صغير، وخمس شِوالات فارغة، وغرز مسدسه في حزامه، ودلف بين الأزقة يحث الخطى.

كان الناس ينامون عند التاسعة مساء، وتهدأ القبيلة ويعم السكون، إلا من نهيق هنا أو نباح هناك. جد في المسير، حتى بلغ مزرعة جرمل، وفيها كلب مربوط للحراسة، لكنه لم ينبح، بل هز ذيله ترحيبا، وأصدر صوتا يشبه مواء القطط، يصدره أثناء الفرح، وضع أمامه الطعام، فأكل الكلب ونام.

كان معظم المزارعين، قد لجؤوا للكلاب، بعد انتشار السرقات، على مر الشهور الماضية، لكن طاوي وبخيت، قد روضوا معظم الكلاب، وذلك بإطعامها لخمس ليال، وبعدها تأنس، ولا تنبح المُطعم أبدا، بل تَعده صديقاً لا عدوا، وكان كلب جرمل البغيض، ممن شملتهم قائمة الترويض.

خلع بخيت حذاءه، وأبدلها بجواربه السميكة، وتلك مهارة مكتسبة، من أستاذه ومعلمه، لكي لا يترك أثرا، من رسم نعاله، أو خريطة أقدامه.

تقدم إلى مزرعة الرمان، وكانت مليئة وارفة الثمر، تنتظر القطاف، استعان بسلم في المزرعة، ملأ الخمس الشوالات، في دقائق معدودات، شد وثاق الأخيرة، وحملها على ظهره، وقذف بها في بئر مهجورة، تدعى بئر «الفيران»، قريبة من المزرعة وبعيدة الغور، تلبسه الطمأنينة ولا يخشى الجور، وفعل بالأولى والثانية والثالثة والرابعة، ما فعله بالأخيرة...

5
القبيلة

وقبل أن يدلف الصباح، أفاقت الديوك على نواح، أيقظ الجميع ذلك الصياح، بصوته الناشز، لم يكن سوى البدين جرمل ..

تجمع الكثير حوله ليسأل، عن النواح والصراخ والحل، فلم يجب سوى بكلمة، كانت على الجميع صدمة، يقول: يا عباد الله رمَّاني، قالوا له: وما به رمانك؟ أجابهم: يا ناس رماني! قالوا: وما به رمانك؟ أجابهم: لم يبق فيه باقية! لم يبق فيه باقية! قالوا له: أفزعتنا يا جرمل، فاشرح لنا وفصّل، أجابهم: بالأمس قبل وداع الشمس للقبيلة، وكعادتي ودّعت فيها المزرعة، بعد زيارة قصيرة، أطمئن فيها على المحصول، واليوم زرتها عند الفجر، فوجدتها بلا ثمر... تهامس الجميع، عن عودة اللصوص...

وبعد عصر ذلك اليوم اجتمع الكثير من الناس في منزل الشيخ جلمود بطلب منه، وكان فيمن حضر، بخيت وحميدان، ومما قاله الشيخ، أن بعض الإشاعات ظالمة، وأن اتهام بعض الأشخاص لا يصح، بدون دليل ولا برهان، وبأن هذه السرقة، تكشف للجميع، بأن اللصوص ما يزالون موجودين، وبأن على الجميع اليقظة والحذر، وعلى الحراس والمرافقين، بذل الكثير من الجهد، ومراقبة أي تحركات مشبوهة، وأخبرهم الشيخ بعزمه على دعوة عقال المخاليف الأربعة، ليجتمع بهم، عصر بعد غدٍ الجمعة ...

***

كانت قبيلة بركان تتألف من خمس مناطق تتوسطها منطقة بني وعلان، حيث يسكن فيها الشيخ جلمود وفي شرقها اثنتان هما منطقة بني شامخ وهي الأقرب ومنطقة بني علي واثنتان غربها وأقربهما منطقة بني منصور

تليها منطقة بني ناجي .. ولكل منطقة عاقل معروف بالنزاهة ورجاحة العقل. . وللقبيلة سوق يتوسطها في منطقة بني وعلان في الوادي الأعلى في أرض واسعة، ينشط يومي الثلاثاء والخميس فقط. ويبدأ نشاطه قبل طلوع الشمس حيث يأتي إليه الناس مستبشرين متفائلين وتجد فيه القبيلة كل ما تحتاجه من حبوب كالذرة البيضاء والصفراء والشعير والقمح ومن فواكه كالتفاح والرمان والعنب والبرتقال والتين وكذلك القُعُدْ والأبقار والأغنام والماعز والدجاج، والملابس والمواد المنزلية ويبلغ السوق ذروته عند العاشرة وعند الحادية عشرة؛ تكون كل البضائع تقريبا قد نفدت، وعند الثانية عشرة تجده قاعا صفصفا كأن لم يكن به أحد.

وفي الأعوام الأخيرة توسع السوق حتى صار ينشط ببيع كل أنواع السلاح عدا الدبابة والطيارة. وتوجد فيه أيضا مواد البناء كالأخشاب والإسمنت و طلاء الجدران، ولم يعد السوق مقتصرا على قبيلة بركان فقط، بل أصبح يجذب الكثير من تجار العاصمة صنعاء، حيث يأتون بشاحناتهم الكبيرة، ليشتروا منتجات القبيلة بثمن زهيد، ويبيعونها بأثمان غالية. . وكان الناس يعودون من السوق راضين و فرحين. وقد باعوا بضاعتهم واشتروا ما ينقصهم.

ومن فوائد السوق كذلك أن للشيخ جلمود مناديا يُدعى مهياب ينادي في الناس لإعلامهم بأي توجيه أو طلب أو تحذير أو رسالة إلى المناطق الخمس.

وكان بخيت بسيارته الهايلوكس، يكسب في هذين اليومين مكسباً جيداً، مع أنه لا يعمل إلا في منطقة بني وعلان فقط ولا يذهب للمناطق الأخرى للقبيلة، ويحمل للناس أغراضهم من الوادي الأعلى حيث السوق إلى الوادي الأسفل حيث المنازل ..

وفي القبيلة مسجد الجمعة الكبير، والذي يقع في منطقة بني وعلان،

في الوادي الأعلى، وخطيبه وإمامه القاضي شمس الدين، صاحب فصاحة وبلاغة، وصوت جهوري، ويحضر صلاة الجمعة أُناس كُثر من المناطق الخمس، وخاصة منها القريبة، منطقة بني شامخ، و منطقة بني منصور، ورغم عدد الناس المهول، إلا أنهم لا يملؤون سوى النصف من المسجد.

وجاء يوم الجمعة، فتحدث القاضي في خطبته عن السرقة وأضرارها، وعواقبها... وبعد عصر الجمعة، أقبل، عقّال المناطق الأربعة إلى منزل الشيخ جلمود، وحضر ذلك الاجتماع القاضي وبعض الأعيان،وكان الشيخ يحدثهم بأن على الجميع أن يتكاتفوا في كشف هذا الوباء الذي اجتاح القبيلة، والذي لا يسمح به الدين والعرف والعادات والتقاليد، وأكد عقال المخاليف الأربعة للشيخ، أن مناطقهم آمنة مطمئنة، ولا يوجد فيها أي سرقة، كبيرة كانت أو صغيرة، وأن السرقات مقتصرة فقط على منطقة بني وعلان ...

وبعد مرور أسبوع، وفي صباح يوم الخميس، وعند الساعة التاسعة، والشمس تكسو القبيلة بأشعتها الذهبية، أقبل مهياب، وكان في الثلاثين من عمره طويلاً، نحيفاً، ذا رقبةٍ طويلة تنتهي برأسٍ صغير تتوسطه عينان واسعتان بنيتيّ اللون وشاربان كثيفان يغطيان فمه الصغير، على رأسه شال أزرق، ملفوف بإتقان، وعلى كتفه رشاشه الكلاشنكوف، يسير بين الأزقة بخطى واسعة، يتوقف فجأة على صوت يناديه: إلى أين يا زرافة؟ لم يكن أحد يجرؤ على مناداته بغير اسمه، سوى سعيدان، وقبل أن يلتفت رد عليه: تعال أيها القرد الأزرق. كان سعيدان في الثانية والعشرين من عمره، أزرق العينين، ويعمل في دكانه الصغير، الذي يبيع فيه لأهل المنطقة بعض ما يحتاجونه كالفول والتونة، والصابون، وكان أغلب زبائنه من الأطفال فيبيع لهم أنواع البسكويت والحلويات وبعض الألعاب الصغيرة، و في أحيانٍ كثيرة يساعده أخوه الأصغر مسعود وهو في

العاشرة من عمره، أزرق العينين، يشبه سعيدان كثيرا، ويختلف عنه بكثافة شعر رأسه ...وكان لسعيدان دعابة لا تتوقف، يتقبلها الجميع بلا تأثر، وله صوت نحيف يكفي أن تسمعه لتضحك من صوته... تصافحا، ومازحه سعيدان قائلا:

يجب أن أكون في الطابق الثاني، حتى تراني وتسلم علي؟

يبتسم مهياب وقد وضع يده اليسرى على صلعة سعيدان وضمه اليه، حتى لامس رأس سعيدان كتفه، وقال بصوت حاد:

-رافقني إلى بيت طاوي الليل؟

فيرد عليه سعيدان، وقد ذبلت ابتسامته، وماتت دعابته، وقطّب جبينه قائلا:

-يا لنكبة هذه الأسرة، ذهب زوكان ولم يعد، ولحق به طاوي، وانقطعت أخباره، هذه أسرة منحوسة! واستمر سعيدان في كلامه يقول:

-لابد أنهم منحوسون، بسبب عقوق أبيهم- رحمه الله- وخاصة طاوي الليل ! انتبه يا مهياب: فلا تكن عاقاً والديك! كن أمام والديك كالنعامة!

شد مهياب بيده على يد سعيدان وقال:

-هناك خبر سار عن طاوي.

قاطعه سعيدان وقد ارتسمت أكاليل الفرح على وجهه قائلاً:

-ماذا؟ هل عاد؟ هل وجد أخاه؟ ماذا هناك؟

-لقد قال الشيخ جلمود ألا أخبر أحدا بالخبر قبل حميدان، وستعرف بعد قليل.

صمت سعيدان وتسارعت الخطوات، ويده معلقة في يد مهياب، وقد استغرق في التفكير، سقط نعله، بينما مهياب يجره بصمت، صاح فجأة:

-مهياب! مهياب! نحن لسنا في سباق «الهجن»!

توقف مهياب وأحنى رأسه ليجد سعيدان بنعل واحد، وقد عاد إلى الوراء بضع خطوات، لينتعل الأخرى.

رفع سعيدان بصره وقال مبتسما:

-إما أن تمشي ببطء وإلا فاحملني فوق ظهرك وأسرع كما شئت.

ضحك مهياب، وأمسك ثانية بيد سعيدان وقال:

-سأمشي ببطء...

وصلا إلى منزل طاوي الليل، وكان يتألف من طابقين وحوش يتسع لخمس سيارات، طرق مهياب الباب الحديدي، خرج حميدان سريعا، وما يزال النوم عالقاً في أجفانه، طلب منهما الدخول لشرب الشاي أو القهوة، لكن مهياب فاجأه بالقول:

-الشيخ أوصاني أقول لك: أن والدك اتصل إلى بيت الشيخ، وقال أنه بخير وما يزال يبحث عن عمك، وهو الآن في الرياض، وسيذهب إلى نجد لأن عمك هناك، ولا تقلقوا، وهو يبلغكم السلام.

اختفى حميدان من أمامهما، كطير فرّ من قفص، يصيح لجدته وأمه بالخبر، وسمعا زغاريد مجلجلة.

وعاد مهياب يجر يد سعيدان الذي كان فرحاً أيضاً. ونامت القبيلة تلك الليلة، على خبر اتصال طاوي الليل، تتناقلها الألسن من بيت إلى بيت، في سرعة لا تحتاج إلى أثير.

خرج حميدان بعد دقائق من خبر الاتصال، يطوي المسافات، قد أنسته الفرحة لبس نعاله، ولم يبالِ بحرارة الأرض، حاسر الرأس، متوجها نحو منزل بخيت، سمع سيارة بخيت من مسافة بعيدة، وهي تعزف مقطوعاتها المزعجة، أسرع في الجري، قبل أن يتحرك بخيت، وصل وكانت أنفاسه تتلاحق بسرعة، فيصيح بصوت متقطع وكأنه يخشى أن يتحرك بخيت:

-إلى أين أنت ذاهب؟

أخرج بخيت رأسه وقد كساه بعض التراب، ويجيبه مستغرباً:

-إلى السوق.

أخرج حميدان من جيبه مبلغا من المال، وقال وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على محياه:

-اشتري لنا خروفا ونعجتين.

سأله بخيت:

-أراك فرحاً!

أجابه حميدان ضاحكاً:

-لقد اتصل أبي اليوم إلى منزل الشيخ...

فرح بخيت بالخبر، وذهب للسوق، واشترى خروفاً كبيراً، ونعجتين سمينتين، وعند الظهيرة، اجتمع الخروف بالنعجتين مع الحمار والبقرة في حوش طاوي الليل.

6
المطوع

وبعد مرور ستة أشهر من ذلك الاتصال، كانت الأسرة على موعد جديد مع الحزن، فقد ماتت أم طاوي الليل فجر يوم الخميس، مع أنها لا تشكو أي مرض، سوى الحزن، فتركت لمن خلفها، ثوبا جديدا من الألم، وكان حميدان ابن الرابعة عشرة ربيعا، أشدهم حزنا عليها، فقد كان متعلقا بها، يظهر ذلك في الجنازة، فصياحه بلا انقطاع، وبكاؤه يشجي الأسماع، يحثو التراب على رأسه، وكاد ثوبه المعتق أن يسقط، من كثرة ما أصابه من تقطيع، ولم يعد أحد يكترث بذلك الجثمان، الذي تحمله الأكتاف إلى المقبرة، فقد استوفت من العمر فوق الستين، لكن نواح الصبي كان يقطع نياط القلوب، وكان القاضي يهلل ويكبر، والناس بعده تهلل وتكبر، وما إن بلغ الجثمان المقبرة، والأيدي تتبادل نقل الجثمان إلى قبره، حتى سقط الصبي مغشيا عليه، البعض يواري الثرى على الجدة، والبعض يرش الماء على الصبي، اكتملت مواراة القبر، وأفاق الصبي مصدوما مندهشاً، يسأل عنها حين يفيق، ويغمى عليه دون جواب، واستمر حاله هكذا، كان البعض يهمس بأنه سيلحق بجدته عما قريب، حتى أقبل بخيت وحمله على سيارته إلى أمه، قبل شروق الشمس، ولم يجد حال البنات وأمهن، بأفضل حال منه، إلا أنهن يُسألن فَيُجِبْنَ...

وبينما الناس في حلقة كبيرة بجوار القبر، يتوسطها القاضي، يقرؤون سورة يس، بصوت مرتفع، في روحانية عالية، وخشوع مهيب، أقبلت سيارة صفراء هايلوكس تويوتا «غمارتين» فوقها عفش كثير، توقفت أمام منزل منير المقص، أسرع الأطفال لمعرفة هذا القادم، نزلت منها بعض

النسوة، ورجل لم يعرفه أحد، وشكله الغريب، وهيئته الأغرب، يشاهدون رجلا في العقد الخامس من عمره، بلحية طويلة مصبوغة بالسواد، ويلبس ثوبا أبيض، وعلى رأسه كوفية بيضاء تظهر حوافها خلف أذنيه، قد لف فوقها شالاً أبيضَ، لفات عديدة، تاركاً منه ذيلا صغيرا، خلف رقبته، ويلبس نعلين أسودين لامعين، وفي يده عصاه، يتأمله الأطفال بصمت، وقد أسندوا ظهورهم،إلى جدار منزل سعيدان ...

استغرب الأطفال أكثر، وظهرت ضحكاتهم، وهم يشاهدون ثلاجة، وغسالة وتلفزيوناً كبيراً، ويتهامسون كيف ستعمل هذه الآلات، ولا يوجد كهرباء في القبيلة، وزاد استغرابهم حضور منير المقص، وتفانيه في إنزال العفش، والترحيب بهذا القادم الغريب، بل وأدخله منزله، تدافع فضول الأطفال، لدفع أحدهم بالسؤال، وكل واحد يدفع بالآخر، وحين أقبل منير ليحمل بقايا آخر الأثاث، وقد ألقى ابتسامة خفيفة تدرك سر استغرابهم، سأله أحدهم: من هذا يا منير؟ اقترب منهم هامسا: هذا عمي جرير، كان مغترباً في السعودية، منذ حوالي عشرين سنة، وهذا في الأصل بيته، أما بيتي فذاك، وأشار بيده إلى منزل صغير مجاور...

وما إن سمع الأطفال الخبر، حتى تطايروا، كجراد منتشر، وما هي إلا ساعة، وقد امتلأت منطقة بني وعلان بالنبأ، إلا منزل طاوي الليل، فقد كان مليئا بالموت وأخباره. وبعد سويعات فاض الخبر، إلى مناطق قبيلة بركان الأربعة الأُخرى، عن عودة هذا الغائب، الذي لا ينتظره أحد، فقد باع أرضه التي كان يمتلكها، وحين لم يجد لمنزله من يشتريه، رغَّب لابن أخيه أن يسكن فيه، لأنه أوسع من منزله، ورحل عن القبيلة مختارا، وحمل أهله معه...

وها هو الآن جرير المقص يجد بيته نظيفا مرتباً، يمشط بعينيه، كل ركن وزاوية، كانت لمسات العناية واضحة جلية، فالدرج من الطابق الأول إلى الثاني نظيف، والديوان «المجلس» تلمع جدرانه من صبغ زيتي جديد، وسقفه المرصوص بأخشاب السدر المحلية، تنام فوقها تلك الألواح الخشبية المستوردة، صافية نقية، لم تعبث بها قطرات المطر المتسربة، كما في كثير من البيوت، ومع أن منير قد نقل أثاثه كله إلى منزله، منذ جاءه النبأ بعودة عمه، إلا أنه ترك أثاث الديوان كما هو، من الموكيت الأزرق الكبير، الذي يغطي الأرضية كاملة، إلى ثمانية من المداكي «الوسائد» المحشوة من التبن، والمغلفة بقطيفة حمراء سميكة، وأربع مساند مغلفة بقطيفة حمراء. وبعد أن استلقى جرير على الموكيت، واتكأ على أحد المداكي «الوسائد» وأسند ظهره إلى أحد المساند...

كانت رائحة البن، تسابق منير، تلك القهوة التي يدمنها كل فرد في القبيلة، صغيرا وكبيرا، ولا تتخلف عن وقتها، ولا تحضر في غيره، فلا تقبل إلا أن تكون على الريق، ويدخل منير،حاملا معه كوبين من قهوة البن، تنسي المسافر عذاب السفر، وتزرع في المقيم أحلى الثمر، أخذ جرير كوبه ورشفه كاملاً، محدثا بين شفتيه أصوات عالية، ويسأل منير، عن علوم القبيلة، وماذا تغير فيها، فيجيبه بأن القبيلة كما تركها، بلا كهرباء، ولا طريق، ولا مستشفى، ولم يتغير فيها شيء، سوى غياب طاوي الليل بعد أخيه، والذي أصبح حديث القبيلة كلها.. ويقطع حديث منير قائلا: لقد التقيت بطاوي الليل قبل شهر في نجد، وقف منير وكأنه لا يصدق ما يسمع! وقال لعمه بذهول: هل التقيت به قبل شهر! أجابه جرير: نعم قبل شهر.

أمسـك يـد عمـه وقـال: أعـلم حاجتـك للراحـة، لكـن هنـاك مـن ينتظـر هـذه الفرحـة، وأخـبره بتفاصيـل غيـاب طـاوي، وحديـث النـاس عـن هلاكـه، و بمـوت أم طـاوي، وحـزن حميـدان !!

كان جـريـر يريـد زيارة شـيخ القبيـلة، قبـل زيارة أي أحـد، فهـو لم ينـسَ العـادات، ولم تنمـحي كل التقاليـد، لكـن إصرار منير، على تأجيلها، والمبـادرة، بزيارة أهـل الميـت أولى...

خـرج منير وعمـه جـرير مـن المـنزل، ومنـير يفضـل المسـير، لكـن عمـه جـرير فتـح باب سـيارته الهايلوكـس الصفـراء، طالبـا منـه الركـوب، وألا يرشـده إلى الطريـق، وتحـرك بالسـيارة، يأخذهـا يمينـا وشمالاً، بـين الأزقـة و البيـوت، ليسـلك الطريـق الوحيـد إلى الباحـة الواسـعة،ويتوقف عنـد نهايتهـا، حيـث مـنزل طـاوي الليـل، وكأنـه لم يغـب عـن القبيـلة إلا أيامـاً.

كان صـوت نحيـب متقطـع، يسـابق خطـوات جـرير، و حـول المـنزل رجـال وصبيـان، بعضهـم خـارج مـن المـنزل، والبعـض يتهيـأ للدخـول، صافحهـم جـرير واحـدا واحـدا، ولم يعرفـه منهـم إلا القليـل، وبعـد أن عرَّفهـم بنفسـه، كانـت نظـرات الدهشـة، قـد أخـذت منهـم مأخـذا، دخـل جـرير يتبعـه منـير، إلى الديـوان «المجلـس» حيـث رأس النحيـب، اقـترب جـرير مـن حميـدان، وجلـس بجانبـه، يصـبره ويذكـره، لكنـه لا يكـف عـن البـكاء، والصراخ، ولا يسـمع مـن أحـد حديـث، ويغلـق عينيـه إلا مـن دمـوع تتسـرب بقـوة، طلـب جـرير مـن الجميـع الصمـت، وأمسـك بيـده رأس حميـدان، وبـدأ ينفـخ في وجهـه ويكـبر، فـلم يجـد أذنـا تسـمع ولا عينـا تفتـح، فـأردف ينفـث ويسـبح، لكـن دون جـدوى ! وحميـدان لا يزال يـصرخ وينتحـب، فأخـذ يتفـل في وجـه حميـدان ويهلـل، توقـف حميـدان عـن النحيـب، ليسـتبين عـن هـذا

المتجرئ الذي يتفل في وجهه، ولا يقيم وزنا لما هو فيه، فتح نصف عين، ليرى لحية طويلة يتوسطها أنف كبير يكاد يلامس رأسه، وعيون صغيرة غارقة في تجاويف عميقة، تعلوهما حواجب كثيفة متصلة، فوقها جبهة بارزة، ارتعب! وفتح عينيه، وصرخ: شيطان! شيطان! وردد الاستعاذة! أكثر من مرة! حاول الهرب،أمسكه جرير، واقترب منير، وأمسك بيد حميدان، بينما عيناه قد تسمرت في تفاصيل هذا الغريب المرعب، همس منير قائلا: لا تخف هذا هو عمي جرير المقص، كان مغتربا في السعودية وعنده خبر سيفرحك! اعتدل حميدان وتربع، وكأنما نشط من عقال، وقد اتسعت حدقتا عينيه، وتحول خوفه أمنا، واضطرابه سكينة، وغالَبَ ابتسامةً تكاد تقتحم وجهه الذابل، لكنه أجلها ليعرف الخبر!

أمسك بكلتا يديه ذراعي جرير، وقال وفي صوته بُحَّة من البكاء: أخبرني! ما هو خبرك السار؟

ابتسم جرير المقص وقال: لقد التقيت أبوك قبل شهر وجلست معه أوقات طويلة، وهو بخير، وما يزال يبحث عن عمك زوكان.

ضحك بصوت مرتفع، واحتضن جرير المقص، يقبل وجهه ورقبته، وتستمر ضحكته، وتجود عيناه، بدمع فرح غزير، ضحك الجميع، ونهض حميدان، متخطياً رقاب من تحلق حوله، وخرج من المجلس يصيح بأمه، وكانت تبكي مع بعض النساء، في غرف المنزل الداخلية، وسمع صوته كل من في الديوان: أمي! إن أبي بخير!!

أقبلت الأم مندهشة تتأمل حميدان، وقد كانت تظن به الهلاك، والآن يتراقص فرحاً، بخبرٍ ميؤوس منه، وهاجمتها فكرة قاتلة، ظنته قد فقد

عقله، اقتربت منه واحتضنته، هو يقبلها فرحاً وسعادة، وهي تضمه إشفاقاً وألما، ودارت في رأسها مصائب لا تحصى، وتهذي في شرود وتتساءل قائلة: حميدان يفقد عقله، من سيرعانا بعد اليوم؟ أدرك حميدان برودة الاستجابة، وأن الخبر لم يحرك فيها ابتسامة، نظر إلى عينيها الشاردتين، ووجهها الذابل الواجم، هزها بقوة وقال: أمي! هل تعرفين جرير المقص؟ انقبضت وانتبهت، وطردت الشرود وأجابت: نعم أعرفه، لقد غادر القبيلة منذ سنين طويلة مغتربا في... قاطعها قائلاً: إنه في الديوان، ويقول أنه التقى بأبي!، كانت كمن أصيب بصعقة كهربائية، قذفت بنفسها إلى الديوان، تفتش الوجوه بعينين حادتين، وقفت على جرير ولم تخطئه، مع أن السنين قد أكلت منه الكثير، انسدلت منها جديلة شعر، لم تخبئها ولم تلتفت لها، وحميدان خلفها يقول: أخبرها يا مطوع بالخبر.

اختصر جرير المقص الخبر لعشبة والحاضرين، بأنه التقى طاوي في نجد، وهو بخير وفي عافية.

أضاء مصباح الأمل، وانطفأت نار الألم، وتحول مأتم الجدة، في بيت طاوي الليل، إلى عرس صامت، تدق طبوله في القلوب، وتتراقص الزينة في الأعين، وانتشر الهدوء في المنزل، وتسرب المعزين الواحد تلو الآخر، وأشارت عشبة بذبح الخروف فرحا، و ابتهاجا، فقد كان الخبر ميلاد جديد، في حياة الأسرة المكلومة .

7
استكشاف

خـرج جـرير المقـص يرافقـه منـير، و كان بعـض الصبيـة قـد سـبقوهما، وركبـوا في صنـدوق السـيارة، يهمسـون لمنـير، أنهـم سـينزلون عنـد دكان سـعيدان، سمع همسهـم جـرير، وقـد عبس وجهـه وقـال: تمسـكوا جيـدا، كانـت سـيارته جديـدة، ولا تصـدر منهـا أصـوات منكـرة، وجـرير لا يـسرع في القيـادة، لكنـه يتصيـد الحجـارة، ولا يحسـن اتقـاء الحفـر، خاصـة حـين يتـكلم، وقلما يسكت، فقـد سـأل منير عن كل شـاردة وواردة، ومـا إن وصـل أمـام دكان سعيدان حتى بطّأ السرعة لوجـود مطب مـن التراب، قـد أعـده سـعيدان منـذ بـدأ في الـدكان، يسـتوقف بـه السـيارات المـارة، لإلقـاء نظـرة عـابرة، عـلى مـا عنـده مـن بضاعـة، وقـد علـق عـلى واجهـة الـدكان، بعـض المغـريات للأطفـال، كالكـرات والبالـونات، وبعـض الألعـاب الصغـيرة، وطبـع عـلى الجـدران، صـوراً ودعـايات، لمـا يبيعـه مـن زيـوت و حلـويات، وقبـل أن يتوقـف جـرير، كان الصبيـة يلوحـون بأيديهـم له شـاكرين، ويشـيرون له بأيديهـم، أن يستمر في طريقـه ولا يتوقـف، لكنـه توقف بعنـف، ونزل مسرعـاً، وكان في نظراتـه إشـعاع غاضـب، جعلـت مـن الصبيـة يتوقعـون شرا، ويتقـون ذلـك بالتخنـدق خلـف سعيدان، الـذي يقـف أمـام الـدكان، خاطبهـم بقسـوة قائـلا: كيـف تتقافـزون ولم تتوقـف السـيارة؟ واستمر في نصائحـه التي لم يوقفهـا إلا جـواب سـعيدان: يا مطـوع، اهـدأ! فالأمـر لا يحتـاج كل هـذا الغضـب، والصبيـة متدربـون عـلى القفـز، ونريـد نتعـرف عليـك أكـثر، تعـال أشرِّبـك عصـيراً ... لكـن جـرير المقـص قاطعـه قائـلا: أنـت تشـجعهم عـلى الخطـأ، وأنـت أولاً تحتـاج مـن ينصحـك، وواصل جـرير حديثـه وقـد أشـار بيـده إلى الصـور الملصقـة:

هل تعرف أن هذه الصور حرام ففيها صور لنساء بشعرهن ...

ضحك سعيدان وقد أمسك صلعته اللامعة بكلتا يديه وقال:

هـذه صـور أطفـال، دعايـة للحلـويات، لكـن ولا تقلـق، أنـت أعطـني صورتـك وأنا أضعهـا بديـلا. ضحـك الصبيـة ضحـكات عريضـة، وضحـك منـير ضحكـة صغـيرة واحـدة، لكنـه زمهـا بسرعـة، وبـدا عـلى وجهـه مـا يشـبه النـدم.

اقـترب سـعيدان منـه ومـد يـده وصافحـه، وعرفـه بنفسـه، وطلـب مسـامحته، وأنـه يمازحـه، ووعـده بأن يحـذر الصبيـة، وأخـبره بأن أباه قبـل وفاتـه، كثـيرا مـا حدثـه عنـه...

ابتـسم جـرير المقـص في خجـل، حـاول أن يداريـه بسـخرية، وقـال: كان أبـوك جـاراً طيبـاً رحمـه الله وكان عمـرك لا يتجـاوز السـنتين.

ركبـا السـيارة باتجـاه مـنزل الشـيخ، ومـا إن وصـلا أسـفل الربـوة، حـتى طلـب منـير أن يترجـلا، لأن الصعـود صعـب، ولا تسـتطيع سـيارته ذلـك لأنهـا ليسـت ذات دفـعٍ رباعي، لكـن جـرير أصر، وجعـل الترويسـة في وضـع السـواقة الوعـرة، وبعـد تراقـص مضـنٍ، وانقشـاع غبـار كثيـف، توقـف أمـام بوابـة كبـيرة، مطـلٍي بابهـا باللـون الأبيـض، واسـتقبلهما جرمـل وكان يلـف عـلى رأسـه شـالا بنيـا داكنـا، قـد انسـجم مـع لـون بشرتـه السـمراء، فـلا تفـرق بينهمـا، كان خـبر وصـول جـرير المقـص يسـبقه في كل مـكان، وكل مـن التـقى بهـم يعرفونـه، وهـو لأكـثرهم منكـر، وصافحـه جرمـل وناداه باسـمه، وبينـما هم وقـوف، إذ أقبلـت سـيارة بيضـاء لانـد كـروزر، وتوقفـت بجـوار سـيارة جـرير، نـزل منهـا الشـيخ جلمـود، وكان يلبـس ثـوباً أسـودَ، ويغطـي رأسـه بشـال أسـود أيضـا، تصافحـا ورحـب بجـرير، وبعودتـه إلى القبيـلة بعـد الغيـاب الطويـل، أمسـك الشـيخ جلمـود بيـد جـرير المقـص، وأخـبره بـضرورة الدخـول وشرب

القهوة وتناول الفطور، لكن جرير المقص اعتذر بشدة وقال:

- لقد وصلتُ قبل حوالي ساعتين، وقلت لابد من السلام عليك، قبل الاستراحة من السفر، وأخبرك بلقائي بطاوي الليل، قاطعه الشيخ قائلاً:

-مرحبا بك في القبيلة، ولقد علمت بهذا الخبر، ولكن اذهب الآن وارتح وسيكون الغداء عندي.

احمر وجه منير خجلا وقال بسكينة:

-يا شيخ قد جهزت الغداء عندي، فرد الشيخ مخاطبا جرير:

- إذاً اليوم أنت ضيف منير وغدا أنت ومنير ضيوفي ...

وعند أذان الظهر، خرج جرير ومنير إلى المسجد الصغير الذي يقع في منتصف بني وعلان، في الوادي الأسفل بجوار بيت القاضي والذي يتسع لحوالي ألف شخص، وفي الحقيقة ليس بصغير، لكن وجود مسجد الجمعة الكبير، في الوادي الأعلى، ومقارنته بهذا المسجد، فرض هذه التسمية الإجبارية، وهو مبني من الحجر الأبيض، وسقفه من الخشب المحلي، وبداخله يقف ثلاثة عشر عمودا من الحجر، وبين كل عمودين جسر نصف دائري، مبنيّ من الحجارة أيضا، في هندسة معمارية مذهلة، ولم يدخل الحديد و الإسمنت في بنائه أبداً، ومطليّ من الداخل بلون أبيض، وله ست نوافذ كبيرة، وأربع خزائن جدارية، قد ملأت بالمصاحف الكبيرة والصغيرة، ولم تكن له مئذنة، ويحيط به حوش صغير من جهتين، وفي الحوش بركة ماء عميقة،قد صبت أرضها وجدرانها بمادة مطحونة من الجبال القريبة تشبه الإسمنت في قوتها، وتخالفه في لونها الفاتح والمائل

للبياض، وتملأ البركة قبل أن تنفد، يغترف منها المتوضئ في وعاء صغير، ليتوضأ في مكان يقابلها، وبعيداً عن حوش المسجد بعشرين متراً، توجد خمسة حمامات بدائية، ليس الماء من لوازمها، وإنما أحجار صغيرة توضع في زاوية كل حمام، يجددها كل محب للخير، ولا تنقطع الحجارة أبدا، وليس لها أبواب، وإنما النحنحة هي طريقة الدخول، فإن كانت خالية فلا نحنحة تجيب. خلع جرير نعليه ودخل المسجد، فقد كان متوضئاً، وقابل القاضي شمس الدين، وتصافحا، وجرير يقلب نظره، فلا يرى شيئا تغير، منذ عشرين سنة، إلا السجاد الأحمر السميك، الذي يغطي أرضية المسجد، واقترح على القاضي بتثبيت خيوط، بين الصفوف عند الأقدام، قابل ذلك القاضي بابتسامة خفيفة، وجرير ما زال يحملق في المسجد، ويخطو خطوة هنا وخطوة هناك، ويهمس هنا، ويرفع صوته قليلا هناك، لكن القاضي انشغل في صلاته، وتركه ينشغل في ملاحظاته.

وفي طريق عودتهما، والشمس عمودية فوق رأسيهما، كان جرير لا يكف عن سؤال منير، عن إمام الصلاة في المسجد؟ وعن المؤذن؟ وعن المقيم؟ وكم تدفع لهم الدولة من رواتب؟ ومنير يجيبه بما يعرف، وبلا أدري فيما لا يعرف، وسأله عن الجمعة وخطيبها، فأجابه بأن الجمعة لا تكون في هذا المسجد، بل في المسجد الكبير في الوادي الأعلى، والخطيب والإمام هو القاضي.. وأخيرا سمع جرير بشيء جديد، قد ولد في القبيلة.. وأخذ يسأل كثيرا عن الأشياء الجديدة، وأخبره منير عن بناء المحكمة الجديد في الوادي الأعلى أيضا، فطلب أن يتحركا بعد تناول الغداء، لزيارة المسجد والمحكمة، لكن منير ذكره بأن غدا الجمعة، وستكون الصلاة هناك، والمحكمة قريبة من المسجد الكبير، وذكّره بدعوة الشيخ له للغداء غدا أيضا...

8
الوليمة

وفي يوم الجمعة وعند الساعة العاشرة، والشمس تبسط أشعتها على البيوت المتقاربة، وتلاحق الظل في الأزقة الضيقة، يخرج جرير وقد لبس ثوباً أبيضَ جديداً، واعتمر شاله الأبيض، تاركاً ذيلا صغيرا خلف رقبته، وأخرج من جيبه وعاءً صغيرا، نزع غطاءه الموصول بعود طويل، ومسح ما علق فيه، من دهن العود، بلحيته الطويلة، ثم مسح البقية بيد منير، الذي كان يلبس ثوباً أبيضَ، وكوتا «معطفاً» أسودَ، وشالاً أصفرَ على رأسه، واحتزم جنبيته «خنجره» حول خصره، وانطلقا بالسيارة، وكان أصعب الطريق على جرير، وأخوفها على منير، هي النزول من الوادي الأسفل إلى السائلة، والصعود منها إلى الوادي الأعلى، وهي معركة لا يحسمها، إلا من امتلأت قلوبهم قسوة وغلظة، ولا تأخذهم بسياراتهم إلاً ولا ذمة، وتوقفت السيارة أمام المحكمة، والتي كانت خالية ومغلقة، بناؤها حديث، تتألف من طابقين، بنيت من الإسمنت والحديد، ومن حجارة بيضاء وسوداء، مرصوصة بتشكيلة رائعة، ونوافذها كبيرة، مصنوعة من الألمنيوم، وينعكس ضوء الشمس على زجاجها اللامع، يتوسط البناء مجسم كبير، لميزان معتدل متوازن، مطليّ باللون الأخضر، و يحيط بها جدار بطول القامة، مطليّ بلون أزرق، كلون السماء، يلتقي عند بوابة كبيرة، لها باب من الحديد، مطليّ باللون الأبيض، تتخلله نقشات صغيرة، قد طليت باللون الأسود، وقف جرير مشدوهاً، يتأمل البناء...

وتحرك جرير، نحو مسجد الجمعة الكبير، القريب من المحكمة، ولم تتحرك ذاكرته، التي ما تزال مأخوذة بالمحكمة، ولم يكن انبهاره بها، إلا لوجودها في القبيلة المنسية، بهذا البناء والإتقان، توقف أمام المسجد الكبير، والذي كانت منارته الطويلة، ترفع هامتها، لترى البعيد والقريب، طولها ثلاثون متراً، تنتصب عند الركن الشرقي للمسجد، وتربض عند

أقدامها قبة كبيرة، تتربع على سطح المسجد، المبني من الحديد والإسمنت، ومطليّ باللون الأبيض، يحيط به حوش كبير، له باب حديدي متوسط، وفي الحوش درج سفلي ينتهي عند بركة كبيرة، حولها عشرة حمامات نظيفة، بأبواب حديدية مطلية باللون الأبيض...

وماهي إلا ساعة، وقد أقبلت السيارات من مناطق القبيلة الأربعة، أما منطقة بني وعلان فكان الناس يفضلون المجيء على الأقدام، عبر طرق مختصرة، ولم يأت بسيارته إلا الشيخ جلمود، جلس جرير المقص متكئاً على أحد الأعمدة، في مؤخرة المسجد، يتأمل في المسجد الواسع، وسقفه المستقيم، وجدرانه النظيفة المصبوغة بالأبيض، وقد زينت وزخرفت ببعض الآيات، وذلك الموكيت البنيّ المغطي للأرضية، وعليه خطوط بيضاء مرسومة بدقة، يراقب الداخلين، وكأنه غريب هيئة وروحا، دخل أحدهم يحمل مبخرة، ورائحة بخور زكية تتصاعد منها، يمر بها على كل أنحاء المسجد، وحين اطمأن بأن البخور قد سكن كل الزوايا، استقر به وبها المقام، بجوار القبلة قرب الإمام، وكانت ما تزال تطلق أبخرة، ولكن بوتيرة أقل، وبعد لحظات أقبل صبي وأبوه يحملان حزمتين كبيرتين من أغصان الريحان، تكفّل الأب بالجهة اليمنى، والابن باليسرى، ولا يمران على أحد إلا وقذفا له بغصن من الريحان، وما تبقى من تلك الحزمتين، وُضع عند باب المسجد من الداخل.. وأقبل الصبي إليه، وقذف له بغصن، لكن جرير وضعه في حجرة، فأقبل الصبي وقال في حدة: ضعه هنا يا مطوع! وغرز غصن الريحان، بين لفات الشال، وكأنه غصن نابت في الرأس. ابتسم جرير، وهو يشاهد جميع الرؤوس، قد نبتت منها أغصان الريحان، وكانت ثلاث مكاحل معلقة، وموزعة على جدران ثلاثة، يتأمل بعض الداخلين، ينطلق إلى واحدة منها، يكحل عينيه ويجلس.

وما إن قام القاضي للخطبة، حتى غير جرير مكانه، وتقدم إلى الصف الثاني.

وبعد الصلاة والخروج من المسجد، صافحه كثير من الناس، ممن لا يعرفهم، ينادونه بالمطوع، وبعضهم بالمطوع جرير، حتى جاء مهياب وأمسك بيده، وعرفه جرير أنه مهياب من رقبته الطويلة، واتساع عينيه، وهمس في أذنيه بأن الشيخ في انتظاره، فهز جرير رأسه بالموافقة.

وصل جرير إلى سيارته، وقد تحلق حولها الكثير، يتوسطهم منير، وقبل أن يتحرك، كانت قد امتلأت بأشخاص لا يعرف منهم إلا سعيدان، وكل واحد يرحب به ويسأله عن الحال، ويجيبهم في غيظ مكتوم، ولم يكن داخل السيارة بأفضل حال من صندوقها، الذي امتلأ بركاب كثر، أخرج رأسه من النافذة، وصاح فيهم: تمسكوا جيدا، ولا تتقافزوا قبل أن تتوقف السيارة! قادها ببطء تارة وبسرعة تارة أخرى، والضحكات ترتفع داخلها وعلى ظهرها...

توقف عند مطب سعيدان، ونزل الجميع، وكانت عينا جرير قد احمرّت، بفعل التراب المتطاير، أو بفعل الحمل الثقيل، وتحرك ثانية صوب منزل الشيخ، وما إن وصل حتى استقبله الشيخ جلمود، وأدخله الديوان «المجلس» الكبير والذي يقع في الطابق الثاني، وطوله خمسون متراً، وسقفه الإسمنتي، المطلي بلون زيتي فاتح من الداخل، وأرضيته المفروشة بموكيت سميك، لونه يشابه لون الجدار، وعلى جانبي الديوان وبطوله الممتد، ذلك الإسفنج السميك، بارتفاع عشرين سنتيمتراً، مغلف بقطيفة رمادية ناعمة، وعلى ذلك الإسفنج، تنتظم المداكي «الوسائد»، وكأنها جنود في ميدان، وقد عد جرير خمسين مدكئ «وسادة»، ثم تخبط نظره، وعاد ليعد من جديد، فوصل إلى السبعين ثم تخبط، وحملق في تلك المساند التي تقف على الجدار، بطول الديوان وعرضه، والمغلفة بقطيفة رمادية ناعمة، لم يكن في الديوان إلا جرير مع ابن أخيه منير، وماهي إلا دقائق حتى بدأ الضيوف يتوافدون ومن ضمن الضيوف كان حميدان، والذي كان يرغب بالحديث مع جرير، فكانت إشارة منير له بالقرب منهما، لحظة سعيدة، اقترب من جرير وسأله عن والده وماذا أخبره وعن صحته وعن أي تفاصيل لم يخبرهم

بها؟ وكانت أجوبة جرير، مختصرة، ولم يزد على ما قال لهم شيئاً، خاصة ولا حديث لديه في هذه اللحظة، غير حديث الطعام.

دخل أحدهم يحمل حوالي عشرين حرضة « وهي وعاء صغير من الفخار يوضع فيها المرق»، في صحن كبير استقبلته الصيحات من كل الحاضرين: ابدأ من عند المطوع! أقبل نحو جرير، صائحا بصوت يشبه الصراخ: تفضل يا مطوع، وجرير يخشى سقوط الصحن، وتلك «الحرض» فوق رأسه، أخذ واحدة منها، وكان الزيت يغطي وجهها كالمرآة، يرى من خلاله لحيته وأنفه، وشرب قليلا، ما لبث أن رشفهُ كله، فطعمه لذيذ لا يقاوم، وكان البقية يرشفون المرق، محدثين أصواتاً عالية، تخرج من بين الشفاه..

وأقبل آخر ليمد سفرة طعام طويلة من البلاستيك، وبدأت تدخل الأطعمة، في أوانٍ من الفخار، وأخرى من المعدن، وثالثة من سعف النخيل، ورابعه من النيلون، وكان تقسيم الضيوف لمجموعات، وكل مجموعة خمسة إلى سبعة أفراد، وكان واضحاً الاهتمام بمجموعة المطوع، و الطعام مرصوص بطريقة منظمة، وجاء النداء من أحدهم: هلموا، تفضلوا! انقض الجميع على المائدة، وجرير يحملق في الصحون، حملقة نهم مسغب، فبدأوا بصحن الشفوت «وهو خليط من الخبز واللبن» عليه بعض الزحاوق «وهي مسحوق من الطماطم والفلفل وبعض البهارات».. وبعده جاء دور بنت الصحن «وهي رقائق صغيرة جدا من الخبيز تتراكم فوق بعضها، يتخللها ويعلوها السمن والعسل البلدي»، ومنثور على سطحها القليل من الحبة السوداء، وما لبثت أن تخطّفتها الأيادي.. وجاء دور الهريش «وهي نوع من القمح الخشن»، تتوسط الجفنة «الوعاء» كأنها جبل، يحيط بها المرق كنهرٍ دائري، كانت الأصابع تلتهم «الهريش» بعد غمسه في المرق، بنهم خالص.. وبعدها جاء دور السلتة «وهي خليط من البطاطا والكوسا والبامية واللحم المفروم والزحاوق والمرق مع الحلبة المخلوطة باليد» قد أقبلت في أوانٍ منحوتة من الصخر، و تعتبر السلتة هي الملكة

في وجبة الغداء، ومع السلتة حضر الملوج «وهو خبز كبير من الدقيق»، كانت السلتة لذيذة، وكم اشتاق لها المطوع جرير، لكن المجموعة التي حوله، لم تترك له فرصة التلذذ، بطعم السلتة، والتي انهالت عليها الأيادي، وهي ما تزال تفور.. وجاء دور اللحم، ودخلت الصحون كسرب من الطائرات، لكل مجموعة صحن متوسط، ونال اللحم ما نال السلتة و كان المطوع جرير يبحث عن لحمة لينة سهلة، فنال منها ما ناله من السلتة، في معركة غير متكافئة، بين الأيادي المفترسة المدربة، واليد التي ترهلت بين صحون الكبسة، ومع ذلك فقد أكل الكثير، وبعدها جاءت صحون من الفواكه، لم يلق جرير لها بالاً، فقد كان قاب قوسين أو أدنى من التخمة.

وبعد تناول الغداء، وُزع الشاي، في أكواب زجاجية صغيرة، وبدأ الناس على التوافد إلى الديوان، وكأنهم على موعد اجتماع لا يعلمه جرير، وهمس جرير لمنير، لم قدم الناس؟ ومنير يقلب يديه في إشارة لعدم معرفته، وبعد دقائق قام القاضي، وكان يجلس منتصف الديوان، وبعد أن حمد الله وشكر الشيخ جلمود وأثنى عليه، أخبر الجميع قائلا: سنقرأ أولاً سورة يس إلى روح أم طاوي ثم سنستمع للمنشد الذي جاءنا من صنعاء.

وما إن بدأ الجميع يقرؤون «يس» بصوت جماعي، والقاضي يقود الجميع، في ترديد القراءة، وتصحيح التلاوة، همس جرير ثانية في أذن منير وقد احمر وجهه وقال: هذه القراءة بدعة! وأشار منير إليه بيده بالصبر، واقترب منه أكثر وقال بصوت منخفض: هذه عادات وطقوس معروفة. ومازحه قائلا: ربما طول الغربة أنساك!

أجابه بنظرات غاضبة، وقال: قم بنا نخرج، فخرج جرير يتبعه منير، ولحق بهم الشيخ جلمود يسأله مستفسراً قائلا: خير يا مطوع! لماذا لا تستريح؟ فأجابه: أنا متعود أنام في هذا الوقت، وأشعر الآن بنعاس شديد...

9

الفكرة

وبعد مضيّ شهرين على مجيئه، وفي صباح يوم الأربعاء والشمس تعلن وصولها، متبخترة في كبريائها، تداعب قمم الجبال، بأطراف جدائلها، مرسلة انعكاسا ذهبيا ساحرا، وتهب نسمات رقيقة، تحمل معها بعض الندى، فيداعب وجهه، ويتلوى حول أنفه الكبير، وهو يقف فوق صخرة كبيرة، وقد أسند ظهره إلى بعضها، ومد رجليه، وحرر عصاه من يده، فتدحرجت إلى أسفل الصخرة، وأصابع يده اليسرى، تفرك أرنبة أذنه.. يتأمل منير، الذي شمر عن ساعديه، يقلب بمسحاةٍ تراب أرضه، ويقتلع الحشائش الضارة، تحت أشجار التفاح والرمان، وطافت بالمطوع جرير، أعاصير من التفكير، اقتلعت السكينة التي تحف المكان، وقلَّبت صفحات الآلام، صفحة تلو صفحة، بل سطراً تلو آخر، فقد بات يشعر بغربة شديدة، تزداد يوما بعد يوم، وكأن القبيلة التي غاب عنها عشرين سنة، قد تنكرت له، أو أنه تنكر لها، فلم تعد ذلك الحضن الدافئ، الذي يرتمي إليه، ولم تعد تلك الوجوه التي ألفها، وحتى المزارع اليابسة والمخضرة، لم يعد له فيها غصن ولا شجرة، يتأمل الأشجار وخضرتها، والأرض وخصوبتها، ويعود إلى نفسه بأسئلة حائرة، لا تقوى على الظهور، ولا تجد بعض إجابة، حاول جاهداً فتح نافذة فرج، لنفسه التي وجدها تدور في حلقة مفرغة، وليس لديه أي مصدر للدخل، خاصة ومدخراته تتناقص بسرعة، وحتى خطبة الجمعة، التي علق عليها آمالا عريضة، بأن ينفذ من خلالها إلى قلوب الناس وعقولها، وتتسلل كلماته إلى الأيادي المغلولة فيبسطها، ويعود عليه بعد ذلك ريع كثير، لكنه لم يحظ إلا بخطبة يتيمة واحدة، بعدها وجد نفسه في مواجهة مع الشيخ والقاضي، فقد أزعجتهما الخطبة، مع أنه خطيب مفوه، وتعلم شيئا من البلاغة والنحو والصرف! لكنه نسي لغة الأرض، لغة الجبال، لغة الرمال، لغة الحياة الشاقة، وذهب يخاطبهم بعقليةٍ مكيفة، في قصر عاجي، تشد الآذان كلماتها، وتقرع القلوب قوتها، لكنها مطرقة على ماء، وسكين في هواء، وخواء ليس بعده خواء،

يطير بهم كدجاجة استعارت جناح نسر، وكهرة لبست جلد أسد. وكانت ثالثة الأثافي، وقاصمة الظهر، حين ذهب في ليلة ليلاء، قد اشتد ظلامها، إلى شيخ القبيلة ليقول له: بأن القاضي لا يجيد الخطابة، وبأنه أحق بهذا الشرف، فنهره الشيخ، وحذره، لكنه لم يكتفِ بذلك فقد كرر الكرة، وأعاد كسر الجرة، في ليلة أخرى، تفصلها عن أختها ثلاث ليال، وأسرى ثانية، بليل أليل، إلى شيخ القبيلة وقد كان منه على توجس، ومن أمره في ريبة، فإذا به يطلب هذه المرة: أن يكون راتب الأوقاف من نصيبه، وأن يكتفي القاضي براتب القضاء، وسيقوم هو بشؤون المسجد، ولا تمتد عينه إلى الخطبة أو الإمامة. وكيف زجره الشيخ ثانية، وهدده بالسجن، إن عاد لمثله، وسأله: إن كان المال هو غايته، أو الحاجة تدفعه، فسيقوم الشيخ بوضع اسمه في قائمة الشؤون الاجتماعية للمحتاجين، وسيصرف له راتباً شهرياً يكفيه، وكيف أبى واستكبر. وفي ليلة ثالثة، تفصلها عن الثانية سبع ليال، كرر الزيارة لشيخ القبيلة، لكنه هذه المرة طلب أن يقوم بالتدريس في المدرسة الابتدائية القريبة وسأله الشيخ هل لديه شهادة فرد بالنفي، فنهره الشيخ بقوله: فلم تطلب ما ليس لك؟ ثم طلب أن يقوم بتعليم الأطفال دروس في التجويد والتلاوة، في مسجد القبيلة الصغير، بعد العصر، فوافق الشيخ واشترط عليه شروطا كثيرة، وافق على جُلِّها، وأَسَرَّ عدم الموافقة على بعضها، وكان هز الرأس علامة ترضي الطرفين، وتحمل نواياهما المختلفة، وكيف اجتمع له الأطفال في تزايد يومي، حتى بلغوا المائة، وما إن جاء اليوم الخامس، حتى بدأ مؤشر الإقبال ينحدر، وفاجأه اليوم الثامن، بأن وجد نفسه يدور حول نفسه، حتى أيقظه أذان المغرب، ولحق به اليوم التاسع والعاشر، ولا يدري هل أسلوبه هو الذي نفّر الطلاب، أم عصاه الطويلة، أم نحنحته التي لا تتوقف، لا يدري جرير هل يخاطب نفسه الآن، أم يخاطب تلك الحمامة، التي تقف على الشجرة المقابلة، أم أنها تخاطبه، وقد وضعت عينيها في عينيه الصغيرة، وتصدر أصوات شجية حزينة. وقفت به الحيرة هذا اليوم، وقرر أن يبث شيئاً من شكواه لمنير، وإن كان لا يرى فيه أهلاً للشكوى، ولكنه همهم في نفسه، « يضع سره في أضعف خلقه»، وناداه قائلاً:

-ماذا أفعل يا منير؟

تفاجأ منير من عمه الذي طرح عليه سؤالا أكبر من تفكيره، اتكأ على المسحاة، مسح بكفه منابت عرق ظهرت في جبهته، واستجمع بقايا غرور، ونظر إلى عمه، ثم اقترب منه، ليجيبه بسؤال:

-وماذا تريد؟

كان منير لا يدري ماذا يدور في رأس عمه، وإن درى فلا يملك حلاً، وإن شئت منه جوابا فسله عن التربة التي يقلبها، ومواسم الثمر والمطر، وخبر تلك الصخرة الجاثمة، كيف هزمها بمطرقته وجعلها تنزوي عند الأطراف، ليوسع مزرعته، وسله إن شئت عن الحشائش التي يقتلعها، ودرجة خطرها وضررها، لكن جرير بحاجة إلى منير، لعله يقتلع اللاشيء الذي يفتك برأسه، بحاجة حتى إلى سراب، يبلل ذلك الظمأ الغلاب، رفع حاجبيه الكثيفين، ورماه بنظرات، لا تحتمل الغباء أو الاستغباء وقال:

-هل يرضيك حال عمك، لا شغل ولا مشغلة؟

أدرك منير أنه لابد من جواب، ولكي لا يقع في غضب عمه، أجابه إجابات متعددة، وكأنه يرمي بكل ما عنده دفعة واحدة، لعل واحدة منها، تصيب في عمه هوى، وقال:

-يا عم الأرض أرضك وأنا بمقام ولدك، وأنت أدرى بخبراتك، وإن شئت رأيي: فلتجرب التجارة، أو التدريس في المدرسة.

التقط جرير من جواب ابن أخيه، فرصة ذهبية، وكأنه للوهلة الأولى يسمعها، وسمع لها رنيناً على غير العادة، فاعتدل بعد تفكير قصير، وتدحرج من على الصخرة، والتقط عصاه، وودعه وذهب، ومنير لم يشغل نفسه بالتفكير، فقد اعتاد على حضور عمه وغيابه، بلا مشورة ولا استئذان، ولم يكن عمه يُسِرّ إليه إلا باليسير، ولا يعرف عن عمه الكثير، ولا يسأله إن حضر، ولا يفتقده إن غاب، ولا يجيد سوى الامتثال والطاعة، وليس أمامه غير ذلك، فشخصية عمه طاغية متحكمة، وشخصيته هادئة مسالمة...

10
الدكان

أخذ جرير طريق العودة، يجدّ في المسير، يسابق الشمس قبل نزولها من القمم، ويقارع بعصاه الحجارة الصغيرة، ويحدث نفسه، من أين يبدأ، وكيف يقنع سعيدان، بأن يشاركه في الدكان، تداخلت المخططات، تطاردها الخطوات، ومع أن الطريق بعيدة، إلا أنه طواها في نصف ساعة، ولم يشعر بنفسه إلا وهو عند مدخل الدكان، والذي كان في الطابق الأول لمنزل سعيدان المتهالك، والمبني من الطين، كمعظم بيوت القبيلة، وكان مفتوحا قد ربضت على بابه من الداخل طاولة من الخشب، جلس جرير على الطاولة، يتأمل في البضاعة المرصوصة يحصيها عدا، ويتفحصها بدقة، والتي لم تكن تملأ الرفوف، فالرفوف العليا فارغة، وكذلك السفلى، وليس هناك من دليل يدل على الدكان، إلا تلك الملصقات الكثيرة، على بابه وجدرانه الخارجية، وذلك الحزام،الذي يتوسط تخشيبة الدكان، في رفين أو ثلاثة، قد رصت فيه العلب متباعدة لتملأ الفراغ، وحُشِرت بينها ألعاب الأطفال، وحلويات متشابهة.

أدرك جرير المقص أن فريسته سهلة الصيد، وأن نوافذ التسلل ميسورة. لم يكن به أحد، لكنه يسمع أصوات تتسرب من الداخل، تنحنح جرير من غير قصد، فصاح سعيدان بصوته النحيف المضحك، من داخل المنزل، قائلا:

-أهلا وسهلا، يا صباح الرضا، يا صباح الخير، أنا قادم.

وخرج متهاديا من باب صغير، ماراً بين الكراتين، كأنه فأر كبير، و فمه لا يزال مليئا، بلقمة يلوكها، صافح المطوع، وصاح مُرحّباً، إلا أن كلمات

الترحيب، اختلطت بقطرات تناثرت على وجه جرير، لا يدري هل هي من الزيت الظاهر أم أنها بقايا طعام..

أغمض جرير عينيه ومسح وجهه، في إشارة واضحة له، أن يكف عن الكلام، حتى ينتهي من مضغ الطعام، وصلت الرسالة، فابتلع سعيدان ما يلوكه، ومسح بيده اليمنى بقايا السمن حول فمه، وفركه على باطن يده اليسرى، ودهن به صلعته، حتى لمعت، وكأنما وصلتها الكهرباء. ألح على جرير أن يشاركهم فطورهم اللذيذ، لكنه شكره، وطلب منه أن يعود لإكمال فطوره، فأخبره سعيدان: أنه ملأ بطنه من الفطور والذي كان خليطاً من «الهريش» والسمن البلدي.

كان جرير يحملق في الدكان، يستنهض للحديث بداية موفقة، وكان سعيدان يحملق في جرير، يترقب طلبات مربحة، لم يدم الصمت لثوان، وقرر جرير أن يتجاوز المقدمات، التي لا طائل منها، والتي سيعبث بها سعيدان بمزاحه الثقيل، وهزله المتواصل، فصوب سهمه الصائب وقال:

- أرى دكانك فارغ، لماذا لا تملأه وتشتغل، فليس في منطقة بني وعلان سواك، وأنت ذكي وشاطر.

وكأنما وضع يده على الجرح، أو نكأ جرحا يتشافى، ماتت ابتسامة سعيدان في لحظة، وعض شفته السفلى، وكان واقفاً فجلس على حافة الطاولة، وقد تسمرت عيناه، وأخذ نفساً عميقاً، وأطلق تنهيدة كبيرة وقال بصوت فيه ألم:

-تعرف يا مطوع هذا حلمي، لكن بعد موت أبي وعيشة اليُتْمِ، وتدهور الحال، وبالكاد أشتري بعض الأشياء التي تساعدنا على ظروف الحياة القاسية و... قاطعه جرير، ولابد أن يقاطعه، فقد وجد خطته تسير بطريقة

مستقيمة، وبدا له مركبا سهلا ذلولا، وقد بدأ باستلاب عقله وتفكيره، وهاهو الآن سعيدان يقذف بنفسه طائعاً، ليسلم قلبه، وكيف لجرير أن يترك هذه اللحظة، والتقط حبلاً جديدا مؤثراً، وقال:

- لا تذكرني بأبيك يا سعيدان! فقلبي يتقطع كلما ذكرته، كان فاضلاً خلوقا، وكان لي نعم الصديق، ونعم الرفيق، ونعم الجار، ودفن وجهه بين كفيه الطويلتين وأخذ يهمهم بكلمات، بل بأصوات ظاهرها الحزن والألم، ثم مسح لحيته الطويلة، وسعيدان مطرق برأسه إلى الأرض.

وأدرك جرير أن الموعد قد حان، ليسدد ضربته الثالثة في خطته المحكمة، فانتفض متظاهراً بالعجلة، وقال:

-الله يرحمه، ارتاح من هذه الدنيا، سامحني قلبت عليك المواجع يا ولدي.. وأشار بيده وقد وقف متهيئاً للمغادرة وقال:

-أريد بطاريات كشاف صغير؟

- لا يوجد.

-طيب أريد فتيلة فانوس؟

-لا يوجد.

-طيب أريد مرآة صغيرة.

-اعذرني يا مطوع، وهذه غير موجودة.

وهنا جلس جرير، وقال بصوت مشفق:

-يا ولدي هذه الأشياء تعتبر أساسيات عند الناس، ولابد أن توفرها،

وستكسب من ورائها الكثير.

أجابه سعيدان بعين منكسرة:

-اليد قصيرة و... قاطعه جرير وقد امتلأت عيناه ثقة:

-لا تقل هذا الكلام يا ولدي وأنا موجود فأنت في مقام ولدي، فما رأيك أعطيك المبلغ الذي يحرك تجارتك، وتستفيد ولا تنسى عمك جرير من الفائدة...

لم يكد سعيدان يصدق ما يسمع، وراح من شدة الصدمة، يقص على جرير قصة طويلة، وكيف بحث عن مال لكن لم يقرضه أحد... وبينما يشرح أدق تفاصيلها، قاطعه جرير قائلا:

-سأنتظرك بعد ساعة في بيتي نكمل حديثنا، وأبشر بما يسرك، وأرجوك لا تخبر أحدا أبدا.

وما إن انسل جرير بخطوات سريعة، مبتعدا عن الدكان، حتى أدخل سعيدان إصبعيه السبابة والبنصر في فمه، ووضعهما على لسانه بعد أن ثناه للأعلى، وأطلق صفيراً قوياً، أفزع جرير وأعاده للوراء يسأل عن السبب؟

ليجيبه سعيدان وهو يضحك، وقد رفع يديه يهزهما ممسكا بقبضتيه:

-فرحتني يا مطوع، ربي يفرح قلبك.

ابتسم جرير، وهو يغرق في ضحك مكتوم مكظوم، وتسكنه فرحة، لا يملك سعيدان عشرها، وكاد من فعلها يطير إلى بيته، المقابل لمنزل سعيدان.. دفع باب منزله الخشبي، وصعد الدرج إلى الطابق الثاني في

خطواته النشطة ونحنحته المميزة، دلف إلى « الديوان»، علّق عصاه على وتد في الجدار، خلع شاله الأبيض الملفوف كعمامة، ووضعه فوق أحد «المداكي»، ارتمى على فرش إسفنجي، جلبه معه من غربته، واختطف وسادة، ودسها تحت رأسه، وذهب يُعِدُّ للمرحلة الثانية من خطته التجارية.. ولكن ما الحاجة للتدبير، فقد استسلم الجار بدون تفكير...

دخل شادي يتهادى، حاملاً دلة القهوة، يبذل جهدا كبيراً كي يوصلها سليمة، وما إن التفت جرير حتى قفز من مكانه، وأخذ الدلة، وصاح لأمه رملة بصوت غاضب : لماذا تتركوا شادي يحضر الدلة؟ دخلت أم شادي تحمل صحنا فيه كؤوس زجاجية، وضعتها أمامه، ولم تنبس ببنت شفه، وأمسكت كف شادي تجره للخروج، لكنه أبى وصاح يريد الجلوس، فأشار جرير بيده أن تتركه، فتركته وخرجت . وشادي هو ابن جرير من زوجته الثانية رملة، وعمره أربعة عشر ربيعاً، ولد يوم وفاة خاله شادي، بحادث سيارة، والذي كان قادما لزيارة أخته رملة، في أحد مستشفيات نجد، وسمي المولود بعدها باسم خاله، لكنه وُلِد ضعيفاً، وشخّص الأطباء حالته بتشوهات خلقية بسيطة، ظهرت في خطواته المتعثرة، وعدم تركيزه، ورعشة يديه أحيانا، وزاد تلك التشوهات، تعنت جرير وسوء تعامله مع شادي، فقد كان يظهر الرضا بالقضاء، لكن أفعاله تخالف أقواله. كان شادي أبيض الوجه، صغير العينين، وأنفه متوسط، وأفلج الأسنان...

أخذ يحملق في فم أبيه، الذي يصدر صوتا كالصفير عند شرب القهوة، وتبدو عليه السعادة، على غير عادته منذ عودته.. وشادي اليوم، في أفضل حالاته، وقد اتخذ قرار المواجهة، التي تفتقر إلى المكافأة، لكنها ضرورية وملحة من معاق كما يسمونه همساً، بوجه أبٍ قوي صحيح.. فتجرَّدَ من الخوف والخجل، وقد اتخذ له مكاناً مقابلاً لأبيه، واتكأ على أحد

«المداكي»، وأدخل ذقنه بين أصابع يده اليمنى، وقطع أمواج التفكير على أبيه، الهائجة بين عينيه وكأس القهوة، وجمع قوارب شجاعته وقال بصوت متهدج:

-يا أبي عندي أسئلة كثيرة، لماذا تحبسني في البيت، وتمنعني من الخروج، فلم أرى أحدا، ولم يراني أحد منذ جئت هنا، إلا ابن عمي منير مرة واحدة، لماذا حرمتني من التعليم ؟ واختنق شادي بالبكاء، وسالت دموعه بغزارة.

لم يكن يَدُرْ بخلد جرير، أن يصدر مثل هذا التقرير، من طفل ضعيف، يُسَلّم بكل ما يلقى إليه، من توجيهات وزواجر.. احتضنه، ومسح دمعه بطرف ثوبه، وقد وجد الإجابة عقبة كبيرة، لكنها ملحة وضرورية، وذهب يسوق له مبررات لا تنطلي على أحد، على أن التعليم في المدارس لا فائدة منه، وتعليم البيت أجدى وأنفع، ولم يجد مبررا واحدا لمنعه من الخروج، ولكنه وضع أملاً لشادي حين قال:

-وقريبا سآخذك معي عندما أخرج، لكني أتحين الفرصة المناسبة... وبينما جرير يسرد لابنه من المبررات ما ليس بمنطقي، إذ وصل صوت سعيدان الحاد، وهو ويطرق على حديدة الباب المتدلية، وينادي للمطوع في آن واحد.

أشار جرير لابنه أن يغادر الديوان، وصاح من نافذة صغيرة:

-تفضل يا سعيدان.

صعد سعيدان الدرج واستقبله جرير بابتسامة عريضة وترحيب كبير، وأجلسه بجانبه، وصب له القهوة، وبعد أن عزف له أسطوانة محبته لأبيه وصداقتهم القوية، وبعد إطلاق تنهيدة كبيرة قال له:

-يجب أن توفر للناس أكثر ما يحتاجونه، لكي تخدم الناس، وإن وجدوا عندك أغلب ما يحتاجونه سيعتمدون عليك، وبهذا تزداد تجارتك.

-كما تعرف يا مطوع أن الناس تشتري ما تحتاجه من السوق في الوادي الأعلى يومي الثلاثاء والخميس.

-لن يذهب الناس للسوق إذا أنت وفرت لهم ما يريدون، خاصة والسوق بعيد ويحتاج سيارة لنقل البضائع. وأردف قائلاً:

-سأعطيك الآن ثلاثمائة ألف ريال، تشتري بها الأشياء الصغيرة، من السوق غدا الخميس، وحين تشتريها، سيارتي جاهزة لحملها...

-أنا سعيد جدا بوقوفك الى جانبي يا مطوع، ولن أنسى لك هذا الجميل.

خرج جرير من الديوان، وعاد حاملا ثلاث ربطات من النقود، قد لفها بورقة بيضاء، ووضعها فوق أحد «المداكي» وأخذ الورقة وكتب عليها على لسان سعيدان: بأنه استلم مبلغ ثلاثمائة ألف ريال لتطوير الدكان، وأنها تحت الحساب، وسيلحقها دفعات أخرى، وكتب اسمه واسم سعيدان أسفلها، ثم وقع عليها، و طلب من سعيدان أن يوقع، وما إن وقع سعيدان حتى أمسك بإصبعه الإبهام، ورسم فيها خطوطا متقاطعة ودائرية، حتى امتلأت بالحبر، وضغط بها أسفل توقيعه، وهو يراقب بصمت وسعادة. سلمه المبلغ، ولم يَعُده، وكال لجرير الكثير من الثناء والمديح، وجرير يوصيه مكررا، ألا يخبر أحدا فالخير في الكتمان...

أخذ سعيدان يترقب متى يأتي الغد، لينطلق إلى السوق فيشتري: الكشافات وبطارياتها، والمصابيح مع الفوانيس وفتائلها، والمرايا، وأنواع الدهانات، والمعلبات، والعصائر، والحلويات، وسيملأ الرفوف الفارغة ...

11
الطّعْم

وفي صباح الخميس وعند بزوغ الشمس، وهي تضع تاجا ذهبياً على رؤوس الجبال العالية، كان جرير قد أدار محرك سيارته، وترجل نحو دكان سعيدان، والتقيا منتصف الطريق، فلم يكن جرير أشد حرصا من سعيدان، وانطلقا إلى السوق، وكانا من أوائل الواصلين إليه، فلم يسبقهما إلا ثلاث سيارات؛ واحدة منها تحمل غنما، وأخرى مغلفة وتحمل ملابس متنوعة، والثالثة تحمل أدوات الزراعة من محاريث وفؤوس، ومسحات، ومناجل، وكريكات .

ترجلا يرقبان السيارات الواصلة، وأصوات أصحابها تناديهم لرؤية بضاعتهم، وطفقا يقلبان أنظارهما في تلك البضائع، وانزويا جانبا، وبينما عينا سعيدان تراقب سيارة قادمة، كانت عينا جرير على سيارة الملابس وهمس لسعيدان: مثل هذه الملابس يجب أن تكون في دكانك! التفت سعيدان مستغربا وقد رفع حاجبيه قائلا:

- ملابس!

رد جرير بثقة: نعم ملابس! ستعلم غدا من هو جرير. ضحك سعيدان ومازحه قائلا: أكيد المقص يبقى مقصاً، وضحكا معا. وصلت سيارة أخرى وكانت تحمل معها أسطوانات غاز، والتفت جرير إلى سعيدان وقد وضع يده على رقبته وقال: وهذه يجب أن تكون في الدكان. أجابه سعيدان وقد ارتفعت ضحكاته: خف علينا يا مطوع، شكلك تريد تنقل السوق إلى الدكان، هذه تحتاج ميزانية.

وتوالت السيارات القادمة إلى السوق، الكبيرة منها والصغيرة، المكشوفة والمغلفة، وتراصت على اليمين واليسار تاركة مساحة واسعة في

الوسط، في تنظيم ذاتي متعارف عليه، وكانت بداية السوق دكَّة مرصوصة من الحجارة، قد ارتفعت مقدار متر ونصف عن الأرض وبعرض ثلاثة أمتار، وتكون أولى السيارات عن يمينها ويسارها،وتستخدم هذه الدكَّة لإذاعة التعليمات الهامة، والصادرة من شيخ القبيلة فقط. لم تتعدَ التاسعة صباحاً، فيما السيارات الواصلة قد زادت عن المائة، وكان سعيدان يتنقل من واحدة إلى أخرى، وقد ملأ عشرة من الكراتين المتوسطة، فيها كل البضاعة. و سيارة جرير رابضة عند الدكَّة في بداية السوق، وجاء سعيدان يطلب منه التحرك الى داخل السوق لجمع الكراتين التي جمع بضاعته فيها، تحرك جرير بسيارته وسط السوق، وسعيدان يحمل كرتونا عند هذه السيارة وآخر عند تلك، حتى اكتملت العشرة، وخرجا من السوق باتجاه الوادي الأسفل حيث دكان سعيدان...

وبعد أسبوع وقد امتلأت أربعة رفوف في الدكان، والإقبال يتزايد على الشراء، جاءه جرير في صباح يوم الأربعاء، وطلب منه أن يأتيه إلى بيته عند الحادية عشرة ظهرا، وجاء سعيدان في موعده المحدد، ووجد جرير قد وضع ربطتين من النقود، وفي يده ورقة كتب فيها: استلمت من جرير مبلغ مائتي ألف ريال وذلك لتطوير الدكان وهذه هي الدفعة الثانية، سبقتها ثلاثمائة ألف ريال، ونسأل الله أن يديم شراكتنا ومحبتنا بالخير والربح الوفير، وأسفلها اسماهما، دفعها مع القلم إلى سعيدان ليوقعها، وبعد التوقيع وضع البصمة بذات الطريقة. ثم ودعه جرير وذكَّره بأن موعدهم الغد قبيل الشروق، هز سعيدان رأسه بالموافقة، وهو من الفرحة يكاد يطير، وخرج فرحا مسرورا داعيا للمطوع بوافر الصحة وسعة الرزق. وانتظر الغد بفارغ الصبر.

وأقبل الخميس، ومضت فيه الترتيبات نفسها كسابقه، ولم يكن فيه من اختلاف، إلا أن جرير وسعيدان صادفا شيخ القبيلة، وهما في طريق العودة من السوق، وكان راجلا يلبس ثوبا أبيضَ ومعطفاً أخضرَ، ويتمنطق

«جنبيتـه» الكبـيرة، وفي يـده مظلـة شمسـية سـوداء، يرافقـه مهيـاب، فتوقـف جـرير وسـلما عليـه، إلا أنـه طلـب مـن سـعيدان أن يترجـل، ليحدثـه عـلى انفـراد، فهمـس في أذنيـه بثـلاث كلمـات فقـط: (احـذر مـن المطـوع)، عـاد سعيدان إلى السيارة وقد امتقع لونـه، وواصلا سيرهما، إلا أن جـريرا أحس بأن هنـاك سراً لابـد مـن فهمـه، توقـف وسـأل سـعيدان عمـا قـاله الشـيخ، ولم يتردد سـعيدان في كشـف مـا قيـل له، إلا أنـه طلـب منـه ألا يخـبر أحـدا، هـز جـرير رأسـه وعض شـفته السـفلى وقطـب حاجبيـه، ونظر إلى سـعيدان وقال: وأنـت مـا رأيـك فيّ؟ أجابـه بـدون تـردد: أنـت هديـة السـماء، وربي أرسـلك لي لتسـاعدني، ومـا رأيـت منـك إلا كل خـير. أبرقـت أسـارير وجـه جـرير، وقـال مبتسـما: لا عليـك فالحسـاد كثـير، واسـتمر في كـتم السـر كما أوصيتـك.

ومضـت ثلاثـة أسـابيع وتجـارة سـعيدان تنمـو بشـكل سريـع والنـاس تعـبر عـن رضاهـا، بتوفـير أهم الاحتياجـات اليوميـة، ومـا إن أقبـل يـوم الأربعـاء الرابـع، حـتى أقبـل جـرير طالبـا مـن سـعيدان أن يأتيـه في الموعـد نفسـه، وجـاء سـعيدان وقـد امتـدت فرحتـه لتعانـق السـماء، ودخـل عـلى جـرير، فـإذا بـه قـد جهـز له خمـس ربطـات مـن النقـود، وورقـة مكتـوب فيهـا: اسـتلمت مـن جـرير مبلـغ خمسـمائـة ألـف ريـال وذلـك لتطـوير الـدكان وهـذه هي الدفعـة الثالثـة، سـبقتها خمسـمائـة ألـف ريـال، ونسـأل الله أن يـديم شراكتنـا ومحبتنـا بالخير والـربح الوفير، وأسـفلها اسـمهـا، دفعهـا مـع القـلم إلى سـعيدان ليوقعهـا، وبعـد التوقيـع وضـع البصمـة بـذات الطريقـة، وأخـذ المبلـغ ثم ودعـه جـرير وقـال : موعـدنا غـدا باكـرا.

وجـاء الخميس، وقبـل طلـوع الشـمس كان سـعيدان واقفـاً بجـوار سـيارة جـرير، يراقـب صـوت محركهـا، حيـث يتركهـا جـرير تسـخن لبعـض الوقـت، وخـرج جـرير وقـد لبـس ثـوبا أصفـر طويـلا، واعتمـر شـاله الأبيـض عـلى رأسـه، وبيـده عصـاه، ومـا إن ركبـا السـيارة حتى التفـت وعينـاه تـدوران في وجـه سـعيدان كملقـاط يحـاول سحـب شـعرة، وقـال:

-من اليوم يا سعيدان-بارك الله فيك-لابد من قفزة نوعية؟

-على يدك يا مطوع، أين نقفز، لا يوجد بحر؟

ابتسم جرير وقال:

-الأمر جد يا سعيدان، دع الدعابة -أصلحك الله-اليوم تشتري خمسين أسطوانة غاز، وثلاث دبات كيروسين.

فتح سعيدان عينيه وفمه وهو ينظر الى جرير وقال:

-يا مطوع خمسين أسطوانة غاز! هل تمزح! الدكان صغير وممتلئ، ولا يحتمل خمس أسطوانات!

-صحيح ما تقوله، لكن عندي فكرة رائعة، انزل لأريك شيئاً. أمسك بيده وأوقفه أمام منزله وقد أشار بيده إلى واجهة الطابق الأول «الأرضي»، وقال:

-انظر إلى هذين المخزنين، ليس عندي أغنام ولا أبقار، ولا تستخدم أبدا وليس لي بهما حاجة، فما رأيك أن تستغلهما وتوسع تجارتك، بحيث يصبح مخزناً للغاز والكيروسين والثاني للمواد الغذائية.

تهلل وجه سعيدان، وهو يخطو خطوات باتجاه باب حديدي فتحه ودخل، فإذا المخزن بطول دكانه ثلاث مرات، وجدرانه جيدة، والإضاءة من بابه الكبير جيدة، ولا يحتاج إلا لبعض التنظيف والكنس، ثم انتقل إلى المخزن الآخر والذي له باب مستقل، فوجده مثل دكانه في الحجم، وفي النظافة مثل سابقه وقال:

-ولكن يا مطوع جرير، كم سيكون الإيجار. قاطعه جرير قائلاً:

-لا إيجار ولا غيره، عليك شد الهمة، وأكيد لن تنساني من الربح إذا تحركت التجارة.

-بالتأكيد لن أنساك، فلك الفضل في كل هذه التطورات الكبيرة، ونظر بابتسامة إلى جرير قائلا:

- الفكرة رائعة فما رأيك لو نبدأ العمل قبل أن نتحرك إلى السوق؟

هز جرير رأسه بالموافقة وعلى شفتيه ابتسامة يحاول إمساكها..

جرى سعيدان نحو بيته، وعاد ومعه أخوه مسعود وأحد العمال وبأيديهم مكنستان، وقال لهم بصوت فيه حزم:

-أريد أن أرجع من السوق والمخازن نظيفة تلمع من السقف إلى الأرضية، وبقايا البَعَر نظفوه جيدا...

وعاد جرير وسعيدان في الحادية عشرة ظهراً والشمس تقترب من كبد السماء، توقفت السيارة أمام منزل جرير ممتلئة ببضاعة مختلفة، ومشدودة بحبال متشابكة، أخرج سعيدان لفة كبيرة، من البلاستيك القوي من المقعد الخلفي، وحمله إلى المخزن الكبير، يساعده أخوه والعامل، وبعد أخذ مقاسات المخزن بخطوات القدم، أخرج «جنبيته» وقص بساط البلاستيك، ومده في المخزن، ليكون أرضية تليق بالبضاعة، وانتقل إلى المخزن الصغير وكان ما تبقى من البساط كافيا لفرشه، وزاد منه حوالي عشرة سنتيمترات، عطفها ودسها أسفل البساط، وذهب ببصره يتأمل التنظيف الذي لم يكن ظاهرا إلا أنه يليق بأسطوانات الغاز، فكوا الحبال المشدودة، وأنزلوا الأسطوانات، وحمل الأولى سعيدان وانطلق بها إلى المخزن الصغير، وضعها في أحد أركانه، وكان أخوه والعامل يجلبان الأسطوانات واحدة تلو الأخرى وهو يرصفها بإتقان، خمس وعشرون أسطوانة، حيث تم شراء نصف الكمية فقط، على أن يتم شراء النصف الثاني في الخميس القادم، رصفهم في صفين، ولم يأخذن من مساحة المخزن إلا الربع، وجاؤوا بثلاثة براميل من الكيروسين، سعة الواحد منها أربعون لترا، رصها في الطرف الآخر من المخزن، ثم خرج لجلب بقية البضاعة إلى المخزن الكبير، وجرير يراقب بشغف وقد جلس على البساط في المخزن الكبير مقابلاً للباب، وتجمع بعض الأطفال كالذباب، يحملقون في البضائع،

ويسألون سعيدان عنها، وهل سيغير مكان الدكان، لكنه لا يلتفت إليهم، ويطلب منهم الابتعاد، حتى يتمكن من ترتيب بضائعه، ويتوجهون إلى أخيه مسعود بالأسئلة نفسها، فيقلب لهم كفيه بأنه لا يدري.

كان سعيدان يسابق الزمن، قبل أن يغير جرير رأيه، وجرير يقابل البضائع بابتسامات راضية، وعين طماعة، وبعد أن أصبح صندوق السيارة نظيفا، أقبل سعيدان إلى جرير وسأله إن كان سيبقى في المكان، حتى يذهب لإحضار كامل البضاعة من دكانه الصغير، تبسم جرير وأخبره أن ينتظر حتى تميل الشمس إلى الغروب، لكن سعيدان أصر وردد عبارة « خير البر عاجله»، اعتذر جرير بحاجته للراحة قليلاً، وخرج من المخزن ونفذ إلى بيته من بابه الخشبي، فيما قام سعيدان بإخراج قفلين كبيرين اشتراهما للتو من السوق، وأقفل بهما البابين، وحث أخوه مسعود والعامل على اللحاق به. دخلوا دكانه الصغير، وطلب منهم إنزال البضاعة، من الرفوف الأربعة إلى القاع، ثم سحب الألواح الخشبية،وكانت أربعة وعشرين لوحاً، ونزع الأعمدة الخشبية الستة المغروسة في الأرضية، والملامسة للسقف، وهي بطول ثلاثة أمتار، وحمّل العامل منها ثلاثة أعمدة، بينما حمَل عمودين، وحمّل أخاه مسعود عموداً واحداً، مع مطرقة صغيرة وبعض المسامير، وكلف بعض الأطفال المتفرجين، بحمل الألواح، فتقاسموها بشغف وحماس، وبعضهم ساعد أخاه، والبعض الآخر ساعد العامل، ومضى الجميع كخلية نحل إلى المقر القريب الجديد، فتح سعيدان باب المخزن الكبير، ورصّ الألواح والأعمدة، وطلب من أخيه والعامل أن يجلبا البضاعة في كراتين ريثما يثبت التخشيبية، لم تأخذ منه وقتاً، لكن نقل البضاعة كان أسرع منه، فقد جثمت الكراتين في زاوية من زوايا المخزن، وبعضها على الأرض، وانصرف الأطفال، بعد أن أغمض نظراتهم بثلاث علب من بسكويت ماري، وأرسل أخاه لجلب الغداء، وكان عصيدا «دقيق مطحون مطبوخ» وزوم «لبن مغلي مع البهارات»، و سلتة،

وستة من الخبز، وما هي إلا دقائق وأوعية الغداء كصلعة سعيدان، وبعد الانتهاء، رمق أخاه بنظرة زرقاء وحواجب معقدة، متسائلا: لِمَ ليس هناك مرق، ويجيبه أخوه بهمس : اليوم خميس وليس جمعة، ويتدخل العامل وهو يبلع آخر العصيد ويقول: قل الحمد لله! حمد الله سعيدان وشكره. وعاود رصّ البضاعة التي ضاعت في سعة الدكان الجديد، وتلك التخشيبة الحائرة في جزء منه...

بدأت تجارة سعيدان تنمو، ومعها أحلامه كذلك، وأصبح حديث الناس عن سعيدان وجرير...

يتساءل البعض كيف لجرير أن يمنح سعيدان بلا مقابل...

وكبار السن في القبيلة يعرفون طمع جرير، لكن ثناء سعيدان عليه، يجعلهم يحمّلون الغربة الفضل في تغييره، ولم يكن أحد يعرفه جيدا، سوى الشيخ جلمود، لكنه لم يخبر أحدا، بزيارات جرير الليلية له، وما دار فيها من طلبات وافتراءات.

وبعد مرور ثلاثة أسابيع، توقف الشيخ جلمود، بسيارته أمام الدكان الجديد، وخرج إليه سعيدان مرحبا وملبيا، لكن الشيخ أمسك بكتفه وهمس في أذنه قائلا: خذ حذرك! ويرد سعيدان وقد أوهى صوته: يا شيخ والله إن المطوع طيب، لماذا يتوجس الناس منه؟ ابتسم الشيخ جلمود وودعه ورحل.

كان الدكان الجديد قفزة، كما قال جرير يوما، فتخشيته أصبحت ثمانية رفوف، تغطي ثلاثة جدران، وبضاعته التي ملأت الرفوف، وتحوي ما يحتاجه الناس، من زيوت للطبخ وللشعر ودهانات للجسم، ومعلبات التونة والفول والفاصوليا والسكر والشاي والحلويات بأنواعها، والعصائر والحنا، وألعاب الأطفال المتعددة، والأقلام والدفاتر، وثلاثة أنواع من الأحذية المطاطية، مع الغاز، والكيروسين في المخزن الصغير.

وبعد مضيّ شهر في الدكان الجديد كان العمل يسير من حسن إلى أحسن، وأغلق باب الدين إلا من بعض الاستثناءات النادرة، وقد علق سعيدان لوحة كرتونية على واجهة الدكان، كتبها له جرير، مكتوب فيها « ممنوع الدَّين وكلمة بعدين».

ولم يكن يكدر سعيدان، إلا زيارات جرير المتكررة، والتي تطول في غير ضرورة، وفي آخر زيارة له، أحضر كتابا لا يعرفه سعيدان، ولا يريد معرفته، فكتابه وقلمه هو البيع والشراء، لكن جرير يصر عليه بالإنصات، يوقف القراءة إن حضر أحد، ويستأنف حين يغادر، وسعيدان لا يفقه شيئا مما يُقرأ عليه، ولا يسمع إلا حياء وخجلا، وقد أظهر تبرما وتشاغلا، لكن دون جدوى، فجرير يعيد ويكرر، وحين يمل من القراءة، يمتدح الكتاب والكاتب، ولم يحفظ سعيدان من الكتاب سوى اسمه.

وفي صباح الثلاثاء، سمع سعيدان صوت سيارة، لا تخطئها الأذن، إنها سيارة بخيت، فصوتها العالي، غني عن التعريف، وأقبلت تسبقها دعوات سعيدان أن تتوقف بلا أخطاء كارثية.

توقفت بأمان، إلا من ثورة غبار هائلة، ترجل بخيت بوجهه المتورم، وأدخله سعيدان الدكان، يشرح له التطورات الجديدة، فبخيت صديق عزيز لسعيدان، ولم ينقطع عنه إلا بعد شرائه السيارة وعمله عليها.

كان سعيدان بحاجة لبخيت، لكي يبثه شيئا مما يكدره، لكنه يعرف بخيت، ويعرف آراءه المردية وعقليته البسيطة، ولا يحسن شيئا من الحكمة، وحين سأله بخيت عن الحال، وحركة البيع، كان سعيدان يفتح علبة من عصير الجوافة ويقدمها له، وتنهد تنهيدة عميقة، وأغمض عينيه لبرهة ثم فتحهما وقال:

-كل شيء على ما يرام، والبيع جيد، لكن... وصمت. أمسك بخيت أنفه العريض بيده اليسرى، واستنشق بقوة، وقال:

- ماذا هناك؟ أخبرني، وأمسك ذراع سعيدان..

أجابه سعيدان وقد امتلأ فمه بالضحك قائلا:

-انتبه ستكسر ذراعي، الأمر بسيط، لكنه مزعج جدا.. قاطعه بخيت:

-طيب، أخبرني؟

-يا عزيزي، القصة وما فيها: منذ نقلت دكاني إلى هنا والمطوع جرير يأتي كل صباح وفي يده كتاب اسمه «معالم في الطريق»، طلّع روحي، يقرأ وأنا أهز له رأسي. لكني في وادٍ آخر، رفع لي الضغط، ويقول إن هناك ستة كتب في المخطط، تخيل لن يأتي الكتاب السادس إلا وأنا مجنون.

-قل له يأخذ كتابه ويذهب المسجد، هذا مكان رزق.

-لقد لمَّحت له وانشغلت عنه، لكن بدون فائدة، ولا تنسَ أنا في بيته، وأنا مدين له بأشياء كثيرة.

-منذ عاد وأنا أتحاشاه، ونفسي لم تطمئن له.

واستأذن بخيت، فهناك من ينتظره...

***

وبعد دقائق أقبل جرير وبيده ابنه شادي، تفاجأ سعيدان من هذا الصبي الذي يراه لأول مرة، وعلم جرير بدهشته الظاهرة، فاقترب من باب الدكان، وقال له:

-هذا ولدي شادي، أريده أن يتعلم منك، اللباقة، والشطارة والذكاء، وسأعود آخذه عند الظهيرة.

كان شادي ضعيف البنية متوسط الأنف أبيض البشرة، يلبس ثوبا أصفرَ طويلاً، وعلى رأسه كوفية بيضاء، وفي قدميه نعال سوداء.

12
الخِناق

رحّب سعيدان بشادي، وأدخله الدكان، وأجلسه في موضع جلوس أبيه، وأخذ مع أخيه يحملقان فيه، ويسألانه وهو يجيب في اضطراب واختلاط، ويداه ترتعشان، أدرك سعيدان أنه ضعيف، ويحتاج لرعاية وتعامل خاص، انشغل بترتيب المعلبات وإعادة رصها، ووجه أخيه بعدم الحملقة في شادي، حتى يهدأ من خوفه، ويطمئن لهما.

وشادي يتأمل المكان، ويمد ببصره خارج الدكان، وكأنه عصفور فقس للتو، يشبك أصابعه، ويتأمل سعيدان وهو يرص المعلبات، يرفع هذه ويضع تلك، وسعيدان وأخاه يسترقان النظرات السريعة، في متابعته. سأله سعيدان:

-هل تريد عصيرا أم بسكويتاً؟

فيجيبه وهو يصفق بيديه ببطء، وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

-أريد بسكويتاً.

فتح علبة من البسكويت وسلمها له، وبدأ بالأكل ونصف البسكويت يتساقط على حجره.. ولم تغب نظرات الأخوين، عن ملاحظة أدق التفاصيل.. ثم نظر إلى سعيدان قائلا:

-أريد عصيراً.

فتح له علبة من عصير المانجو، وسلمها له، وهمس له قائلاً: هل أساعدك؟

-لا لا أنا أستطيع، أنا بخير، لكن أبي هو السبب، وبدأ صوته يتهدج،

وكأنـه يعلـن البـكاء، تـدارك سـعيدان الموقـف، واقـترب منـه ليغـير مجـرى الحديـث، الـذي وجـد فيـه إثارة للصبـي، وقـال:

-أنـت بخـير، تفضـل اشرب العصـير، وانظـر إلى الـدكان: مـا رأيـك بهـذا الـرص والترتيـب؟

تبدلت ملامح وجهه وارتسمت على شفتيه ابتسامة وقال:

-الدكان جميل، والترتيب رائع.

وذهـب يشرب العصير، وكانـت بعـض قطـرات تتسرب عنـوة، متجـاوزة حـدود التكلف المجهد، الـذي يبـذله شـادي.

وجميـع الـزبائن، الصغـير منهـم والكبـير، يسـألون عـن هـذا الصـبي، ومـن يكـون، وكيـف ظهـر فجـأة، وسـعيدان لا يعـرف جـواباً لأسـئلتهم الكثـيرة.

وجـاءت الظهـيرة ليـجيء معهـا جـرير، ليأخـذ شـادي إلى المـنزل، وكانـت المفاجـأة لجـرير وأم شـادي، بالتغـيير الـذي حـدث له، فقـد اسـتمر كامـل يومـه سـعيدا متحـدثا متحـركاً، وحدثهـما عـن طيبـة سـعيدان وأخيـه.

واسـتمر خـروج شـادي كل صبـاح، يأتي بـه أبـوه إلى الـدكان، ويسـتقبله سـعيدان وأخـوه بـكل حنـان، يجلسـانه في مـكان أبيـه، ويضيِّفانـه البسـكويت والعصـير، وكان بالنسـبة لسـعيدان هديـة الكـريم المنـان، لإنقـاذه مـن جـرير الغثيـان.

وتحسـن شـادي يومـا بعـد يـوم، ولم تعـد قطـرات العصير تتسـاقط عـلى ثوبـه، واسـتطاع المـشي بـدون تعـثر، وخفـت كثـيراً رعشـة يديـه، وازداد دخـل الـدكان بشـكل ملحـوظ، وكان سـعيدان يُسِرّ لأخيـه بأن السـبب هـو الصبي، وحسـن تعاملهمـا معـه، واسـتمرا معـه بالطريقـة نفسـها، يشـجعانه ولا يتفحصـان زلاتـه، ويسـتمعان له ولا يعيبان عليه، ويشـعرانه بأهميتـه ولا يلتفتان

إلى عدم تركيزه أحيانا، وكان يخبرهما كما يخبر أباه: بأنه يرى الصباح أجمل اللحظات، وأسعد الأوقات، لأنه يقابل فيه سعيدان وأخاه، ويشاركهما مرحهما المستمر، وضحكهما المتواصل، وشعوره الدائم، بأنه إنسان كامل، يطير فرحة عند خدمة زبون، ويستنشق قوة عند عدّ النقود، وفي الصباح لم يعد معاقا، ولم يعد محبوساً، ولم يعد ممنوعاً من لقاء الآخرين بل لم يعد بحاجة لأبيه، كي يأخذ بيده للخروج. وحين يستمع سعيدان لمثل هذا البيان، كان يحدث نفسه: بأنك أيها الصبي مفتاح خير لنا، ومغلاق شر أصابنا، ونهاية بلاء حل بنا، وكنا من أبيك طوال الوقت في كوابيس، وفيك نشعر بالبراءة والتنفيس. وكان المطوع جرير، حين يستمع من ولده لهذا التقرير يمتقع وجهه، ويتغير لونه، ولا يبدو عليه الرضا.

وبعد شهر كامل من خروج شادي إلى الدكان، خرج جرير في الصباح كعادته، يجر شادي من يده، ويحمل كيسا أبيضَ مع عصاه، لكنه لم يغادر هذه المرة، فقد أدخل شادي الدكان، وقام بحشر نفسه من الباب، وجلس في مكانه المعتاد، وفتح الكيس الأبيض، وأخرج منه دلة القهوة، وكأسا زجاجياً ودفتراً صغيراً، وسعيدان يتظاهر بالحفاوة والترحيب، ووجد بين الدهشة والصدمة، شيئا مفرحاً، فلم يرَ الكتاب المجلد، وحمد الله سراً، وحدث نفسه: ما الذي جاء بجرير؟ ألا يكفينا ابن جرير؟ وهل يحتمل الدكان هذا العدد؟ ويا ترى ماذا سيقرأ لنا اليوم؟ لكنه لم يحضر كتابا! لابد أنه قرر بدء الاختبارات! فهل ستكون شفوية أم كتابية؟ لابد أنها شفوية! فلم يحضر أقلاماً! لكنه قد يأخذها من الدكان! من يدري؟ وهل سيدخل الامتحان أخي وشادي؟ أم أنه سيقتصر عليّ وحدي؟ ويا ترى كم سيكون الوقت؟ وكيف إن جاء زبون؟ هل سيوقف الساعة كما كان يوقف القراءة؟ ولم تُوقِف تساؤلاته إلا نحنحة جرير، والتي لم تكن إلا جرس تنبيه لخبر جديد، والتفت إلى سعيدان بعد أن سفّ كأس القهوة وقال:

-يا سعيدان، تضايقت وحدي في البيت، وقد قرأت الستة الكتب، وجئت أساعدكم.

امتقع لون سعيدان، ومسح بيده اليمنى صلعته، ولم يجد جوابا لهذا الخبر المفاجئ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة سخرية و قال:

-حياك الله يا مطوع، لكني أتوقع أن يخاف الزبائن، ويهربوا!

ضحك جرير وقال:

-دعابتك يا سعيدان قوية لكنها لا تجرح.

وأقبلت إحدى الزبائن وكانت عجوزاً، فهب جرير واقفاً كالأسد، ليسألها عن حاجتها، فطلبت: فتيلة للفانوس، وربع لتر كيروسين.

أحضر سعيدان الفتيلة، وقفز أخوه مسعود إلى المخزن المجاور وجلب ربع لتر من الكيروسين.

فسألت: كم الحساب، وهي توزع بصرها ولا تدري لمن تتحدث! التفت جرير إلى سعيدان يسأله كم السعر فيجيبه ببرود: مائة وخمسون ريالاً، أخذ المبلغ ودسّه في جيبه، فيقرع أذنه سعيدان بصوته الحاد:

-هنا يا مطوع، وأشار إلى خزنة صغيرة أسفل الطاولة، أخرج جرير المائة والخمسين من جيبه بهدوء ووضعها في الخزنة بصمت.

وأقبلت عجوز أخرى، وقبل أن تصل الباب، كان جرير واقفا ومرحبا، وطلبت ثلاثة أكياس صغيرة من الحناء.

همهم جرير قائلاً: «وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر»؟، ثم قال: أحضروا الحناء. ناوله سعيدان الأكياس وقد جمعها في كيس بلاستيكي صغير وقال: ثلاثون ريالاً. سلمت العجوز لجرير ثلاثين ريالاً، ووضعها في الخزنة.

وبينما قلب سعيدان يغلي، أقبلت طفلة في الثامنة من العمر، وقام جرير يسألها حاجتها، فنظرت في وجهه، وصرخت بالبكاء وهربت، وجرير يناديها، لكنها أسرعت في الجري.

التفت سعيدان، وقد عقد حاجبيه، ووجه بصره وحديثه إلى جرير وقال:

-يا مطوع، بصراحة ستطير لنا الزبائن.. قاطعه جرير قائلاً:

-بالعكس، انظر كيف أخرجت لك حتى العجائز.

-ما شاء الله والبداية، عجائز من الصباح، وعند المغرب مقابر.

-أنا وجه خير يا سعيدان، أنت اصبر وسترى.

وأقبل أحد الشباب في الثلاثين من عمره، ووجهه غير مألوف، فهبَّ جريرٌ لاستقباله: وسأله؟

-هذه أول مرة أراك هنا.

-لست من هنا.

-أنت لست من القبيلة؟

-أنا من القبيلة، لكني من منطقة بني علي.

-أهلا وسهلا، مرحبا بك، ما جاء بك إلى هنا؟

-جئت إلى الشيخ جلمود في أمر ضروري؟

-ما هو هذا الأمر؟

-أمر شخصي.

-عفوا على الفضول، أخبرني ماذا تريد من الدكان؟

-أريد علبة دخان كمران؟

وهنا عقَّد جرير حاجبيه، واكفهر وجهه، وقال محتدا:

-يا ولدي، التدخين مضر بالصحة. وبينما سعيدان يناوله العلبة، أمسكها جرير وأشار إليه وقال:

-اقرأ ماذا كتبوا على العلبة.

أمسك الشاب بالعلبة وقرأ بصوت مرتفع:

-«التدخين سبب رئيسي للسرطان» وعلق قائلا: إن شاء الله أتخلص من التدخين قريباً.

وناول جرير ثلاثين ريالاً وذهب.

قال سعيدان موجها حديثه لجرير المقص، وقد بدا عليه الضيق الشديد:

-يا مطوع، ما رأيك تستريح في مخزن الغاز، وسِعْر الدبة الغاز.. قاطعه جرير قائلا:

-تريد أن تقتلني! غاز وكيروسين، خَفِ الله يا سعيدان!

-طيب وأنت خَفِ الله فيّ بتصرفاتك هذه، سيقاطع الناس الدكان...

واستمر جرير يستقبل الزبائن، فينصح هذا وينهر ذاك، ولا يحسن استقبالهم ولا التصرف معهم، ويسألهم فيما لا يعنيه، وسعيدان يزداد ضيقاً، ولا يدري ما يصنع، وصبر نفسه، على أن يمر هذا اليوم بسلام، وجاء المغرب وجرير مع ابنه في الدكان، لم يغادره إلا لتناول الغداء في منزله، ثم عاد وقد جلب سجادة للصلاة.

وما إن حان موعد إغلاق الدكان، عند الثامنة مساءً، حتى طلب جرير قائمة بأسعار كل شيء، لكي لا يتحرج أمام الزبائن، ثم ما لبث أن عدَّ المبلغ المحصل وسجّله في الدفتر الذي جلبه معه، وشدد على الاستمرار بهذا المنوال، وسعيدان يتساءل في نفسه: بأي حق يسأل؟ ويسجل؟ وبأي صفة يتدخل؟ وأراد مواجهة جرير، لكنه آثر أن يتريث، فربما لن يأتي في الغد...

وجاء الصباح وأقبل جرير وابنه ودلة القهوة، وكان جرير أكثر نشاطاً وحماساً، وسعيدان أكثر تبرماً وضيقاً، ومرت الأيام على هذا المنوال، وفي اليوم الخامس توقفت إحدى سيارات الشيخ، وكانت تويوتا كروزر، لونها فضي، يسوقها مهياب العملاق، ذو الرقبة الطويلة، ويلف على رأسه شالا بنياً، ثم ترجل منها، ليبارك لسعيدان، وكان في عجلة من أمره، لكن سعيدان أصر عليه أن يريه مخزن الغاز، وفتح المخزن وهمس في أذنه قائلاً: يا مهياب أنا في ورطة، انصحني قبل أن أرتكب جريمة؟ وشرح له مضايقة جرير، وأسلوبه المستفز، وطريقته المنفرة. فنصحه مهياب: بالذهاب للشيخ، وأن يشرح القصة كاملة، وألا يتهور، وذكَّره ببعض الشباب، الذين تهوروا في مشاكل بسيطة، فكان مصيرهم سجن الشيخ، فسأله عن وقت الشيخ المناسب، وأجابه: الآن وقت مناسب، فلا يوجد عند الشيخ أحد.

ولوح مهياب بيده مودعاً لمن في الدكان، وقبل أن يصعد السيارة، صاح به سعيدان: انتظرني!

وأخذ شاله الأزرق، ولفه سريعا على رأسه، وأخبرهم بأنه سيعود سريعا، من مشوار قصير!

13

الشكوى

ركبا السيارة، وكان سعيدان صامتا على غير عادته، مستغرقا في التفكير، كيف يشرح المشكلة، ومهياب يقدم النصائح تلو النصائح، حتى بلغا منزل الشيخ، وكانت الشمس تعلن وصولها، تعانق سطح الطابق الثاني لمنزل الشيخ، بينما كان واقفا تحت شجرة رمان كبيرة، وعليه ثوب أزرق، وقد لفّ رأسه بشال أحمر، ويتمنطق «جنبيته»، ومسدسه مغروز في حزامه، ولم يكن بجواره أحد، صافحه سعيدان، وقبل يده، وبدأ حديثه قائلا: يا شيخ جئتك في مشك.. لكن الشيخ قاطعه قائلا: لا خبر ولا علم قبل شُربِ القهوة، هذه أعرافنا وأسلافنا يا سعيدان. وأمسك بيده نحو سفرة مفروشة، تحت إحدى الشجر القريبة، وعليها دلة قهوة، وزبيب ولوز في وعاءين زجاجيين. صب الشيخ لسعيدان فنجاناً من القهوة، وناوله بعض الزبيب واللوز، فسفّ القهوة وأكل بعض الزبيب واللوز سريعا، وتوجه ببصره نحو الشيخ، ففهم الشيخ مراده وقال له: تفضل قل ما عندك؟

وذهب سعيدان يقص الحكاية، والشيخ حيناً يبتسم، وحيناً يضحك، وقبل أن ينتهي سعيدان، صاح الشيخ لمهياب الذي يقف غير بعيد منهما وقال له:

-اذهب الآن بسرعة وأحضر المطوع جرير، والتفت إلى سعيدان قائلاً: ألم أنصحك بأن تأخذ حذرك؟

-نعم لقد نصحتني، وقد وقع الفأس في الرأس... واستمر سعيدان يحكي خبره مع المطوع. وربما أعاد الحكاية مرات ومرات، حتى أقبل مهياب ومعه المطوع، وقد سبقته رائحة دهن العود، وتفاجأ من وجود سعيدان، ولا يدري سبب استدعائه، وصافح الشيخ بحرارة خادعة،

ومبالغة ظاهرة، وعناق ممل، وهو في الحقيقة لا يطيق الشيخ، والشيخ منه على حذر، صب له فنجاناً من القهوة، وقدم له بعض الزبيب واللوز، وراح جرير: يمتدح القهوة وطيب نكهتها، وجزالة رائحتها، ويسأل عن الخلطات المكونة لها، وهل جميعها محلية أم مستوردة، وبأنه لم يذق في حياته مثلها. قاطعه الشيخ في حزم قائلا:

-يا مطوع جرير، هذا سعيدان، يشتكي منك، أريدك أن تسمع دعواه كاملة بدون مقاطعة، ثم أستمع إجابتك كاملة؟

فتح جرير عينيه ورفع حاجبيه وقلب كفيه، وهز رأسه موافقا مستغربا.

بدأ سعيدان يسرد شكواه، موجها بصره تارة إلى جرير وأخرى إلى الشيخ وثالثة إلى الأشجار، وجرير يستمع ولا يكف عن تقليب كفيه، ونحنحته، وتوقف سعيدان وقال: ---انتهيت.

وأشار الشيخ بيده إلى جرير بالجواب، فتحدث بالتفصيل عن صداقته القديمة بوالد سعيدان، وأحاديث مفصلة عن أيام قضوها، وليال سهروها... ويقاطعه الشيخ وينبهه بأن يتحدث عن الموضوع وألا يسهب كثيرا فيما ليس له فائدة، ويواصل جرير متحدثاً عن شراكته مع سعيدان، وأن المبالغ التي سلمها لسعيدان هي بقصد الشراكة، وليست كما يدعي سعيدان دَيناً، وواصل حديثه حتى انتهى.

تفاجأ سعيدان بخبر الشراكة التي لا يعرف عنها إلا الآن. حاول أن يرد على جرير، لكن الشيخ قاطعه وقال: انتهى الكلام، الآن سمعت يا مطوع شكوى سعيدان، وأنت يا سعيدان سمعت جوابه، والمطلوب منك يا سعيدان: أن تكتب دعواك في نصف ورقة، والمطلوب منك يا مطوع: أن تكب إجابتك في نصف ورقة فقط، وأن تكون الدعوى والإجابة جاهزة،

عند الرابعة عصر اليوم، فإن قبلتم بعدها حكمي بالعرف، وإلا أحلتكما للمحكمة، والآن سيتم إغلاق الدكان، حتى يصدر الحكم، ما رأيكما؟

أجاب المطوع جرير: الرأي رأيك. ويجيب سعيدان: موافق.

صاح الشيخ لمهياب وطلب منه أن يأخذ قفلين كبيرين، ويغلق الدكان ومخزن الغاز، وألا يأخذ أحد منهما شيئا، وطلب منهما الذهاب برفقة مهياب، والموعد عند الرابعة عصراً.

كان سعيدان يشعر براحة وسعادة، حيث وقد قرر المواجهة وكسر حاجز الصمت والصبر، وإن جَهِلَ نتائج الخطوات القادمة، وفكر في كتابة دعواه، أو شكواه، وحضَر في ذاكرته بعض الأصدقاء، لتنميق الكلمات ورصّ العبارات.

وأما المطوع جرير، فكانت خطواته مدروسة، ولم يفاجئه سوى التوقيت، فلم يظن أن سعيدان قد نضج في خمسة أيام، حيث كانت المرحلة الثالثة، في أسبوعها الأول، وسيكون حاضرا مع مستنداته، وإجابته.

***

كان أول الواصلين المطوع جرير، قبل الرابعة بنصف ساعة، ولحق به سعيدان، عند الرابعة تماماً، ولم يكن عند الشيخ إلا القاضي شمس الدين، اجتمع الأربعة في أعلى الديوان، وقال الشيخ:

-نريد أن نسمع الدعوى والإجابة، قبل أن يأتي أحد، فهل أحضرتماها؟

هزا رأسيهما بالإيجاب، فأشار بيده إلى سعيدان بأن يقرأ، أخرج سعيدان ورقة وقرأ بصوت مسموع:

شيخنا الكريم جلمود، هذه دعواي على المطوع جرير المقص، فقد جاءني يوما بثوبه الناصح، ورقق قلبي بذكر أبي، وبصداقته له ومحبته، وأنه

يحبني من محبة أبي، ويراني كولده، ونصحني بزيادة البضاعة، وتوفير الأشياء الضرورية، وشكوت له قلة ذات اليد، فنهرني كيف أشكو وهو موجود، وهو صديق أبي الصدوق، و فتح لي خزانته، وأخرج منها الربطات تلو الربطات، وأغرقني بآلاف الريالات، حتى بلغ ديني له المليون، ثم ضَيَّق في عيني صِغَرَ دكاني، وطمَّع لقلبي سِعة مَخزنيه، وأغراني بالانتقال السريع، إلى منزله الوسيع، ولم يضع في ذلك شرطاً، ولم يطلب لذلك إيجاراً، وازدهر البيع، لكنه داوم زيارتي، يأتي بكتاب يقرأه، ويريدني أتفرغ لسماعه، وأصابني من ذلك ضيق شديد، ثم جاءني بولده شادي، كأنه طير خرج من قفص، وفيه ضعف وقلة حيلة، وعاملته معاملة نبيلة، وكان وجوده أيسر من أبيه، بفارق كبير لا يقارن، وفوجئت بعد شهر تقريبا، بأن جريرا عاود الزيارة، لكنه بدون كتاب، ويريد المشاركة في البيع والحساب، فضاق الدكان بنا الأربعة، وجئت أطلب منك الإنصاف، إما برحيل جرير عني، أو برحيلي عنه، وعودتي لدكاني، وأنا لكم من الشاكرين.

وسكت سعيدان، وطوى الورقة، والتفت الشيخ إلى المطوع جرير وأشار إليه بأن يقرأ إجابته:

وقرأ جرير بصوت مسموع:

-شيخ القبيلة الأغر، جلمود المظفَّر، كنتم وما زلتم كهف المظلومين، وسراج المستنيرين، وردع المغالطين، وإجابتي على دعوى سعيدان، أنني شريكه بلا زيادة ولا نقصان، وعندي من الوثائق المعتبرة، والحجج الظاهرة، ولم تكن شراكتي عن طمع، أو رغبة في التجارة والجشع، وإنما لصداقة سابقة، وأخوة صادقة، مع أبيه الوفي، والشهم الأبي، وقد مددت يدي بسخاء، آملا بأن الوفاء يثمر الوفاء، وبلغت شراكتي معه نقداً، مليون ريالٍ عداً، وجعلت سيارتي له راحلة، أهبط بها وأصعد السائلة، يحمل على ظهرها البضاعة، وأنا رفيقه كالساعة، وحين اخضرَّتْ التجارة،

وأعلن الربح ازدهاره، جاء يشكوني إليك، والعدل منك جوهر وفيك، هذا جوابي والشكر في الختام، والرأي ما تراه والسلام. ثم ثنى الورقة وأخرج من جيبه ثلاث أوراق، فيها توقيعه مع توقيع سعيدان وبصمته، ودفعها للشيخ، فقرأها ثم دفعها لسعيدان قائلا:

-هل هذا توقيعك وهل هذه بصمتك؟

أجاب سعيدان بلا تردد:

-نعم.

أخذ الشيخ الأوراق ودفعها للقاضي، وأشار إليه بهمس: أن يقرأ الإشارة المذكورة عن الشراكة، ليستبين رأيه فيها..

همس القاضي للشيخ: بأن الشراكة مذكورة، مع أنها غير مكتملة الأركان، وفيها تغرير، لكنها ثابتة.

التفت القاضي إلى سعيدان قائلا:

-هل قرأت هذه العبارة (ونسأل الله أن يديم شراكتنا ومحبتنا بالخير والربح الوفير)، التي تكررت في الأوراق.

-نعم قرأتها لكن لم أتوقع أنه يقصد الشراكة، فلم نناقش هذا الأمر أبدا، وكنت أظن المليون ريال هو دين فقط.

وسأله الشيخ قائلا:

-هل كنت تسلم للمطوع أجرته وأجرة سيارته عند جلب البضاعة؟

-لا، ولو طلب لأعطيته.

-هل تدفع إيجار للدكاكين في بيته؟

-لا، وقد سألته فرفض.

والآن هل أحكم بينكما بالعرف، أم أحيلكما إلى المحكمة عند القاضي، قالا بصوت واحد:

-راضيان بحكمك، فأنت شيخ القبيلة وكبيرها، والمحاكم حبالها طويلة لا تنتهي.

سألهما كم سعر البضاعة الموجودة الآن في الدكان والمخزن كاملة:

-اتفقا على أنها تساوي مليونين اثنين تقريبا.

دفع الشيخ بورقة وقلم إلى القاضي وقال له اكتب:

-حكمنا بالتالي: الخيار الأول: لسعيدان الخيار في أن يدفع للمطوع جرير مليون ريال وإيجار الدكان والمخزن من هذا الشهر، ويستمر في المكان نفسه، أو يدفع مليون ريال للمطوع وينقل البضاعة إلى بيته، أو الخيار الثاني: يدفع المطوع جرير لسعيدان مبلغ مليون ريال، ويصبح المطوع مالك الدكان والمخزن. ولكما مهلة ثلاثة أيام فقط.

تهلل وجه المطوع وكتم فرحته، ودارت الأرض بسعيدان، فمن أين له مليون ريال الآن، ومن سيقرضه مثل هذا المبلغ، وما زال يتذكر كيف خارت قواه، قبل عام وهو يبحث عمن يقرضه مائة ألف ريال، ولم يقرضه أحد.

التفت إلى الشيخ، وقد ذبلت عيناه، وقال:

-من أين لي بمليون ريال؟ فليس أمامي من خيار إلا أن آخذ مليون من المطوع.

ورد عليه الشيخ قائلا:

-لديك ثلاثة أيام، فكر فيها، و حاول.. لكن سعيدان قاطعه قائلا:

-ليس أمامي من خيار، ولا أستطيع توفير هذا المبلغ. فالتفت الشيخ إلى المطوع وسأله:

-وأنت هل تمتلك مليوناً؟ فأجابه جرير:

-أنا مستعد، والمليون جاهز.

-إذاً لا داعي لانتظار ثلاثة أيام.. وساد الصمت، وقام الشيخ إلى نافذة زجاجية، وفتحها، وصاح مناديا مهياب، والتفت إلى جرير قائلا:

-اذهب مع مهياب وأحضر النقود وعودا بسرعة...

وبينما أخذ الشيخ ورقة وقلما، ودفعهما للقاضي ليكتب، وثيقة الاستلام والتسليم، همس سعيدان قائلا:

-هذا المطوع نصاب محترف!

ضحك القاضي، وابتسم الشيخ، وقد التفت إلى سعيدان وقال:

-ألم أحذرك منه؟

وبعد كتابة الورقة، أبحر سعيدان على سفينة أفكاره، فلم يكن يتوقع هذه النهاية، ولام نفسه كثيراً، حين أهمل التدقيق في قراءة الأوراق، التي وقع وبصم عليها، فقد كان الطمع وحسن الظن، يتجولان في عقله وقلبه، ولم يفكر أبدا، بأن حبال الحيلة تأتيه من جرير، وتلفّ رقبته بتلك الليونة، وبهذه السرعة...

14
الخلطات

ولم تمضِ ساعة، حتى أقبل جرير المقص، وجلس بين بيدي الشيخ، وقد أخرج عشر ربطات، من فئة الألف ريال، وزعها الشيخ مناصفة، بينه وبين القاضي، وعدَّاها فإذا هي كاملة وافية، دفعها إلى سعيدان، ومعها ورقة الاستلام، قرأ الورقة حرفا حرفا، ثم وقع أسفلها، وأشار له الشيخ بدفعها إلى جرير، فوقعها كذلك، ولم يأخذ منهما الشيخ ريالاً واحدا، كأجرة معتادة ومعروفة، فرغبته فيها منعدمة، فقد كان الإشفاق على سعيدان حاضراً، والاشمئزاز من حيلة جرير عالياً، وخرج جرير وسعيدان شاكرين للشيخ ومقدرين، وعاد بهما مهياب محملاً بتوجيهات فك الأقفال، وركب جرير في الأمام، بجوار مهياب، وسعيدان في الوسط، وأخذ جرير يحدث سعيدان: بأن علاقتهما ستضل وطيدة، وأنه يرحب به في الدكان، وسيكافئه بمرتب جيد، وكذلك أخوه مسعود، ولم ينبس سعيدان ببنت شفة طوال الطريق، إلا حين أشار لمهياب بالوقوف أمام منزله.. وفتح مهياب الأقفال الموصدة، على الدكان والمخزن، وودع جرير وانصرف...

***

وفي صباح اليوم الثالث، وقبل شروق الشمس، خرج مسعود خفية، يجر خطاه نحو الدكان، تتملكه الحسرة والألم، ولم يرَ أحداً إلا شادي وأباه، وحين رآه جرير طلب منه أن يأتي ويعمل معهم، وليس هناك من خلاف أبداً...

عاد مسعود مسرعاً إلى بيته، وذهب إلى أخيه سعيدان فوجده في غرفته يقلب تلك النقود، فأخبره بدعوة جرير، واستأذنه بالذهاب للدكان، لكن سعيدان نصحه، بالذهاب إلى المدرسة، وأن يكمل دراسته وألا يكون

مثله، ووعده مسعود أن يذهب للدراسة في بداية السنة القادمة، ويواصل دراسته من الصف الثالث الابتدائي، وهز سعيدان رأسه موافقاً، وحذره من المطوع، وأوصاه أن يشترط راتباً معلوماً ومحدداً...

كان جرير بحاجة ماسة لسعيدان وأخيه، لكن عودة سعيدان مستحيلة، وأقبل مسعود وعلى وجهه ابتسامة، ورحّب به جرير وشادي، وراح جرير يسأله عن الأسعار، ويقيد مالا يعرف سعره في دفتره... واستمر البيع في الدكان، مع معرفة الناس بالخبر، حتى وصل بعضهم إلى المقاطعة، والبعض مع انقباضهم إلا أنهم مضطرون، ووجود مسعود خفف الاحتقان، وأعاد الزبائن للدكان، وبعد أسبوعين لاحظ جرير إقبال الناس، على زيوت الشعر والدهان، فخطرت له فكرة بعمل خلطة للشعر، فخلط شيئا من علبة الفازلين، بمثلها من علبة النيفيا مع مطحون ورقات سدر يابسة، وبنفس المقادير خلطها جميعا، ولم يخبر أحداً، ثم وزعها في علب صغيرة، جلبها معه من السوق، وأشاع بأن الخلطة تطيل الشعر، وخاصة للنساء، فكانت المفاجأة، أن ثلاثين علبة نفدت في ثلاثة أيام، مع أن سعر العلبة مائة ريال، وتكلفتها عشرة ريالات، فتحت التجربة شهية جرير، وزادتها كثرة الطلبات، وزيادة الحجوزات، وكثرة الإشاعات، فهذه تؤكد لهذه وتلك تخبر تلك، بأن شعرها طال، وذهبت الدعاية ترتج في القبيلة، فقرر جرير الولوج بقوة، وذهب لتحضير علب أخرى لتكثيف الشعر، وثالثة لتنظيف البشرة، ورابعة لإزالة البقع، وخامسة لترطيب البشرة، وجميع العلب تحوي الكميات نفسها، إلا أن أوراق الطلح والعنب والرمان المطحونة، قد دخلت في الخلطات الجديدة، مع قطرات من حبر أحمر أو أزرق، أو أسود للتمييز بين العلب.

واشتهرت علب جرير، بخلطات المطوع، وبلغت من الشهرة مبلغاً كبيراً، حتى تجاوزت منطقة بني وعلان، إلى منطقة بني علي شرقاً، ومنطقة

بني ناجي غرباً، مرورا بمنطقتيّ بني شامخ وبني منصور، وأصبحت الطلبات تأتيه كل ثلاثاء وخميس بأعداد كبيرة.

وأدرك جرير بأن تجارة الخلطات، تكاد تغلب تجارة المواد الغذائية، والربح فيها أجدى وأوفر، وتكلفتها أقل وأيسر، فجعل مسعود على مخزن الغاز، لكي لا يكشف شفرة الألغاز، وطلب من ابن أخيه منير أن يساعده في الدكان، ومنير مشغول بمزرعته، وبعمله الآخر، حيث يتفقد منزل المقاول خوفا من السرقة، ويتقاضى أجراً على ذلك، لكنه أيضاً لا يستطيع رفض طلب عمه، فوافق على مضض، ولاحظ أن عمه مشغول عنه بالخلطات وتحضيرها، ووضع الملصقات والتعليمات عليها، فَسُهل العمل عليه، وأصبح يداوم في الدكان، إلا من بعض الساعات، حيث يذهب لمزرعته، أو يتفقد منزل المقاول...

أخذت خلطات جرير للبشرة والشَّعْرِ تحتل حديث الرجال والنساء، إلا أن سعيدان كان يردد بأن المطوع فتان، وصاحب احتيال وبهتان، وليس له أية خبرة في علم الشعر، ولا أدنى معرفة في جلد البشر، وكانت سياط سعيدان تصل جرير، ولم يكف سعيدان عن تقريعه، إلا بعد أن أتاه أخوه يخبره بأنه مطرود من العمل إن استمر في إثارة الجدل.

وحين علم جرير برضى الكثير عن خلطاته، انفتح قلبه على مصراعيه، يعانق الطمع من أوسع أبوابه، وبدأ بتحضير خلطات جديدة، من الجيل الثاني، لكنها طرقت أبواب الطب، وكيف له أن يلج هذا الباب، وهو لم يدرس فيه كتاباً، ولكن ما الداعي للدراسة، والعلم والبحث والمعرفة، فقد نجحت عُلب الشَّعْرِ والبَشَرة، بدون معرفة ولا دراسة، ولا خبرة ولا دراية، فهل ستفشل علب الزكام والكحة، وقد هللت الناس للخلطات السابقة، وسيهللون أكثر للخلطات اللاحقة، وكيف لا تنجح والقبيلة عطشى، فلا مستوصف فيها ولا مستشفى، وأخذ جرير يجمع أدوات

التحضير الجديدة، وأخبر منير أن يجمع له نبتة «العِنْصِيْفْ» وهي نبتة عطرية، تنمو في الجبال والبرية، وجمع منها ثلاث شوالات، وجففها على سطح منزله، ثم دقها حتى صارت مسحوقا، وجاء با«الفكس» وهو دهان للحمى، وبدأ الخلطة : من «العنصيف» و«الفكس» ومسحوق النعناع بمقادير متساوية، وأصبحت خلطة دهان جديدة نَزَلت الدكان، وتناقلتها الألسن، تتحدث عن علاج لضربات الشمس، وللحمى والزكام، والتعرق الليلي، والعطاس المستمر، وآلام الظهر والمفاصل، وانقباض العضلات، وشد الأعصاب، وكانت الخلطة موحدة، إلا أن طريقة الاستخدام مختلفة.

فعلاج ضربة الشمس: دهان الجبهة والرقبة والظهر وتغطية المريض حتى يعرق، فإن تعرق يمسح الدهان، ويوضع ثانية، وهكذا حتى تنتهي الحمى. وعلاج الظهر: دهانه والنوم عليه. وعلاج الزكام: غمس الأصبع في العلبة وإدخالها الأنف، ثلاث مرات في اليوم، ولكل مرض على كل علبة تفصيل مكتوب.

وبدأت الخلطة الجديدة، تأخذ شهرتها بطول قبيلة بركان وعرضها، وبسعر خمسمائة ريال، وحين يستيقظ السوق في يومي الثلاثاء والخميس، كانت كل العلب تباع على ظهر سيارة جرير، وبدأ بعض تجار السوق يطلبون كميات كبيرة لبيعها خارج القبيلة. ويطلبون كذلك خلطات أخرى، لأمراض مختلفة، كالإسهال والطرش، والإمساك، وآلام المعدة، وتكون إجابات جرير أن الخلطة في طور التحضير، وستكون مبهرة وليس لها نظير، والواقع ليست لديه بل يتعلل أو يتهرب من أي علاج يؤكل أو يشرب، فالأمر خطير وأشد وأصعب، لكن إغراء الناس والنفخة جاءته بلا مقياس، جعلته يصدق أن له إنجازاً، وأن الخلطات المخلوطة فيها إعجاز، وأن يديه القادرة الأبرز قد لفت إبداعاً بحرير القز...

***

وفي صباح السبت، وقبل طلوع الشمس، كحل عينيه، ولبس دجلته «معطفه» الصفراء الطويلة، واعتمر شاله الأبيض، تاركاً خلفه ذيلاً قصيراً وأخذ عصاه، وبعد أن اطمأن على الدكان لوجود منير وشادي، وفي مخزن الغاز مسعود، وهمس لمنير أنه سيغادر القبيلة إلى صنعاء لجلب بعض الأشياء، وتحرك بسيارته وبدأ يحدث نفسه عن الرزق الوفير الذي جلبته المقادير من خلطاته ذات التأثير، والآن يأتي الدور الحاسم، لخلطات الجيل الثالث، والتي ستكون في العميق، وسيشربها الناس بلا تدقيق، ولابد من الحرص وعدم التسرع لتجنب الوقوع في خطأ مُروِّع، وبعد حوالي ساعات ثلاث، كان جرير يطرق أبواب صنعاء، واستمر في السير حتى بلغ زحاما لا يطيقه، فأوقف سيارته، وترجل نحو صيدلية أمامه، دلف للصيدلية وقد لف وجهه ببعض شاله وشكا للصيدلي، الواقف خلف عازل زجاجي،عن إسهال يعتريه، في الليل والنهار يأتيه، فسأله إن كان يريد حبوباً أو شراباً، وجرير يسأل: أيهما أطول عمراً، فأجابه قائلاً:

-الحبوب أطول عمراً.

-آتني بالحبوب التي ليس لها أعراض، ولا تؤثر على الحمل.

استغرب الصيدلي! وقال:

-هل تريدها لك؟ أم لغيرك؟

-نعم نعم، هي لي يا ولدي-بارك الله فيك- لكن قد نستخدمها للأولاد أو الزوجة.

- هناك أنواع كثيرة، لكن إذا كان الوضع هكذا، فخذ لك « ستربتوكين»، هذا النوع آمن، ومفيد أيضا للتقلصات.

وأعطاه علبة من حبوب «ستربتوكين».

-طيب يا ولدي أريد أيضا علاج للإمساك؟

-حيرتني! أنت فيك إسهال أم إمساك؟

-أحيانا يأتيني إمساك، وأحيانا الزوجة، أريد علاج مثل هذا «ستروبوتوكيني»، ليست له أعراض جانبية.

-طيب، طيب، فهمت قصدك، سآتيك بعلاج آمن وممتاز.

وأحضر علبة أقراص من «بيساكوديل»، وقال:

هذه الأقراص مفيدة جدا للإمساك، وليس لها أعراض جانبية.

-كم سعرهن؟

-هذا خمسمائة ريال وهذا ستمائة ريال.

-طيب أعطني من كل واحد عشرين علبة، لكن بتاريخ انتهاء طويل.

أخذ الصيدلي الآلة الحاسبة، وبعد عملية الضرب والجمع قال:

-سيكون الإجمالي: اثنين وعشرين ألفاً.

أخرج جرير ربطة من جيبه، وعدّ منها اثنين وعشرين ورقة، ودفعها إلى الصيدلي.

تهلل وجه الصيدلي، وجمع الدواء في كيس وسلمه إياه بحفاوة كبيرة، وأعطاه كرته، وقال:

-أي شيء تريده يا حاج الكرت عندك، اتصل بي وأنا أجهزه لك، ولو تريد أحضره لك للبيت.

-شكرا شكرا، البيت بعيد، أنا سآتيك، واعتبرني زبوناً دائماً...

15

الدكتور أمير

لم ينم جرير تلك الليلة إلا وقد طحن جميع الحبوب، ووضعهما في علبتين كبيرتين منفصلتين، واحدة للإسهال، وأخرى للإمساك، وأضاف لكل علبة: دبة كبيرة من العسل، ومسحوق «العنصيف»، ومسحوق النعناع، وزيت الحبة السوداء، وبدأ في خلط العلبتين ورجهما، حتى إذا اختلط الخليط، وامتزجت المكونات، بدأ بصبهما إلى علب صغيرة، منها خمسون للإسهال، وخمسون للإمساك، كتب عليها بقلم أحمر كبير، ويترقب الغد ليعلن عن ميلاد الجيل الثالث من خلطاته المثيرة والمشهورة.

وما إن جاء الصباح، وقبل الشروق كالعادة، كان منير وشادي، ومعهم مسعود، يرتبون وينظفون بقايا غبار عالق لاستقبال يوم جديد، وخرج جرير متأخرا بعد شروق الشمس، على غير عادته، حاملاً معه العلب في كيسين كبيرين، رصّ العلب في المكان المخصص للخلطات في الجهة اليمنى من الدكان، وبينما يلصق ورقة الإعلان، على الواجهة إذ أقبل الطفلان التوأم، الحسن والحسين، ولم يتجاوزا الرابعة، ونادراً ما يخرجان وفي يد كل واحد منهما ألف ريال، قد لبسا ثوبين أبيضين جديدين، وكوتين أسودين لامعين، وزاد تألقهما ذلك البياض على وجهيهما، والابتسامة التي تملأ شفتيهما.. سألهما مسعود، من أعطاكما النقود، فأجابا: أبي.. ليسألهما مسعود متفاجئاً: ومتى جاء؟ فيجيباه بصوت واحد: أمس بالليل. سأل جرير وقد بدا عليه الفضول ملتفتاً إلى مسعود قائلا: ومن أبوهما؟ فيجيبه: الدكتور أمير. انتفخت أوداج جرير وفتح عينيه ورفع حاجبيه، وحرك إلى الأعلى شاله الذي يغطي نصف جبهته، ومضى يسائل نفسه:

دكتـور في القبيـلة! وأنا آخـر مـن يعـلم، وكيـف للقبيـلة أن يخـرج منهـا دكتـور، ومدرسـتها الثانويـة، لا يصـل إلى الصـف الثالـث الثانـوي أحـد، وأغلـب شباب القبيـلة يتوقفـون عنـد الابتدائيـة، والمثـابر منهـم يكمـل الإعداديـة.

أدرك منـير، حـيرة عمـه جـرير، فقـضى حاجـة الطفلـين، وحمَّلهمـا السـلام عـلى أبيهمـا، والتفـت إلى عمـه وقـال:

-هـل تتذكـر أخـو القـاضي الـذي مـات في حـادث مـع أهـله، ولم يتبـق إلا طفـل واحـد؟

-نعم أتذكر، كان هذا منذ ثلاثين عاماً تقريباً!

-نعم ذلك الطفل هو الدكتور أمير...

كان أمـير قـد فقـد أبيـه وأمـه وإخوتـه في حـادث انقـلاب السـيارة وهي عائـدة إلى بـني وعـلان عـلى الطريـق مـن الـوادي الأعـلى إلى الوادي الأسـفل، حيـث كانـت السـيارة تهبـط إلى السـائلة، وكانـت الطريـق رخـوة بعـد أيام ماطـرة، فتزحلقـت إطاراتهـا، وتقلبـت لأكـثر مـن سـبع مـرات، ومـات كل مـن عليهـا، إلا أمـير، فـلم يصـب بأذى، فاعتـنى بـه عمـه القـاضي شمـس الـدين، ورباه وعلمـه، وحـرص عـلى إتمـام دراسـته، فـدرس الأول الثانـوي ومعـه زميلـين، والثـاني الثانـوي ومعـه زميـل واحـد، وفي الثالـث الثانـوي كان وحيـداً، ومـع ضَعـف المدرسـين، وقلَّتهـم، فالمـدرس فيهـم يُـدَرِّسُ مـواداً لم يَدْرُسْهـا، فمـدرس اللغـة العربيـة يُـدرس معهـا الرياضيـات، ومـدرس العلـوم يـدرس معـه اللغـة الإنجليزيـة، ومـع هـذا التخلـف التعليـمي إلا أن أمـير أثبـت جـدارة عاليـة، وأعانـه عـلى ذلـك تدريـس عمـه لـه، الـذي كان ينظـر إليـه كابنـه، وأمـير ينظـر إليـه كأبيـه، وأعلنـت نتـائج الثانويـة وكان ترتيبـه الثالـث عـلى اليمـن، ولحسـن حظـه عنـد إعـلان النتـائج كانـت هنـاك لجنـة ألمانيـة في ضيافـة شـيخ القبيـلة جلمـود تقـوم بمسـاعدات تنمويـة كثـيرة، فهـي الـتي قامـت

بنـاء المدرسـة الثانويـة، والمحكمـة الشرعيـة، وجـاؤوا لدراسـة مـشروع حفـر خمـس آبار ارتوازيـة، فأخـبرهم الشـيخ بنتيجـة جهـودهم، ونجـاح مدرسـتهم، وأن أحـد طلابها، فـاز بالمركـز الثالـث رغم ظـروف القبيـلة الشحيحة، وعـدم اهتـمام وزارة التربيـة والتعليـم، فطلبـوا رؤيـة الطالـب أمـير، وأخـذوه معهـم إلى السـفارة، وبعـد شهـور سـافر إلى ألمانيـا، ودرس الطـب التشـخيصي، وكان يحقـق المرتبـة الأولى، وفي السـنة الرابعـة جـاء في إجـازة، وتزوج ابنـة عمـه الوحيـدة سهـام، وكان عمرهـا سـتة عشر ربيعـاً وأخذهـا معـه، وحـين حملـت جـاء بهـا وتركهـا عنـد أبيهـا، وتكـررت زياراتـه للقبيـلة كل سـنة، في إجـازات قصـيرة، لا تتجـاوز الثلاثـة أسـابيع...

***

مـرت أيام جـرير ثقيـلة، لا يـدري بثقلهـا غـيره، اجتنـب مخالطـة النـاس، واقتـصرت صلواتـه في بيتـه، وتعلـل بجـرح أصـاب قدمـه، والـتي لفهـا بشـاش أبيـض، والسر الـذي لا يعلمـه أحـد، هـو سِرُّ التحضـير لخلطاتـه، الـتي يفضحهـا العـلم، ويكشـف زيفهـا النـور، ولم يكـن لهـا أن تُبـاع، لـو لم يكـن للجهـل بـاع، كان كثير السـؤال لمسعود عن ميعـاد سـفر الدكتـور، ويجيبـه بالجـواب نفسـه: أنـه لا يمكـث سـوى أسـابيع...

ومـر أسـبوعان بسـلام ودخـل الأسـبوع الثالـث، وجـرير عـلى نظامـه المعتـاد، مـن البيـت إلى الـدكان، ولا يذهـب إلى مـكان، لكـن الـرياح تأتي بما لا تشـتهي السَّـفِن، ففـي عصر يـوم الأربعـاء، والشـمس تجـر ضفائرهـا الدافئـة، أقبـل سعيدان، مع أنـه مقاطـع للـدكان منـذ حـدوث البيـع المشـؤوم، ويـده في يـد الدكتـور أمـير، والـذي كان يلبـس ثـوبا أبيـضَ، وعـلى رأسـه شـال أبيـض مخطـط بخطـوط سـوداء، ملفـوف بإتقـان، وعـلى خصـره الحـزام و«الجنبيـة»، وكان شـابا في منتصـف الثلاثـين مـن عمـره، طويـل القامـة، رياضي الجسـم،

وشارب محفوف، وحليق اللحية، وأنفه مستقيم طويل، وحواجبه كثيفة، وتبدو عليه النعمة...

وقفا أمام الدكان وسعيدان يضحك عاليا، وأضحك الجميع، ويده تشير إلى جرير، يقول بصوت متقطع ساخر:

-أُعَرِّفك برأس الطب، وكبير الباحثين، والخبير الذي لا يشق له غبار... قاطعه جرير وكاد من الغيظ ينفجر، ومد يده للدكتور وكساها بابتسامة عابرة وقال:

-أنا أخوك في الله جرير المقص.

-وأنا أخوك أمير وعمي القاضي شمس الدين.

-أنت ابن الأخ عبد الله رحمه الله، كان صديقي، و رفيقي، و... فيقاطعه سعيدان:

-صديقك ورفيقك، وصاحبك وحبيبك، النغمة نفسها! شكلك ناوٍ عليه... فيقاطعه جرير قائلا:

-ما أكثر دعابتك يا سعيدان! دعني أتعرف على الدكتور، هذا فخر للقبيلة.

فيجيب سعيدان وقد أمسك بكتف الدكتور قائلا:

-نصيحة لوجه الله، انتبه اسمه فيه «مقص» لا تدخل معه في شراكة.. وهنا يتأمل الدكتور بقايا ورقة إعلان ملصقة؛ مكتوب فيها «وداعاً للإمساك والإسهال، خلطات مضمونة» ...

ويطلب من جرير علبة من علب الإمساك، فيفتحها، ويشمها، ويسأل عن مكونات الخليط، و جرير يخبره أنها طبيعية، من العسل والحبة

السـوداء، وغـيره، ولكـن الدكتـور يؤكـد له أن فيهـا مـواد كيميائيـة، فيتلعـثم جـرير وينـفي نفيـاً قاطعـا، فيسـأله عـن سـعرها، ويشـتري علبتـين واحـدة للإمسـاك، وأخـرى للإسـهال، وسـأله إن كان يحضرهـا في مـكان معقـم، وبأدوات معقمـة، ومـاذا يعـرف عـن أضرار الأعشـاب وسُمِّيتهـا، وأين درس ذلـك وتعلمـه، فـلا يجـد إجابـة مقنعـة، وأخـبره بأنهـا لابـد أن تكـون مـبردة، ورد جـرير بأن الكهـرباء منعدمـة ...

كان الدكتـور متأكـداً بأن الخلطـات ليـس فيهـا أدنى قواعـد التحضـير، ولا أبسـط معايـير العـلم، لكـن خلطـات الدهـان أقـل ضررا، والأخطـر هـو مـا يـؤكل أو يـشرب، وأخـذ اثنتـين لفحصهـما في مختـبرات ألمانيـا، خاصـة وهـو مسـافر بعـد يومـين...

كان سـعيدان سـعيداً، بهـذا اللقـاء، وقلقـاً عـلى مصـير أخيـه، الـذي تعلـق بالـدكان، كطـائر بعشـه، لكـن مسـعود قـدم الاعتـذار بعـد مغـادرة سـعيدان، و جـرير مشـغول بأمـر الخلطـات، وليـس في رأسـه سـواها، ومـاذا سـيفعل بهـا الدكتـور، وهـل سـيأخذها معـه، ليحللهـا ويكشـف أمرهـا...

16

العرس

وبعد أسبوع من سفر الدكتور، وقبل غروب يوم الاثنين جاء مهياب إلى الدكان، يطلب من جرير أن يأتي إلى الشيخ، ركب بجواره، وسأله عن السبب، لكنه أجابه: بلا أدري، دخل جرير إلى ديوان الشيخ، وكان هناك العشرات من الناس، وقال :«السلام عليكم، والسلام تحية، يا رجال» - وهي تقال لتجنب المصافحة- وتقدم بخطواته نحو الشيخ، في أعلى الديوان، وجلس بجواره، وبعد أن شرب القهوة، أشار الشيخ للقاضي أن ينهض، وطلب من جرير أن يلحقهما، واجتمع الثلاثة في غرفة صغيرة مجاورة، ليس فيها إلا موكيت أزرق، يرقد على أرضيتها، وساعة في الحائط متوقفة، وللغرفة نافذة وحيدة، جلسوا جميعا، وأمسك الشيخ بلحية جرير وقال له:

-اتق الله، خَفِ الله، أنت مطوع، والناس تظن فيك الخير.. قاطعه جرير ببراءة قائلاً:

-ماذا هناك يا شيخ؟

-اتصل بي الدكتور أمير وقال: عُلَبُكَ التي تبيعها مضرة بالناس، وقد تسبب سرطان وفشل كلوي، لأنك تخلط فيها حبوب دواء مطحونة.

أُسقِطَ جرير ولم يتكلم، وقلَّب كفيه باطناً وظاهرا.

واستمر الشيخ في تقريع جرير قائلا:

-اقتصر على خلطات الشعر والدهان، لا تدخل في العلاجات، أنت لست طبيباً، ولم تدرسه، وهذا اسمه نصب واحتيال، فهمت أم أفهمك؟

-حاضر يا شيخ، ولا يهمك، سأترك الخلطات العلاجية، وحين يعود

الدكتـور سأكشـف له سر الخلطـات، وهـو بعلمـه ودراسـته يطورهـا. ويعلـق القـاضي قائـلا:

-الدكتـور أمـير.. لم يتبـق له إلا أشهـر فقـط ويكمـل التخصـص العـالي في عـلم الجينـات والوراثـة والتشـخيص ويعـود...

وعـلى هـذا تم الاتفـاق، وخـرج جـرير سـالماً ولم يكـد يصـدق أنـه نجـا، فقـد رأى مـن الشـيخ عيـونا حمـراء، وقبضـة قويـة. ومـا إن وصـل الـدكان حتـى جمـع كل علـب الإمسـاك والإسـهال، وحملهـا إلى بيتـه، واعتـذر لـكل السـائلين عنهـا بنفـاد الكميـة، فيما واصـل بيـع علـب الدهـان، واسـتمر الحـال عـلى هـذا المنـوال.

***

وأمـا سـعيدان فقـد أمـضى ثلاثـة أسـابيع يسـاعده بخيـت، لتجهيـز عرسـه، عـلى ابنـة خـاله، وقـد اشـترى: ثـورين سمينـين، بمائـة وأربعـين ألفـا، وسـلم لخـاله المهـر المتعـارف عليـه: مائتـين وخمسـين ألـف ريال، وتكفـل خـاله :بكسـوة ابنتـه وزينتهـا، وتم تحديـد العـرس، يـوم الخميـس، وذهـب سـعيدان يـوم الاثنـين إلى الشـيخ، ليخـبره بالخـبر، ويطلـب منـه تكليـف مهيـاب بالنـداء يـوم الثلاثـاء في السـوق، ليخـبر بنـي وعـلان بعرسـه، وبأن الدعـوة عامـة، فـرح الشـيخ وبارك له وأصر عليـه بأن يكـون الغـداء والمقيـل في «ديوانـه» الواسـع، كما يفعـل أغلـب شـباب القبيـلة، وسـيتكفل بـذبح الثـورين وطبخهمـا، وعـلى سـعيدان جلـب بقيـة الغـداء مـن بيتـه. فـرح سـعيدان كثـيراً، وبـدأ يعيـد ترتيـب العـرس، بنـاءً عـلى المسـتجدات الجديـدة، وبجانبـه بخيـت وأخـوه مسـعود الـذي أخـذ خمسـة أيام إجـازة مـن الـدكان.

وفي صبـاح الأربعـاء، وبعـد تكسـير بعـض الأخشـاب إلى قطـع صغـيرة لتكـون حطبـاً، كان الثلاثـة جالسـين في بيـت سـعيدان عـلى موكيـت قـديم في الغرفـة الـتي كانـت دكاناً، وأصبحـت الآن مخـزناً للبيـت، وتـتزاحم فيهـا مشـتريات العـرس، مـن قمـح ودقيـق، وزيـت وسـكر، وبـين أيديهـم صحـن

بلاستيكي صغير، تتربع فيه أربع رُمّانات، أخذ كل واحد ينهش واحدة، وانشغلوا بالأكل إلا مسعود، فأفرط في الضحك، نظر إليه سعيدان يسأله عن السبب؟ فيجيبه: سأخبرك لاحقاً...

أكمل أكل الرمّانة! لكن سعيدان وضع الرمانة على الصحن، وقال: لن آكلها حتى تخبرني.

وحين وجد مسعود أنه لا مناص مرر أصابع يده اليسرى في شعره، وأمسك برأسه، وعلى فمه ضحكة يمسكها بقوة وقال: المطوع يبارك لك ويقول هو مستعد لأي خدمة. يرد سعيدان وقد وضع الرمانة وتوجه بحديثه إلى بخيت الذي أشرف على التهام الرمّانة الثانية وقال:

- يا أخي هذا مطاط لا يحس ولا يشعر، فلا أريد مساعدته، ولا أريد سماعه.

رفع بخيت رأسه، وكان فمه مملوءاً، وقد تلونت شفتاه وأنفه بالأحمر، وسكنت إحدى حبيبات الرمان في منخره العريض، فيتأمله سعيدان، وينفجر ضاحكاً، قائلا لبخيت:

-أنت الآن تأكل من فمك أم من منخرك؟

فيفاجئه بخيت بردة فعل لم تكن بالحسبان، عطسة قوية كأنها قنبلة مدوية رسمت على وجه سعيدان لوحة ملونة من هضاب وجبال، وأنهار حمراء وبنية تسيل، امتلأ المكان بضحك مجنون من بخيت ومسعود إلا سعيدان فقد ذهب يتحسس خرقة بالية، كان يمسح بها الطاولة والعلب من الغبار، أمسكها ومسح بها وجهه، وأزال عن عينيه القشور الملتصقة، وبالكاد فتح نصف عين، ليرى بخيت ملقى على ظهره، من شدة الضحك، وأخاه يمسك أسفل بطنه، في ضحك هستيري لم يتوقف، وسعيدان لا يترك المشهد دون تعليق فقد قال:

-لقد خَرجتُ عن الوعي لثوان، وأحسست أني قفزت من مكاني،

ظننتها قنبلة، أو انفجار أسطوانة غاز، كل هذا في فمك! قشور وبذور وسوائل غريبة. كان مسعود وبخيت يمدان أكفيهما طالبين منه السكوت، فنوبة الضحك كادت أن تخرج أضلاعهما، لكن سعيدان يعاقبهما بإضحاكهما أكثر، فزيادة الضحك تكون مجهدة، واستمر في الحديث إلى بخيت قائلاً:

- لِمَ لا تذهب إلى المطوع؟ فقد يجد لك عملا، في طحن الأشجار، وخلط الخلطات، بفمك الطاحون هذا!

غرق الجميع في بحر من الضحك المتواصل، فيما سعيدان يحاول التقاط بقايا مفخخة بخيت التي تناثرت عليه، من رأسه حتى أخمص قدميه...

***

وبعدها صعد الثلاثة إلى غرفة سعيدان، لعل أحدا منهما يزينها برأي أو يجملها بفكرة... كانت صغيرة، قد غطت نافذتها الوحيدة، ستارة بيضاء، وعلق بجوارها فانوس أزرق جديد، و فرشت أرضيتها بموكيت أحمر، وعلى جوانبها رصت وسائد إسفنجية حمراء اتصلت من عتبة الباب إلى خلفه، ويرقد فرشان سميكان من الإسفنج قد التصقا ببعضهما بعضاً كأنهما واحد، وعليهما ملاءة زرقاء بلون السماء، تزينها ورود مرسومة، وأعلى الفرشين وسادتان صغيرتان، وأسفل الفرشين ترقد بطانية زرقاء سميكة وعريضة بعرض الفرشين، قد عطفت بلفات صغيرة متناسقة، وفي زاوية الغرفة وعاء زجاجي مُلِئ بالماء إلى منتصفه، وغمست فيه باقة من الورود، وأغصان الريحان،وبعض الأعواد العطرية البرية، والتي ملأت الغرفة برائحة طيبة زكية، وفي الزاوية الأخرى، طاولة خشبية صغيرة، أُلبست غطاء أبيض مطرزاً بخيوط ذهبية، وعليها زجاجة عطر مغلفة، وثلاثة صحون زجاجية صغيرة، مُلِئت فوق طاقتها بالزبيب واللوز والفستق، وفي

أحد جدران الغرفة، علقت سجادة حمراء مكتوب فيها باللون الأزرق البسملة وآية الكرسي بخط كوفي جميل، وعلى الجدار المقابل مكحلة معلقة تجاورها مرآة صغيرة.

تأمل بخيت الغرفة، وتقدم نحو الطاولة، ومد يده، إلا أن يد سعيدان كانت أسرع، ورجاه ألا يعبث بالصحون، وأخرج كيساً يختبئ خلف الباب، وغمس يد بخيت فيه، فخرجت حبلى بزبيب ولوز، ولم يكتف بواحدة، فغمسها ثانية وثالثة، حتى طفح جيب كوته «معطفه».

وخرجوا بلا لمسات إضافية، إلا أن بخيت نصحه ألا يجهد نفسه، وأن ينام باكراً، فكل شيء تم ترتيبه، على أكمل وجه، وأدق تنظيم...

***

وقبل شروق شمس الخميس كان الجزار وولديه قد أخرجا الثورين إلى بقعة نظيفة، تحت شجرة سدر كبيرة، وأقبل سعيدان ومعه بخيت ومسعود، والثوران معلقان على الشجرة، وسكاكين الجزار وولديه تقطعهما، وتضع اللحم في صحون ثلاثة، وعلى مقربة من الصحون، مُلِئت ثلاثة قدور كبيرة بالماء، والحطب تحتها ينتظر الشرارة الأولى...

واجتمع خلق كثير على الغداء، وسعيدان يشارك في تقديم الطعام، كواحد من شباب القبيلة الذين يخدمون في الأعراس بلا تكلف ولا حرج، بثوبه الأزرق البالي، وشاله البني الملفوف على رأسه.. وعدم اهتمام العريس بالمظهر ما تعارف عليه الناس، حتى يظهر في الزفة بشكل جديد، ولا يدخل العريس عرش التكريم إلا بعد الزفة، وانشغل سعيدان عن ملء بطنه بخدمة الضيوف، ثم انسلَّ مع أخيه و بخيت في سيارة بخيت

التي أعلنت تحركها بأصوات صاخبة، جلبت معها ثلاثة شبان، تعلقوا سريعاً في الصندوق، وكان بانتظار سعيدان ومرافقيه طعام مختار لذيذ، لكن نصفه ذهب إلى معدة بخيت، ثم دخل سعيدان ليغتسل سريعاً، وحلق بقايا شعر في لحيته، ثم لبس ثوب الزفة الأبيض، وحَمَل الشباب بقية الملابس، حتى يتم إلباسه إياها في مسجد القبيلة الصغير، وخرج من البيت ترافقه زغاريد مجلجلة...

وفي المسجد كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف ظهراً، وكان بانتظاره الكثير من الناس، منهم من صلى وانتظر خارج المسجد، ومنهم من لا يزال يصلي، صلى سعيدان سريعاً، وتوجه الى زاوية المسجد عند الباب حيث تجمع الشباب حول كسوته، هذا يفتح صندوق الأحذية، وهذا يخرج العسيب والجنبية، وهذا يفك خيط الجوارب،وذاك يخرج الشالين من كيسيهما. فقد كانت كسوته جديدة مغلفة، ألبسوه الكوت «المعطف» الأسود، وشدوا على خصره العسيب والجنبية، وبدأ مهياب في لف الشال البني السميك المخطط بخطوط خضراء، على رأسه، في لفات متقنة محكمة، لا ينافسه فيها غيره، فقد جعلها ثلاثاً متدرجة، وأبرز الخطوط كمدرجات في رأس جبل، ولف الآخر بطريقة مختلفة، ووضعه على كتفه، وجاء دور العكاوة «وهي لفة دائرية بحجم الرأس قد جمعت فيها أغصان الريحان وبعض الورود» وضعت العكاوة فوق رأسه، وأخذ «الآلي» الكلاشنكوف، ووضعه على كتفه، وطلب سعيدان مرآة، لكنها غير موجودة، فأخرج «جنبيته» اللامعة، وخاطب نفسه قائلاً: (يِهْنَاك) العرس يا سعيدان.. وضحك الجميع...

17
المستشفى

لم يعد في المسجد أحد، وحتى رفقائه خرجوا جميعاً، فكل واحد أخذ موقعه، وجهز رشاشه، وساد صمت كبير، والجميع بانتظار اللحظة الحاسمة، لبس سعيدان جواربه، والتفت يمينا ويساراً وهَمَّ بلبس حذائه، لكنه تراجع، وأمسكهما في يده، وما إن تجاوزت قدماه عتبة الباب، حتى بدأ إطلاق الرصاص.. وحشر قدميه في حذائه سريعاً، وتقدم وقد اصطف له الناس، وكان أوسطهم، كالبدر في ليلة ظلماء، وزخات الرصاص لا تتوقف، كانت خطواته تتسارع، فيأتي أحدهم ليطلق الرصاص، من أمامه، في شريط متواصل، ولا يكمل خطوتين إلا ويقبل آخر، وكأنهم يخبرونه، أن يفعل في عرسهم ما يفعلون في عرسه، وكانت أصوات الرصاص تتنوع وتختلف، حسب الرشاشات المتعددة، وضاع صوت الطبل، بين لعلعة الرصاص، وحين اقترب الموكب من منزل الشيخ، بدأ يجلجل صوت رشاش الشيخ،من سطح منزله، وهو رشاش كبير، وأصواته تخرق الطبلات، وفوقه جرمل البدين لا يتركه للحظة يتنفس، بينما سعيدان يحث الخطى، يريد الوصول سالما، وقبل أن يدلف الى «الديوان»، تسابق الجميع على إفراغ بطون رشاشاتهم، وكأنها اللحظة الأخيرة...

وتربّع سعيدان في الديوان، في مجلسه المخصص، والمعد بعناية، وسكنت النيران، وحل الهدوء، وبدأ المنشد ينشد أجمل القصائد، ويترنم بأعذب الأبيات ...

وعند الثامنة مساء، انطلقت ثلاث سيارات، منها سيارة بخيت، وسيارتي الشيخ، لنقل سعيدان إلى بيته، ثم تحركت لإحضار العروس،

ومع أن المسافة قريبة، ولا تستغرق عشر دقائق، إلا أن حركة السيارات بالعروس بطيئة، ولم تصل إلا عند العاشرة مساء...

***

وفي صباح الجمعة، وقبل شروق الشمس، وبينما جرير ينفض رفوف دكانه، بخرقة قصها وجعلها خيوطا، وربطها في رأس عصا طويلة، أقبلت سيارة بخيت ترج المكان رجاً، بصوتها النشاز، ترجل منها بخيت، ولم يطفئ محركها، وأقبل بشعر أشعث غير مرتب، وعيون متورمة من طول السهر،وفي يده رشاشه الكلاشنكوف، وكان في عجلة من أمره، وسلم على جرير وقال:

-يا مطوع أمي مريضة، في حالة خطرة، وسأسعفها إلى صنعاء، لكني أحتاج مالاً، فهل تقرضني، وخذ رشاشي رهنا عندك؟

وضع جرير كفه على عينيه، وأمسك بجبهته البارزة وقال:

- يا بخيت، لو جئتني بالأمس، كان لدي بعض النقود، أما اليوم فالخزنة فارغة، لكن إذا تريد أن تجرب لأمك خلطة، و لا تخبر بهذا أحد.. وقبل أن يكمل، انصرف بخيت، وهو يهمهم بكلام غير مفهوم.

وانطلق نحو بيت سعيدان، والذي خرج بملابسه الداخلية وإزار أزرق، والنوم يملأ عينيه، وباشر بخيت بالقول :

-خير يا ثور، ماهذا الإزعاج وطرق الباب والصياح، من صبح الله، حتى الدجاج لم تصحو بعد، هل نسيت أني عريس..قاطعه بخيت قائلاً:

-جئتك للضرورة القصوى، أمي مريضة، في حالة مزرية، وأحتاج مالاً؟

-كم تحتاج؟

-أقصى مبلغ تستطيعه، لأني سأسعفها إلى صنعاء.

-باقي معي عشرون ألفاً فقط، انتظر وسأجلبها...

أخذ من سعيدان المال، ثم أغلق نوافذ السيارة بإحكام، وقد كانت على ما يرام، فقد أصلحها قبل أيام، ولا يدخل الغبار إلا نادرا، و حمل أمه، وانطلق بها نحو صنعاء، لا يرى سوى الطريق، كيف يطويها بأسرع وقت، وأمه تعاني، معاناة شديدة، يغمى عليها حينا، وتئن وتتألم حينا آخر...

توقف عند أول مستشفى حكومي، وفي قسم طوارئ المستشفى، أخبروه بأن حالتها حرجة، ولا يوجد إخصائيون، ولابد من الذهاب إلى مستشفى الثورة، أو الجمهوري، فذهب الى الجمهوري، و أمه تعاني سكرات الموت في قسم الطوارئ، ولم تحظَ سوى بمغذية، غرزت في يدها اليسرى، من ممرضة وحيدة،وحين أقبل الطبيب، أخبره بأنه لا يوجد سرير شاغر، وبعد ساعتين من الألم والانتظار، جاءت الممرضة هامسة في أذن بخيت: أن يسرع بنقل أمه إلى مستشفى آخر...

وحمل أمه على ظهره، وقرر الذهاب إلى مستشفى الثورة، وأدخلها الطوارئ، وهي بين الحياة والموت، فتلقت من ممرضة مغذية جديدة، وتلقى الجواب نفسه، بأنه لا يوجد سرير، وزادت الممرضة بأنه لا يوجد طبيب، ولن يأتي إلا الساعة الثانية بعد الظهر، وبخيت يشاهد أطباء يدخلون ويخرجون، وكلما أمسك بأحدهم، يرد عليه: بأنه مشغول بحالات إطلاق رصاص، وآخر يرد: بأنه مشغول بحالة طعن بالجنبية، وبعد طول انتظار، وقد بلغت الساعة الثالثة عصرا، ولم يعد يرى في أمه سوى القفص الصدري، يصعد قليلا ويهبط، في حركة بطيئة، وعيونها مغمضة، ويداها

وقدماها لا تتحرك، جاءه أحد المرافقين لأحد المرضى، وقال له: إذا معك فلوس أنقذها إلى مستشفى خاص؟ صاح بخيت للممرضة أن تنزع المغذية،التي توقفت قطراتها...

وحمل أمه على ظهره،إلى السيارة، وانطلق إلى مستشفى خاص، وبدأت رحلة مختلفة، استقبله ممرضان وممرضة، وثلاثة أطباء، وكأنهم ينتظرون فريسة جديدة، وضعوها في سرير متحرك، وبدأوا يفحصونها، وأخذوا منها عينات دم للمختبر، ووضعوا المغذيات في كلتا يديها،وذهبوا بها إلى الأشعة، وبعد ربع ساعة قرروا أنها بحاجة الى عملية عاجلة، لاستئصال المرارة، وسيجرونها بالمنظار، وإلا فستموت، وعليه أن يسدد تكاليفها، قبل إجرائها، والتكلفة ثلاثمائة ألف ريال، أخرج بخيت كل ما في جيوب ثوبه وكوته، لكنها لم تكن سوى مائة و تسعون ألفا، فرد عليهم بأنه لا يملك غيرها الآن، اقترح عليه أحدهم برهن السيارة ليومين، سلمهم مفتاحها، وجاؤوه مسرعين بأوراق الموافقة ليوقعها، وأخبروه أن العملية بالمنظار، فوقع وبصم، وكل أمله، أن تتعافى أمه، خرجت من العملية، وقد فتحت عينيها، وبدأت تهمهم بكلمات، وكانت فرحة بخيت لا توصف، وبعد يومين أخبره الأطباء، بأنها بحاجة لعملية فتحٍ جراحية، لأن الإشاعات والتحاليل، أوضحت أن عملية المنظار لم تكن كافية، فوافق ووقع وبصم، وأخبروه بأن تكلفتها ثلاثمائة وخمسون ألفاً، وأصروا أن يكون المبلغ نقدا، وبخيت لا يدري ما يصنع، وجاءه اقتراح مسؤول الحسابات، أن يبيع سيارته، وماهي إلا لحظات، وجاء صاحب معرض للسيارات، وبعد قليل من المفاوضات، باعها بمليون ريال، ولم يقبض ريالا واحدا، فقد سُلم المبلغ للمستشفى، لتسديد ما مضى، وما سيأتي، وقبل أن يودع سيارته، أخرج منها الكلاشنكوف من خلف المقعد، وسلمه لحراسة المستشفى في البوابة.

ودخلت أمه غرفة العمليات ثانية، لتخرج في حالة أصعب من الأولى، فهي تشكو آلاماً مستمرة، في مكان العملية، والطبيب يؤكد أن المضاعفات بسبب استئصال الحصوات، والتي وضعوها في كيس صغير، بجوار سرير أمه، وبعد خمسة أيام، يتعفن الجرح وتصدر منه روائح نتنة، ويقرر الأطباء عملية جديدة، لتنظيف الجرح وتعقيمه، ويؤكدون بأنها خفيفة وسهلة، وستكلف مائتي ألف، ويوقع بخيت ويبصم، وتخرج منها أمه بحالة أفضل، وبعد خمسة أيام، يقرر الأطباء خروجها، وذهب بخيت للحسابات، لاستلام ما تبقى له، من قيمة السيارة، ليفاجئه المحاسب، بأن تكاليف العمليات والرقود والعلاج، مليون وثلاث مائة ألف ريال، ويجب عليه دفع مبلغ مائة وعشرة آلاف ريال، صعد بخيت إلى المدير، ولم يجد منه سوى التكشير، وبأن السعر المرسوم، بعد التخفيض المعلوم، وعاد الى المحاسب، الذي اقترح عليه ببيع الكلاشنكوف،فهز رأسه موافقاً، وماهي إلا دقائق، وأقبل تاجر السلاح الحاذق، وبعد مفاوضات طويلة، توقف السعر عند مائتي ألف ريال، فباعه بخيت وفي عينيه ألم، كأنما فارق حبيبا، وسلم للمحاسب ما عليه، وتبقى له تسعون ألفا..فاستأجر سيارة للعودة إلى القبيلة، وقبل أن تتحرك السيارة، لحق به طبيب وفي يده وصفة طبية، لأدوية ضرورية، خرج إلى صيدلية المستشفى، واشترى العلاج بعشرين ألفاً، وما إن صعد السيارة حتى أقبلت ممرضة، وفي يدها كيس، مليء بلفائف الشاش، وعلبة من اليود، شرحت لبخيت كيف ينظف الجرح،وكيف يغير الشاش كل يوم لأمه، وأن يضع لاصقا في أطرافه، وأن يعود بها بعد أسبوعين، إن لم يلتئم الجرح ...

18
بيت المقاول

وبعد أسبوعين كان جرح الأم قد التأم لكن جرح بخيت ينزف، وكل يوم يزداد ألما، فلم يفكر يوما أن يبيع سلاحه، وسيارته في وقت واحد، من أجل عملية بسيطة.. وكان بيع السلاح أشد ألما على قلبه وذاكرته.. وبينما الشمس تنبئ بوصولها، فاستقبلها بوجهه، ومد قدميه، وأسند ظهره لحائط منزله، وفي يده كوب من قهوة البن، وأقبل حميدان، راكبا فوق حماره، استوقفه بخيت، وسأله:

-إلى أين أنت ذاهب يا حميدان؟

اقترب حميدان، وكان يلبس، ثوبا أحمر، وعلى رأسه شال أحمر، وفي يده عصا رفيعة، ولم ينزل عن حماره وقال:

-إلى عند المطوع، أشتري بعض الأغراض، وأسأله عن أبي؟

وقف بخيت، واقترب من حميدان، وأمسك برأس الحمار، وقال:

-بيني وبينك، أنا أشك أن المطوع التقى بأبيك، وأكثر الناس تقول عنه أنه نصاب.

-ماهي مصلحته أن يكذب؟

-إذاً لماذا لم يتصل أبوك كل هذه الأشهر؟

- إحساسي وأمي وأخواتي أن أبي بخير، وربما ظروف منعته من الاتصال.. وتغير وجهه، ولم يعجبه تشكيك بخيت، وضرب بعصاه الرفيعة الحمار، وواصل سيره...

عاد بخيت لنفسه، وجرحه المؤلم، وذكرياته مع طاوي الليل، وتملكته فكرة امتلاك سيارة أخرى، وبعد صراع قصير، قرر العودة، إلى الطريق

الـذي هجـره، وظـن أنـه قـد اسـتغنى عنـه، تدحـرج بخيـت في الشـوارع الضيقـة، وتوقفت قدماه أمام مـنزل المقاول، لم تكـن سوى الأفكار، تتقاذف بعقلـه، ولم يسـتنهض التخطيـط لأي عمليـة، حـاول أن يدفع جسـمه المتماسـك، لكـن قـوة الدفـع للسرقـة حـاضرة، التـف حـول السـور لفـة واحـدة، اطمـأن لغيـاب العيـون، فتسـلق الجـدار، ودلـف إلى المـنزل بعـد أن كـسر إحـدى النوافـذ، وجـد منشـاراً كهربائيـا، فاكتـفى بحملـه ولفـه ببطانيـة بإحـكام، وأسرع للخـروج، وقـذف بـه مـن جدار الحـوش، إلى خلـف المـنزل، فإذا بباب المنزل ينفتـح، ويدخـل أحـدهم، تسـلق الجـدار مسرعـاً، وقـذف بنفسـه إلى الخـارج، وفـر بسرعـة، لكـن إحـدى نعـاله سـقطت، في حـوش المقـاول.. كان منـير قـد عـرف بخيت جيـدا، ولحقـه بنظراتـه، وتفقـد مـكان الهـروب، ليجـد المنشـار في الجـوار، سـليما ولم يصـب بأضرار، فأخـذه إلى المـنزل، وذهـب إلى الشـيخ جلمـود، وأخـبره الخـبر، وطلـب منـه الشـيخ ألا يحـدث أحـداً، وأرسـل مهياب وجرمـل لإحضار بخيـت، والـذي قـرر عـدم المواجهـة، وأقبـل كـزائر لا كمتهـم، وأقسـم للشـيخ: بأنهـا الحاجـة التـي دفعتـه، ويطلـب السـتر، ووعـده بألا يعـود، أودعـه الشـيخ السـجن، وهنـاك التـقى بثلاثـة سـجناء هم : خالـد والـذي جـاء بـه أبـوه ليقـضي عقوبـة سـجن طاعـة. ومريـس الـذي يقبـع فيـه بسـبب عـدم تسـديد ديـن عليـه، وثالـث مـن منطقـة بـني منصـور متهـم بقتـل ابـن عمـه، ولجـأ للشـيخ خوفـا مـن الثـأر، ومحاكمتـه مسـتمرة، عنـد القـاضي.

وبعـد غـروب الشـمس، طلـب الشـيخ إحضـار بخيـت، واختـلى بـه منفـردا، ووعـده بمسـاعدته، وأن يكـون حديثـه سراً بينهـما، لـن يعـرف بـه أحـد، وخـيره بـين خيـارين: إمـا السـجن وإمـا الاعـتراف الكامـل، اطمـأن بخيـت، وتذكـر أمـه، وحاجتهـا إليـه بعـد العمليـة، فقـذف بـكل أسرار السرقـات، دفعـة واحـدة، وعـدَّد للشـيخ السرقـات جميعهـا، مـن المـزارع، إلى البيـوت إلى السـيارات، وعـن علاقتـه وشراكتـه مـع طـاوي الليـل. أدرك الشـيخ صـدق بخيـت وصحـة كلامـه وتوصيفاتـه، فأطلـق سراحـه، بعـد تعهـد مكتـوب، وقعـه وبصـم عليـه ...

19
العودة

وبعد مرور أسبوع، وعند الساعة الثامنة من مساء يوم الأحد، سيارة مسرعة، تشق الطريق، توقظ سكون الليل، تبدد ظلمة المكان، صوتها يشكو سائقها، تفزع العصافير في أعشاشها، تخترق الوادي الأعلى، تسلك الطريق الواسع، تمر بجوار المزارع الممتدة، تصعد ربوة وتهبط أخرى، تتلوى في المنعطفات كثعبان صغير، لا تبطئ سرعتها حين تصادف ارتفاعا، ولا تتوقف حين تستضيفها حفرة، تجاوزت الوادي الأعلى، لتهبط نحو مجرى السيل الفاصل بين الواديين الأعلى والأسفل، انحدرت بسرعة جنونية.

مجرى السيل تكثر فيه الأحجار، وقبل أيام تمت تسويته بجرافة مخصصة للحراثة، تنفست السيارة في المجرى بسرعة أقل، ما لبثت أن عادت لمنوالها، صعدت بجنون، وبصوت أرعن، لتسلك طريقاً ضيقاً يخترق المزارع الممتدة، في الوادي الأسفل، أضواء عينيها الخارقة، تضيء مسافات طويلة، أشجار الرمان تستيقظ، غرسات العنب تترقب، شجيرات البن تراقب، أغصان القات تتمايل بطرب، جدران الممرات الترابية ترتجف، فزعاً وضعفا.

أدبرت السيارة بعد إقبالها، مودعة بثلاثة وردات حمراء لامعة، اخترقت الأزقة، لتختفي عن الأعين، وهدأ صوتها النشاز، عسعس الظلام ثانية، وفرد أجنحته، واسترخى الليل بسكون. كانت تتابعها ست عيون، تراقب ذلك الجنون، منذ لمعت أنوارها عند المدخل الجبلي إلى أن رجّت ما تحت أقدامهم.

التفت الشيخ جلمود إلى رفيقه وقال: هذه السيارة ليست من القبيلة، ولا أحد في العتمة يسوق بهذا العته، ثم استدرك قائلا: لكن السائق خبير

بالطرقات، ولولا معرفته بالممرات، لانقلب في بداية المنعطفات...

انطلق يا جرمل وآتني بالخبر، وكن على نباهة وحذر، فحالها لا يخلو من خطر، أمسك جرمل بسلاحه «الكلاشنكوف» ووضعه عل كتفه، والتفت إلى الشيخ وقال: سآتيك بالخبر اليقين.

أخرج كشافه الضوئي الصغير، وتدحرج من تلك الربوة، بخطى سريعة، يسابقه الفضول، وتسكنه الثقة، وسلك طريقاً مختصرة، بين الأحياء الغارقة في الظلام، وسمع صوتاً يلقي عليه السلام، التفت نحو الصوت بلا كلام، صوَّب كشافه إلى نافذة أحد المنازل، يتدلى منها رأس سعيدان، وعيناه الزرقاوان تلمعان كعيني قِطّ سُلط عليهما نور باهر، سأله: هل سمعت سيارة مرت من هنا ؟ أجابه سعيدان:

-ليست سيارة! بل صاروخاً! اهتز لها البيت، وصاحت لها الأغنام والأبقار والدجاج.

-هل عرفت أين اتجهت؟

-اتجهت هكذا وأشار إلى وسط المنازل.

واصل جرمل خطواته، وهاجمته ضحكة، كتمها مستعجلاً، وبعد أن تجاوز ثلاثة عشر منزلا، انعطف إلى اليمين، إلى الباحة الواسعة، التي يتخذها الشباب، ملعبا لكرة القدم، وألعاب الجري، وألعاب أخرى، سمع أحدا يتنحنح، كأنه ينبهه لوجوده، وجه ضوء مصباحه نحو الصوت، فإذا هو بخيت، سأله: هل رأيت أين توقفت السيارة الواصلة؟ اقترب بخيت منه ثلاث خطوات، وهمس كمن يذيع سرا:

- إنها توقفت هناك! وأشار بيده نحو نهاية الملعب.

-أين بالضبط؟

خفض صوته كثيراً واقترب أكثر حتى لامست شفتاه أذني جرمل وقال:

-إنها توقفت أمام منزل طاوي الليل!

تحرك جرمل نحو بيت طاوي الليل، تثاقلت الخطوات، كأنها تنتزع انتزاعا، تسارعت النبضات، كأنها جرس منبه، لم تكن المسافة بعيدة، كيلو متر واحد تقريبا، أخذ يحدث نفسه: أيكون طاوي الليل قد عاد؟ وكيف يعود وقد هلك؟ وقد مر على اختفائه أكثر من عام! لا، لا، ليس هو! بالتأكيد ليس هو! ربما ضيوف عند حميدان بن طاوي الليل، لكن ذلك المعتوه لا يعرف سوى حماره، ومنذ متى يأتيه ضيوف! من يكون إذاً؟ ربما أخوال حميدان! لكنه تذكر بأن خال حميدان الوحيد مات منذ زمن! ويستمر جرمل في حديثه مع نفسه مترقباً: من يتجرأ بمثل هذا الجنون، ويسوق بهذه الطريقة، في قبيلتنا الأبية...

تذكر أن الشيخ جلمود بانتظاره، استجمع قواه، سارع خطاه المرتعشة، وقف أمام منزل طاوي الليل الذي يتألف من طابقين، وحوش يتسع لخمس سيارات، المجلس في الطابق الثاني مضاء بفانوس، أصوات وضحكات عالية، قطعها نهيق حمار حميدان، كانت السيارة رابضة أمام المنزل، تويوتا لاند كروزر بيضاء، تبدو جديدة، وموديلها حديث.. أدرك حميدان أن حماره رأى شيئا غريبا، خرج مسرعاً، في يمناه عصاه، اطمأن على حماره، وفتح بهدوء باب الحوش وخرج.

كان جرمل يدور حول السيارة، وقد أطفأ مصباحه، يبحث عن شجاعة لطرق الباب، كادت عصا حميدان تفلق رأسه، لولا أن تداركها بقفزة سريعة...أشعل مصباحه الضوئي وصاح في وجه حميدان:

- تمهل! أنا جرمل مرافق الشيخ جلمود ...

-آسف آسف، لعلك جئت تسأل عن السيارة وصاحبها؟

-نعم جئت لهذا السبب وهذا عملي.

أجابه حميدان بفرحة غامرة:

-تفضل يا جرمل، تفضل، مفاجأة لا تتخيلها!

رد عليه جرمل وقد بدأت الأحرف تتعثر في بعضها:

-أخبر، أخبرن، أخبرني لمن السيارة؟ ومن زاركم؟

أمسكه حميدان بيده بقوه، وأدخله، إلى المجلس «الديوان» ...

***

عاد المرافق جرمل وأنفاسه تتلاحق صفير في شهيقه، ورذاذ في الزفير، أمسك بيده الشيخ جلمود وقال له: اجلس، ارتاح، لا تتكلم، حتى تأخذ أنفاسك، فطريق الصعود مجهد ....

انتظمت أنفاسه، أمسك رأسه بكلتا يديه وقال:

-إنه طاوي الليل يا شيخ؟ ومعه ثلاثة ليسوا من القبيلة، وأشكالهم غريبة ومريبة.... ويقاطعه الشيخ جلمود قائلا:

-هل أنت متأكد أنه طاوي الليل؟

-نعم متأكد، فلقد التقيت به، وهو كما هو لم يتغير، إلا أنه لم يعد ضخم الجثة...

كان الخبر كابوساً، ومزعجاً للشيخ، خاصة بعد اعتراف بخيت، لكنه من غير المعقول، إيداع طاوي الليل السجن، بعد غيابه الطويل، وربما تاب من أفعاله، وعاد بصورة جديدة، وجَّهَ الشيخ أوامره لجرمل بألا ينام، وأن يراقب السيارة إن تحركت...

وقبل بزوغ الفجر، انطلق طاوي والثلاثة الذين معه، تحت جناح الظلام، بسرعة معقولة، وعينا جرمل المحمرتين، تراقب باهتمام، لحقها بنظراته، متتبعاً ضوءها، حيث اتجهت شرقا، وبعدها اختفت عن ناظريه.

وصلت السيارة، إلى ورشة التاجر أبو ناهل، في منطقة بني شامخ، والشمس ما تزال في قمم الجبال، استقبلهم أبو ناهل، ودار حول السيارة، وأمعن النظر، ثم دار بينهم حديث مختصر، وبخس ثمنها إلى النصف، و لم يسأل كعادته، عن أوراقها، أو ملكيتها، ويتعامل بلا أوراق ولا وثائق، وافق طاوي على الثمن، وقبل أن يجلب التاجر النقود، أشار إلى عماله في الورشة، بتشليح السيارة بأسرع وقت، أخرج التاجر ثلاثة ملايين من كيس جلبه من الداخل، ودفعها إلى طاوي الليل، والذي بدوره طلب منه سيارة تويوتا «شاص».. أشار التاجر إلى سيارة، كانت ما تزال مغلفة بأوراق كرتونية، وحين رأى استغراب طاوي، أخبره بأنها جاهزة، وتغليفها لتغيير اللون فقط، أزال العمال تلك الأوراق، وبدت بثوبها الأحمر الجديد، كأنها وردة تفتحت للتو، وطلب فيها مليوناً ونصف ريال، وبلا نقاش ولا جدال، دفع طاوي المبلغ وأخذ مفتاحها، وودع التاجر، واندس الثلاثة متزاحمين، في المقصورة بجواره، وأوصلهم إلى الخط العام، عند أطراف القبيلة، ووضع في جيب كل واحد منهم مائة ألف ريال، وحدّد لهم موعداً بعد أسبوع، في نفس المكان والزمان.

وعاد طاوي إلى القبيلة، ولم يتوقف إلا عند باب منزل الشيخ جلمود، وقد أصبحت الشمس في كبد السماء، استقبله الشيخ ورحب به، وحين رآه يلبس ثوباً أسود، وكوتاً أسود، وعلى رأسه شال أسود، عزَّاه في موت أمه، التي ماتت في غيابه، وسأله الشيخ عن أخيه زوكان، هل وجده، فأجاب بالنفي، ولم يَطُل حديثهما، فقد تعلل طاوي بأن الوقت غير مناسب، والأيام قادمة، للحديث المستفيض، عن رحلته للسعودية...

وودعـه ومـضى، وفي طريقـه توقـف عنـد دكان المطـوع جـرير، وتعانقـا بحـرارة، وسـأله كسـؤال الشـيخ، وأجابـه بالإجابـة نفسـها، وودعـه وغـادر.

وعَـرَّج عـلى مـنزل بخيـت، وخـرج إليـه وتعانقـا، وسـأله عـن سـيارته، فأخـبره بخيـت بأنـه باعهـا، لمـرض ألمَّ بأمـه، وقـد أنفـق قيمتهـا، في علاجهـا، فأخـرج طـاوي مـن كيـس قماشي صغـير مائـة ألـف ريال، ووضعهـا في جيـب بخيـت، فـكادت دموعـه تتسـاقط، ليـس امتنانـاً بالعطيـة، بـل خجلاً مـن اعترافه بالسرقـات، وفضـح طـاوي أيضـا، فقـد كان يظـن موتـه، كما ظـن ذلـك الكثـير، ولم يسـأله كما سـأله كل مـن صادفـه، عـن أخيـه زوكان وهـل لقيـه؟ ودّعـه طـاوي وذهـب إلى مـنزله، ليجـد زوجتـه عشـبة قـد ذبحـت خروفـا صغـيرا، وعلقتـه في حـوش المـنزل، وحميـدان يسـاعدها.. وقـف يتأملهـا وهـي تقطعـه، كجـزار ماهـر، وهـي تتأمـله كمولـود جديـد، أخرجـت كبـد الخـروف، وقطتـه إلى قطـع صغـيرة، في راحـة يدهـا، ورشـت عليـه بعـض الملـح، والبهـارات، كانـت في وعـاءين صغـيرين بجوارهـا، وقدمتهـا في صحـن صغـير، إلى زوجهـا وابنهـا، وابنتيهـا الـلائي حـضرتا، وتجمعتـا حـول أبيهمـا، وقـد أسـند ظهـره لجدار الحـوش، تحـت ظـل قصـير، أخـذ كل منهـم قطعـة وأكلهـا، وتبقـت ثـلاث قطـع أكلهـا طـاوي، وبينما الصمـت يسـود الأجـواء، إلا مـن صـوت السـكين الـتي شـارفت عـلى الانتهـاء، ونظـرات الترحيـب المنزوعـة مـن الداخـل، والمليئـة بالاشـتياق، تتجـول في أعـين الأم وابنتيهـا وابنهـا. سـأل طـاوي زوجتـه: متـى يجهـز الغـداء، فالوقـت أصبـح متأخـراً؟ وأجابتـه بلغـة الواثـق: بعـد سـاعة مـن الآن سـيكون جاهـزا.

أصبـح الخـروف مقطعـا، في الصحـن الكبـير، وبعـد أن عزلـت منـه كميـة لغـداء اليـوم، وكميـة قسّـمتها في خمسـة أكيـاس صغـيرة، ووضعـت الـرأس في كيـس سـادس، والرقبـة في كيـس سـابع، وبـدأت عشـبة بتقطيـع بقيـة اللحـم إلى سلسـلة طويـلة، تحمـل قطعـا صغـيرة، وكأنهـا عقـد مـن الخـرز الكبـير،

واستمرت بهذا التقطيع، حتى انتهت، ثم رشته بكمية ملح كبيرة، وحملته إلى مخزن مغلق، وعلقته في حبال مثبتة، حتى يجف، ثم يستهلك وقت الحاجة، وأغلقت المخزن بإحكام، وعادت لتكلف حميدان، بتوزيع الأكياس للجيران، بعد أن ربطتها جيداً، ووضعتها في شوالٍ أبيض، وأوصته أن هذا لبيت فلان وهذا لبيت فلان، وحملت لحمة اليوم، ودخلت المنزل تسابق الزمن لتطبخها.

تحول طاوي ببصره إلى حميدان وقال له: بعد أن توزع الأكياس، أريدك أن تذهب إلى بخيت، وتدعوه للغداء عندنا، وقبل أن ينهض طاوي ليصعد الديوان، ليأخذ غفوة قبل الغداء، إذا بسيارة تتوقف أمام المنزل، نظر حميدان من شقوق في الباب، وأخبر أباه أنها سيارة هايلوكس «غمارتين» صفراء، ولابد أنه المطوع جرير المقص، خرج طاوي واستقبله، وكان جرير يريد حديثاً طويلاً، يسعى من خلاله إلى قلب طاوي، قبل أن يتمكن منه غيره، وطاوي يتثاءب ويتثاقل في الجواب، وحين رأى إصراره، دعاه للغداء وحدد له الساعة الثانية ظهرا، قَبِل جرير الدعوة وغادر، ودخل طاوي منزله، واستلقى على فرش عار من الإسفنج، ووضع تحت رأسه مخدة صغيرة، والتفت حول رأسه ابنتاه، حتى غفى ونام...

***

كان بخيت في ديوان منزله يتألم، وقد وضع النقود أمامه، واتكأ على وسادة محشوة بثياب بالية، ويده اليسرى تشد في أنفه العريض، يتساءل كيف طاوعه لسانه، لفضح طاوي الليل، الذي كان وما يزال كريما معه، ويعاتب نفسه كثيرا، ويسائلها في مرارة: ماذا كان سيتغير، لو أني اعترفت بالحادثة الأخيرة فقط، وماذا لو أني اعترفت بالحوادث السابقة، بدون ذكر طاوي الليل. وأمضى يقلب أفكاره، عن ردة فعل الشيخ جلمود،

وهـل سـيحبس طـاوي؟ أم سيسـتر عليـه؟ ومـاذا لـو أَخـبره الشـيخ، كيـف سـيتصرف طـاوي معـه؟ ويتسـاءل وقـد بلـغ بـه الضيـق مـداه: هـل أُخْـبِرُ طـاوي بالأمـر؟ أم أسـكت ولـكل حـادث حديـث؟ لابـد أن أخـبره، لـكي يأخذ حِذره، ويعـرف أنـه تحت الرقابة، وألا يتسرع في سرقة جديدة، وبينما تتجـدد أفـكاره، وتمـوج بـه خيالاتـه، إذا بصـوت يناديـه... أخـرج رأسـه مـن نافـذة مفتوحـة، تـكاد تتسـع لرأسـه، وإذا بـه حميـدان يدعـوه للغـداء بعـد سـاعة، لـبى الدعـوة بـكل سرور، وأدخـل رأسـه، وبـدأ يعـد النقـود...

وعنـد الثانيـة ظهـراً لبـس بخيـت ثوبـه الرمـادي، واعتمـر شـاله البـني عـلى رأسـه، ولـف حزامـه وجنبيتـه الصفـراء عـلى خـصره، ولبـس «كوتـه» الأسـود، وخـرج يتدحـرج سريعـا، وبينما أصبـح في منتصـف الطريـق، أقبـل جـرير المقـص بسيارته، وتوقـف بجـواره يسـأله: أين سـيذهب؟ فأجابـه: بيـت طـاوي الليـل. فضحـك جـرير وقـال: لابـد أنـك معـزوم، اركـب. وركـب بخيـت مكرهـاً...

واسـتقبلهما طـاوي بترحـاب، ووجـد بخيـت نفسـه مكبـلاً، فـلم يعـد بمقدوره قـول مـا يريـد، ووجـد جـرير نفسـه مكبـلاً أيضـاً، فوجـود بخيـت غـيَّر مجـرى الحديـث، فاسترسـل في وصـف مـا يصلـه مـن طعـام، وأمـضى كثـيراً مـن الوقـت، يمتـدح المـرق، وحكمـة النسـاء في صنعـه، ولذتـه وفوائـده، وكم هـو مـليء فالفيتامينـات والبروتينـات، وذكـر قصـة أحـد المشـاهير في السـابقين: والـذي كان يأكل أطيـب اللحـوم، ويـترك لخادمـه المـرق، فـإذا بالخـادم يسـمن جسـمه، وتمتـلئ خـدوده، وصاحبنـا عـلى حـاله، أقـرب للهـزال منـه إلى السـمنة، فقـرر مبـادلة الأدوار، وألـزم الخـادم بأكل اللحـم، واكتـفى بـشرب المـرق، وبعـد مـرور أيام، إذا بـه يسـمن، وإذا بالخـادم يهـزل...

وهكـذا أمـضى جـرير الوقـت في أحاديـث كثـيرة، ولم يـترك لبخيـت أي

مشـاركة، وهـو لا يـدري أن مـا يشـغل بخيـت ليس مـا يشـغله. فجـرير المقـص لا يريـد لطـاوي أن يتشـبع بقصـص القبيـلة، ومـا حـدث فيها، خاصـة في أمـر دكانـه، وخـبر خلطاتـه، وبغـض الكثير له، ويريـد أن يكـون له السـبق، في مـلء ذاكـرة طـاوي، بالصـورة التـي تحفـظ له مكانتـه، وتجعـله قريبـا مقـربا، لا غـريبـا متهمـا ...

وبعـد انتهـاء الغـداء، أخبرهمـا طـاوي برغبتـه في المقيـل، في ديـوان الشـيخ، لأن الكثـير مـن النـاس، يسـألونه عـن أخيـه السـؤال نفسـه، وهنـاك سـيجدها فرصـة للحديـث إلى النـاس كافـة، تحـرك جـرير المقـص بسـيارته، بعـد أن ألح على بخيت بأن يركـب معـه، لكنـه اعتـذر، وأخبره بأنـه سيركب مع طـاوي، وخـرج جـرير وركـب سـيارته، ولم يتحـرك، وجـاء حميـدان ودسّ في جيـب أبيـه كيسـاً مـن «القـات»، قـد أعـده مسـبقاً، وانتقـاه بعنايـة، وغسـله بالمـاء مـع الملـح، ونشـفه جيـداً، وخـرج طـاوي ولم يغـير ثيـاب الحـزن السـوداء، وتدحـرج في الـدرج إلى الأسـفل، وبخيـت أمامـه، وتفاجـأ بوجـود جـرير، وأقبـل إليـه، فأخـرج جـرير علبـة صغـيرة، مـن دهـن العـود، نزع غطاءهـا الملتصـق بعـود، ودهـنَ بـه يـدي طـاوي وبخيـت، وأخبرهمـا بأنـه سـيلحقهما، وتحـرك طـاوي، بينـما بخيـت يتعـارك مـع نفسـه، ولم تتحـرك الأحـرف في لسـانه، ويريـد أن يخبره الخبر، لكـن روح جـرير حـاضرة، وكلـما التفـت رآه خلفهـم، يُلَـوِّحُ بيـده، فيؤجـل الحديـث، وبينـما طـاوي يحدثـه، كان مشـغولا وشـاردا، ويكـرر عليـه الطلـب بإلحـاح، إن كان شيء يضايقـه، أو أنـه يحتـاج إلى نقـود أكـثر، فيهـز بخيـت رأسـه بالنـفي، وقـد أطـرق بنظـره إلى أقدامـه، ووجـد جسـمه يتقافـز فـوق المقعـد، فرفـع بصره،فإذا بالسـيارة تصعـد الربـوة، الـتي يسـتقر عليهـا مـنزل الشـيخ، وقبـل أن تتوقـف السـيارة، أمسـك بيـد طـاوي الليـل، وقـد ذرفـت عينـاه بدمعتـين وقـال: سـامحني، يا طـاوي. وأقبـل جـرير نحوهمـا، وقـد ترجـل مـن سـيارته، وقبـل أن يصـل التفـت إليـه طـاوي

وقال: ادخل وسنلحق بك الآن، والتفت إلى بخيت وقد أمسك بكتفه وقال: أخبرني، ماذا هناك؟ فأجابه: سأخبرك الحكاية باختصار، وقصّ عليه بعض التفاصيل، وبعد أن أنهى الحكاية، أمسك طاوي برأسه، وفكر قليلا ثم التفت إلى بخيت، ورماه بنظرة مستبدة وقال: لا تخبر أحدا أنك أخبرتني، واترك الباقي للزمن...

وخرجا من السيارة، وجرير منتظر لهما، تحت ظل البوابة، فدفع ببخيت أن يدخل مع جرير، وتظاهر بنسيان شيء ما في السيارة، ولم ينسَ شيئاً، لكنه أحب ألا يدخل ومعه بخيت، لكي لا يظن الشيخ أن بخيت أخبره، ومكث في سيارته بضع دقائق، ثم صعد الدرج إلى الديوان ...

كان طاوي قد أعد لهذه المناسبة، قصصا طريفة، وحكايات مسلية، منذ غادر القبيلة حتى مجيئه، لكن خبر بخيت قد غير مزاجه وعكر أفكاره، وألبسه ثوب الكدر، فقرر أن يوجز ويختصر...

كان ديوان الشيخ جلمود، مفتوحا للمقيل كل يوم، وتناقش فيه قضايا القبيلة، ويمضي فيه الكثير أوقاتاً رائعة، فلا يخلو «الديوان» من زوار، سواء من مناطق القبيلة الخمس، أو من قبائل مجاورة، ويأتي البعض للشيخ لحل مشكلة، أو لطلب حاجة، ويأتي الكثير للاستماع، ويناقش الشيخ زواره، وضيوفه بشفافية عالية، وعلى مسمع ومرأى من الجميع، إلا حين يكون في الأمر ضرورة، فيختلي بالشخص أو الأشخاص، في غرفة مجاورة، وما يميز ديوان الشيخ، أنه كبير جداً، وبجواره حمام واسع، ومياهه لا تنقطع، حيث خزانات الشيخ تملأ مباشرة من البئر السفلى.

وكان خبر طاوي الليل قد انتشر كالنار في الهشيم، وعَلِمَ الكثير بوجوده في بيت الشيخ، فأقبلوا جماعاتٍ و أفراداً، والبعض منهم يذهب لبيته، فيقابلهم حميدان، ويخبرهم بوجهة أبيه، وكلما دخل أحدهم الديوان، سلم

على الجميع وقال «السلام تحية» إلا طاوي الليل، وُيْقِبلُ إليه للمصافحة...

امتلأ ثلثا الديوان، منهم من يستمع للمتحدث، والبعض يتحدث همساً للذي بجواره، بانتظار الخبر الأهم، والحديث الملهم، عن طاوي ورحلته.

كان طاوي في أعلى الديوان، يقابله الشيخ والقاضي، ويجاوره المطوع جرير وبخيت.. لم يكن أحد يتناول «القات» إلا عدد قليل، لا يتجاوز العشرة، منهم طاوي، والشيخ والقاضي، وبعد ساعة ساد الهدوء، وشارفت الأحاديث الجانبية على الانتهاء، رفع الشيخ يده، وأشار إلى طاوي وقال: الآن نريد أن نسمع منك خبرك يا طاوي الليل؟

صمت جميع الحاضرين، وكأن على رؤوسهم الطير، وكانت هناك «دبة» صغيرة، تربض أمام طاوي، سعتها عشرة لترات، قد أُلبست قطعة قماش سميكة، ورشت بالماء لتبقى باردة، ملأ منها كأسا وشربه وقال:

الخبر يا جماعة، كل خير، فقد ذهبت للبحث عن أخي زوكان في السعودية، وتنقلت في أماكن كثيرة، لكني لم أعثر عليه، وأطلب منكم الدعاء.

توقع الكثير بأن يسرد لهم تفاصل رحلته، وما وجد فيها من مشقة وصعاب... لكن أحدا لم يسأله أو يناقشه، فقد اكتفى الجميع برفع الأيدي بدعاء صامت، وأتبعوه بحوار خافت، ولم تمر عشر دقائق، حتى نهض طاوي، واستأذن الجميع، وغادر الديوان، ولحق به جرير المقص، وقبل أن يتحرك بسيارته الشاص الحمراء، أقبل إليه جرير، يهرول كإطار انفصل عن شاحنة، أخبره بحاجته للحديث معه في أمور لا تقال في العراء، واتفقا أن يتوقفا عند منزل جرير، لاحقه جرير بسيارته الصفراء، كعنزة تلاحق لبؤة، وكاد الغبار المتطاير من سيارة طاوي وسرعته يودي بحياة

جـرير، حـتى خـرج عـن الطريـق، وأوشـك يقـع في أخـدود عميـق...

توقفت السيارتان، وجـرير في عجلة مـن أمـره، أدخـل طـاوي إلى ديوانـه، ورحـب بـه، وفـرش بطانيـة جديـدة، خرجـت مـن كيسهـا للتـو، وقـرب له المـاء، في دبـة مغلفـة، إلا أن كسـوتها يابسـة، ولم تبلـل بالمـاء، فـكان ماؤهـا معتـدلاً، اتـكأ طـاوي وأسـند ظهـره، وأخـرج أوراق القـات مـن كيسـه، وبـدأ يلـقي بهـا في فمـه، فيطحنهـا تحـت فكـه، وأصبـح خـده الأيـسر كـرأس الهِـرْ، منتظـرا مـا يلـقى عـلى أذنيـه، مـن أخبـار وحـكايات، قـد اسـتعد لحلوهـا والمُـر، ولم يعـد يكـترث لـشيء أو يتوقـع أكـثر، فقـد ماتـت أمـه، واختـفى أخـوه، وانكشـفت سـيرته، ومـا عـسى المُضيـف أن يضيـف، تنحنـح جـرير ثـلاث مـرات، وحَـرَف شـاله الملفـوف فـوق رأسـه، حـتى غـدا الذيـل يداعـب أذنـه اليـسرى، وحـدق في وجـه طـاوي، كأنـه يـراه لأول مـرة، فاتحـا عينيـه، رافعـاً حاجبيـه، وقـد أمسـكت يـده اليمـنى ركبـة طـاوي، وقـال:

-اسمع يا طـاوي، حـال القبيـلة لا يَسُر، فالنـاس مهمـلة، والمصالح منعدمـة، والمتحـكم فيهـا هـو الشـيخ والقـاضي.

-أنا أعرف هذه الأمور، لكن ماذا نفعل، ما هو المطلوب؟

-النـاس تتـكلم، فـيما لا يعنيهـا، وقـد قالـوا فيـك إشـاعات كثيرة، والشـيخ والقـاضي يكرهونـك، واسـودت وجوههـم لمجيئـك.

-ادخل في الموضوع.

-أنـت مظلـوم، وأنا مظلـوم، وقـد سمعـت عـن شجاعتـك، ورجولتـك... ليقاطعـه طـاوي قائـلا:

-طيب، ادخل في الموضوع يا مطوع.

-أريـدك تضع يـدك بيـدي، وأنا صاحـب حكمـة، وعـلم، وحـلم، وخلـق، ودين.

-أنا معـك، لكـني مواطـن بسـيط، فلسـت بشـيخ، ولا حـتى عاقـل ولا تعلمـت.

- قف بجانبي، وأقف بجانبك، ولا تصدق عني أي إشاعات...

اتفقـا عـلى التحالـف، وأن يسـاند بعضهـما بعضـاً، لكـن طـاوي لا يعـرف شـيئا، ولم يهـتم للتفاصيـل كثـيرا، ولم يكـن اللقـاء إلا جـبرا للخواطـر، فـلم يتحـدث جـرير عـن الإشـاعات، ولم يبرهـن عـلى كلامـه بالـدلالات، ولم يتحدث إلا عـن نفسـه وحسـد النـاس له، وكيـف منعـوه مـن الخطابة. خـرج طـاوي مـن عنـده، وقـد شـارفت الشـمس عـلى الغـروب، ومـا إن وصـل أمـام مـنزله، إلا وبخيـت وسـعيدان بانتظـاره.. دعاهمـا للدخـول فاعتـذرا، وطلبـا حديثـا مختصرا؛ فأمـا بخيـت فقـد كـرر اعتـذاره بشـدة وحرقـة، ولم يُبـدِ سـعيدان اسـتغرابه، فقـد احتمـل سـبب الاعتـذار، دينـاً متأخـراً، أو قـولاً متهـوراً، مما يشـتهر بـه بخيـت، ثم تحـدث سـعيدان مشـبها جـرير بالشـيطان، وحـذره منـه أشـد الحـذر، فقـد يوقعـه أردى الخطـر، وقـد يلبسـه ثيـاب الفقـر، وحدثـه عـن قصتـه معـه، وكيـف سـلبه حـلاله ودكانـه، وأخـبره بقصـة خلطاتـه الفاسـدة، وادعائـه المعرفـة الكاذبـة، وطـاوي يهـز رأسـه، ضاحـكاً مـرة، ومسـتغرباً أخـرى، وبسرعـة غـير الموضـوع، وبارك لسـعيدان عـلى الـزواج، وأخـرج ربطـة مـن النقـود، ودسهـا في جيبـه، وهـو يقـول: هديـة متأخـرة، ضحـك سـعيدان وقـال: بـل في وقتهـا حـاضرة ...

20
النّهب

وبعد مرور أسبوع كامل، وفي صباح يوم الاثنين، والشمس تُقبِّل هامات الأشجار، وتنشر حنانها الدافئ على أسطح المنازل، انطلق طاوي بسيارته «الشاص» الحمراء، وتوقف بجوار منزل بخيت، الذي خرج مسرعاً، وقد لف على خصره حزامه الأحمر، وجنبيته الصفراء، وغرز مسدسه، واعتمر شاله البني، وركب بجواره في المقعد الأمامي، واستغرب طاوي، حين لم يرَ رشاش بخيت، وقلب باطن يديه، وسأله عن رشاشه، فأجابه بخيت بأنه باعه، في علاج أمه، ضرب طاوي على كتفه بيده، ووعده برشاش جديد، غداً الثلاثاء حين يفتح السوق أبوابه، ومضيا في الطريق، وصادفا مجموعة من الحمير، تحمل الماء في قربٍ سوداء، مصنوعة من الجلد ومن بقايا إطارات السيارات، توجههن فتيات صغار، ونساء يحملن الماء فوق رؤوسهن، في أوانٍ معدنية، من خزان البئر السفلى، وكانت حمامة ابنة الثالثة عشرة ربيعا تحمل على رأسها وعاءً مليئاً بالماء، ورمانة التي تصغرها بعامين تسوق الحمار وعليه قِربتان، وعينا بخيت تلاحق خلسةً حمامة، بينما طاوي يصارع الطريق أمامه..

***

وكان في بني وعلان ثلاث آبار سطحية، واحدة منها غار ماؤها، وتسمى بئر «الفيران»، واثنتان يرتفع مستوى الماء فيهما، حين تكثر الأمطار، ويهبط حين تحبس السماء، إحداهما تسمى البئر «العليا»، وهي بالفعل عن المنازل بعيدة، وفوهتها خطرة وزلقة، والأخرى تسمى «السفلى»، وكانت قريبة من المنازل، وبجوارها خزان للماء، ومضخة لملء الخزان، بُني لها غرفة صغيرة مغلقة، وفي الخزان خمسة صنابير، ويُملأ كل خمسة أيام، وقد وكَّلَ الشيخ لهذه المهمة: مهياب، وحين تتعطل المضخة تقوم

النساء بإخراج الماء بواسطة الدِّلاء، من فم البئر المكشوف المرصوص بحجارة كبيرة وبطريقة متقنة. وكان جلب الماء بهذه الحالة شديد العناء...

وبيتا الشيخ والقاضي هما الاستثناء، فلديهما خزانات حديدية، يتم ملؤها بسيارة الشيخ «الوايت»، والتي صُممت لحمل الماء... وفي بني وعلان بئران ارتوازيان، مخصصتان لسقي المزارع، واحدة منهما في الوادي الأعلى، والثانية في الوادي الأسفل، وقد كان طعم الماء فيهما يختلف كثيرا عن الآبار السطحية، والتي تتميز بعذوبة مياهها، وصفائه ونقائه.

كان بخيت يرافق بلا سؤال، وينفذ بلا جدال، إلا أنه هذه المرة تمالك أمره، والتفت إلى طاوي، وأخبره بأنه طلق السرقة، حتى لا يكشف الشيخ سره، ويفضحه في القبيلة، ضحك طاوي، وكاد يصطدم بحجر إلا أنه توقف فجأة، ونظر إلى بخيت وأدخل يده تحت شاله، وأمسك شعره بقوة، وقال: بأن الأمس ولى إلى غير رجعة، ولن يعود ذلك الزمان، الذي كانا يسرقان فيه الرمان، أو مسجلات السيارات، أو البالي من الإطارات، أو المتهالك من البطاريات، وأن اليوم تجددت فيه الخبرات، وتطورت فيه المهارات، وأخبره بأن طاوي الأمس، مات بنجد في الحبس.

وهنا عرف بخيت، بأن طاوي سُجِن في السعودية، لكنه لا يسأل أسئلة تفصيلية، ويكتفي بهذا الإطار، وترك لطاوي حبل الكلام والأفكار، ويواصل طاوي شطحاته، ويده اليمنى في شعر صديقه، أخرجها وقد امتزجت بالزيت، ومسح بها وجه بخيت، ثم أمسك طاوي «بسكسوكته» وقال: أريد فقط بعض الرجال. وهنا انتفض بخيت، وأخبره أنهم جاهزون، ولأي مخاطر حاضرون. استغرب طاوي وطلب منه أن يعدد له بعض الأسماء! فذكر له: خالد ومريس وسعيدان، وأخبره بأن خالد ومريس محبوسان، ونكسبهما إن كان بالإمكان تسديد دين مريس، وإرضاء والد خالد...

تهلل وجه طاوي، وضغط دواسة البنزين، وانطلق يسابق الريح، حتى وصلا أطراف القبيلة، حيث ينام الخط العام، وطلب من بخيت ألا يسأل وألا يتدخل، وبخيت كذلك بالأصل.

توقف طاوي، واقتربت منه سيارة هايلوكس «غمارتين» خضراء اللون، يركبها ثلاثة مسلحين، ليسوا من القبيلة، ثم انطلقت، بعد أن نزل أحدهم، وركب بجوار بخيت، وقال موجها حديثه لطاوي: سيارة تويوتا كروزر سوداء جديدة يقودها شخص يلبس شالاً أحمرَ، وثوباً أبيضَ، غير مسلح. ولم يجبه طاوي إلا بكلمة واحدة: «عُلِمْ».

وانطلق طاوي في الخط العام إلى مسافة بعيدة، هي أبعد مكان في أطراف القبيلة، تقع على جبل مرتفع، ترى منه القادم من مسافة بعيدة، وتوقف هناك، بعد أن جعل السيارة بشكل عرضي، ونزل الأشعث الغريب، ليصعد صخرة قريبة، وبعد حوالي الساعة، صاح قائلاً: قدِّمها قدِّمها. فحرك طاوي السيارة ليقطع الطريق تماما، ونزل الغريب، واتخذا وضعية الهجوم، ووجها سلاحيهما للسيارة السوداء القادمة..

توقف صاحبها، سألهما ماذا يريدان، طلبا منه النزول للتفتيش، فنزل ومعه زوجته، فتشا الحقائب، وجدا مبلغ مليون ريال، أخذاه ورميا الحقائب في الطريق، وطلبا منه مفتاح السيارة، فرفض، ثم صوبا السلاح إلى وجهه، فصاحت زوجته باكية: أعطهم المفتاح، كي لا يقتلوك. أخذ طاوي المفتاح وأعطاه الغريب، فانطلق بالسيارة كالصاروخ، ولحق به طاوي، والمليون في يده، وبجانبه بخيت، وماهي إلا لحظات حتى أقبلت السيارة الهايلوكس «الغمارتين» الخضراء، يركبها مسلحان، توقفت بجوار الرجل المنكوب، وزوجته الباكية، وسألاهما عن السبب، وطلبا من الزوج وزوجته أن يركبا، حتى يوصلاهما إلى أطراف صنعاء، وفي الطريق حذرا الزوج من أن يبحث عن سيارته، وأخبراه بأن المنطقة

غير آمنة، وعصابة اللصوص مجرمة، ولم تستطع ضبطهم دولة ولا قبيلة، وعليه أن يحمد الله أنهم لم يقتلوه، فكم قتلوا من أبرياء، والسيارة تعوض، والمال يعوض، وتعاطفا معه بألسنة حداد، مع أنهم ذيل العصابة، وأنزلاه عند أقرب فرزة للسيارات، وسلماه مبلغ عشرة آلاف ريال، ورفض أن يأخذها، إلا أن يأخذ أرقامهما، فأخبراه أنهما لا يمتلكان تلفونات، ولا توجد تغطية في القبيلة، وما فعلاه معه إنما لوجه الله، أخذها ودموع الشكر والامتنان، تجرف دموع القهر والامتهان، وودعهما قائلا: إن كان الشر موجوداً، فالخير كذلك يملأ الوجود.

توقف الغريب عند نقطة الانطلاق، ولحق به طاوي يرافقه بخيت، وطلب منه أن يسير وراءهما، وانطلقا إلى ورشة (أبو ناهل) في بني شامخ، والذي استقبلهم بترحاب، ولف حول السيارة السوداء لفة واحدة، وبدون أي حوار، سلم لطاوي ثلاثة ملايين ريال، ووجه عماله: بتعديلها، وتغيير لونها، استلم طاوي المبلغ ولم يعده، ومضى بسيارته، وبجانبه بخيت، ومعهما الغريب، حتى أوصلاه إلى نقطة الانطلاق، وكانت بانتظاره الهايلوكس الخضراء، دفع لهم طاوي بمليون ريال، وودعهم وعاد ومعه بخيت إلى القبيلة، وأنزله بباب منزله، وضرب له موعداً صباح الغد...

وقبيل مغيب شمس الاثنين، انطلق طاوي الليل إلى ديوان الشيخ جلمود، وكان مليئاً بزوار من منطقة بني علي، وطلب منه كلمة على انفراد، بشأن إطلاق سراح مريس، وسيتكفل بدفع دينه، محتسبا الأجر إلى روح والدته، رحب الشيخ كثيرا بالمبادرة، واستلم من طاوي مائة وخمسين ألف ريال، ونزل معه في الحال إلى السجن، وأمر مهياب بفتح الباب، وخرج مريس ويده بيد طاوي، ثم أوصله إلى باب داره، ودسّ في جيبه خمسين ألف ريال.

***

وفي صباح الثلاثاء، ومع زقزقة العصافير، خرج بخيت يتدحرج، نحو بيت طاوي، وما إن وصل الباب، كانت حمامة ومعها رمانة، يسبقهما الحمار، مقبلتين نحو المنزل، قادمتين من البئر السفلى، احمرّ وجه بخيت، ولمعت عيناه بعيني حمامة، لكنه ما لبث أن طأطأ رأسه، مما مكّن حمامة من تعديل لثامها، وترتيب مشيتها، ودخلتا في صمت، وغرق بخيت في مشاعر مكتومة، وماهي إلا لحظات حتى خرج طاوي، وفي يده خبزتان دافئتان، مدهونتان بالسمن، ناول بخيت واحدة، فيما كانت حمامة تصب كأسين من قهوة البن من وراء الباب، أخذ طاوي كأساً لبخيت، والآخر له، والتهم بخيت خبزته بسرعة وشراهة، وصاح طاوي بالمزيد، فناولته حمامة من وراء الباب، سلم الخبزة لبخيت، التهمها بنهم أكبر، صاح طاوي ثانية، مدّت حمامة يدها، بصحن فيه أربعة من الخبز، التقطت عينا بخيت الحاضرة تلك اللحظات العابرة بسرعة نادرة، كما التقطت يداه، وطحنت أسنانه الخمس الخبزات، وشرب قهوة البُن، لكن طاوي لم يطلب له المزيد، حتى جاء الصوت من الداخل، بصوت رقيق: إن كانا بحاجة للمزيد، فهز بخيت رأسه، وحرك في يده كأسه، وناولها طاوي الكأس، وملأته وناوله بخيت...

وصلا السوق و الشمس توزع شعاعها الذهبي على السفوح والجبال، وكان السوق مليئاً بالعساكر، وهم على وشك المغادرة حاملين ما اشتروه في أكياس، فهم يأتون كل ثلاثاء من معسكرهم البعيد، الرابض على رؤوس الجبال، والمقابل لأطراف القبيلة، ويأتون بدون أسلحتهم الشخصية، خوفاً من سلبهم، فسلاح العسكري استفزاز للقبيلة، ويلبسون البناطيل، والتي تعد عيباً في القبيلة، ولا يلبسها أحد من رجالها، بل تعد لباساً للنساء، ويتعرضون للسخرية، وخاصة من يلبسون « الميري»، ويقطعون مسافات طويلة على الأقدام، ويأتون مبكراً قبل الزحام، ويشترون في سكينة وهدوء، ليتزودوا ببعض حاجياتهم...

والمعسكر لا يتدخل أبدا في شؤون القبيلة أو مشاكلها، بل يتجنب الاحتكاك مع أفراد القبيلة... التم طاوي بأحد تجار السلاح، وقد حمل على ظهره ثلاثة رشاشات، قلّب اثنين منها في يده، وأعطى الثالثة لبخيت، وخيره ليختار واحدة، فاختار الجديدة اللامعة، وكانت صناعتها روسية، تجادلا مع البائع في سعرها، حتى استقرا عند أربعمائة ألف ريال، دفع طاوي المبلغ، واشترى كذلك صندوقا من الرصاص من تاجر آخر، وانطلقا إلى جبل الولي القريب، فوصلاه ولم يكن حوله أحد، واتفقا على هدفٍ للرماية، حجرة بيضاء صغيرة، تبرز بين ركام الحجارة السوداء، كعروس بين النساء، وتقع في منتصف الجبل، ظاهرة بارزة، وبدءا يتناوبان إطلاق النار، كل منهما برشاشه، حتى أصابها طاوي، واختفت من المشهد، فاتفقا على غيرها، واستمر السجال، حتى أفرغا ستين طلقة، وكان بخيت لا يرغب بإطلاق الرصاص، على هذا الجبل المبارك، فهو يرى فيه رأي الكثير بأنه كان سكناً لولي طاهر من أولياء الزمن الغابر، وكثير من الناس -كما يقول- يجدون عنده راحة وحلولاً واطمئناناً ودعاء مقبولاً، وما إن ذكر ذلك لطاوي، حتى شاركه الشعور نفسه، وتوقفا نادمين، وللجبل معتذرين...

***

وبعد ثلاثة أيام، وقبل طلوع الشمس، ذهب طاوي إلى منزل والد خالد، فأخبروه بأنه في الجبل، يقتلع الحجارة ويكسرها، ويبيعها، انطلق إليه وقد أخذ معه بخيت، ووصلا بالسيارة إلى أسفل الجبل، وأوقفا السيارة بجوار سيارة أبو خالد، ولم تفلح صيحاتهما، في لفت انتباه أبو خالد، فقررا الصعود، وما إن بلغا منتصف الجبل، حتى تدحرجت حجارة من الأعلى، وكادت أن ترتطم بهما، فأطلق بخيت رصاصة في الهواء، مع استمرار النداء، فأطل أبو خالد من وراء صخرة كبيرة، وبجانبه اثنان من أبنائه، لم يتجاوزا العاشرة، صعدا على الصخرة يراقبان ويتأملان، فيما تدحرج أبوهما حافي القدمين، حاسر الرأس، يتصبب عرقاً، وقد ربط وسطه بشاله، ورفع ثوبه

إلى ركبتيه، فصافحاه، وكانا أشد منه تعباً، وأكثر تعرقاً...

أخبره طاوي بأنه قَصَده لسببين، الأول: أنه يريد منه أن يجمع له حجارة كثيرة، فهو يخطط لبناء ديوان جديد، بجوار منزله، وطلب منه ألا يخبر أحدا بذلك، وأخرج طاوي مبلغ خمسين ألف ريال، كعربون مقدم، تهلل وجه (أبو خالد) فرحاً، ودسّ المبلغ في جيبه، ووعدَ بالعمل الدؤوب. وسأل عن السبب الثاني، فأخبره طاوي بأنه يريده في الحال والساعة أن يرافقهم لإطلاق سراح ابنه خالد، فاصفرّ لونه واكفهر وجهه، وأجاب بصوت منكسر:

-خالد لا يسمع الكلام، ويرفض العمل في الحجارة، وهذا عقوق! ليجيبه طاوي:

-هذا ليس عقوقاً، فالعمل في الحجارة مُجْهِد، وسيعمل معي. ضحك أبو خالد بصوت عال، وعلامات الاستغراب بادية عليه، ونظرات الشك ظاهرة، وقال:

-وماذا يعمل معك يا طاوي! فأجابه وقد أدرك المعنى قائلا:

-سيعمل بعرق جبينه، فحالي الآن ميسور، وعندي فلوس كثيرة، والمزرعة والبناء تنتظره، المهم تعال الآن معي لبيت الشيخ.. تدحرج الثلاثة وركبا سيارة طاوي، والتي لم تتوقف إلا أمام منزل الشيخ، وعادوا جميعا بعد إطلاق سراح خالد...

كان الشيخ جلمود يحسن الظن، ولم يلمّح لطاوي بشيء، مما أخبره به بخيت، لا في أقواله، ولا نظراته، بل يحتمل توبته، ويترقب الأخبار.. ومرَّت الأيام، ولم تحدث سرقة واحدة في القبيلة، لكن حال طاوي يثير الشبهة، بداية بزواره الغرباء حين عودته، وانتهاء بطفرته المالية، مع أنه هادئ ومسالم، ومتعاون وكريم، فقد ساعد المدِين، وأفرج عن السجين، وهذا تغير كبير، ليس له نظير.

21
المرافقون

وبعد بضعة أيام، وفي عصر يوم الأحد اجتمع طاوي الليل بالأربعة الشبان: بخيت ومريس وسعيدان وخالد، في منزل سعيدان، وأخبرهم بحاجته إليهم، وبأنه سيكرمهم، وسيجعل لهم مكافئات شهرية، لكنه بالمقابل يريد منهم الاستعداد في أي وقت، ولأي عمل مع السرية التامة، ومن يخالف ذلك سيتعرض لأشد العقاب. كانوا جميعا في حاجة ماسة، لرجلٍ ينتشلهم من هذه الفاقة، فجميعهم يعانون الحاجة، ويكابدون المشقة، ويواجهون ظروفا صعبة، وقد قدَّم لكل منهم الطُّعم، فمريس وخالد أخرجهما من السجن، وسعيدان ساعده بمبلغ كبير، وبخيت غارق في الامتنان، فكانت عيونهم تعاهده قبل ألسنتهم، بأن له الأمر وعليهم التنفيذ..

أدرك طاوي استعدادهم، إلا أنه أراد استنطاقهم، فسألهم هل أنتم مستعدون؟ فأجابوا بصوت واحد: نعم مستعدون. وعلق سعيدان قائلا: نحن في أتم الاستعداد، وإذا تريد نبصم فحاضرون، ضحكوا جميعا، وأجابه طاوي قائلاً: البصمات عند المقص، أما عندي فكلام رجال بدون تواقيع ولا بصمات، وأخبرهم عن بعض المهام، والتي ستوزع مع الأيام...

***

وفي صباح الاثنين وقبل شروق الشمس كان بخيت وسعيدان واقفين أمام منزل بخيت، وكل منهما يحمل رشاشه، وما هي إلا دقائق، وأقبل طاوي، بسيارته الشاص الحمراء، وركبا سريعا، وسعيدان يراقب ويترقب، ولا يدري إلى أين المسير، وبعد صمت طويل، نظر إلى طاوي، وسأله عن

الوجهـة والمهمـة، فـأوكل طـاوي الجـواب إلى بخيـت، فأجابـه بخيـت قائـلا: الـدرس الأول؛ إمـا أن تنجـح أو تفشـل.. ضحـك سـعيدان وقـال: طيـب غششـني الحـل. فـيرد عليـه طـاوي: اقتربنـا مـن الوصـول، فـلا تكـثر مـن الفضـول...

توقـف طـاوي في طـرف القبيـلة، وبعـد حـوالي السـاعة أقبلـت سـيارة «غمارتـين» خـضراء اللـون، يركبهـا ثلاثـة مسـلحين، ونزل أحـدهم لـيزاحم بخيـت وسـعيدان، وقـال: سـيارة كـروزر بيضـاء، يقودهـا رجـل كبـير في السـن، عـلى رأسـه شـالاً أبيـض، ولا يرافقـه أحـد.

انطلـق طـاوي في الخـط العـام إلى أقـصى مـكان في أطـراف القبيـلة، عنـد جبـل مرتفـع، وجعـل السيارة بشـكل عـرضي، ونزل الغريـب، وصعـد صخـرة قريبـة، وبعـد حـوالي نصـف سـاعة، صـاح قائـلاً: إنهـا قادمـة. فحـرك طـاوي السـيارة ليقطـع الطريـق تمامـا، واتخـذ الغريـب وطـاوي وبخيـت وضعيـة الهجـوم، وسـعيدان يراقـب بصمـت. أقبلـت السـيارة المطلوبـة، وتوقـف صاحبهـا، ونزل مذعـورا خائفـا، يصيـح: لا تقتلوني فلـدي أطفـال كثير، خـذوا الحقيبـة، والعـشرة الملايـين ريـال الـتي فيهـا، واتركـوا لي سـيارتي، أعـود بهـا إلى أهـلي، لكـن طـاوي اختطـف المفتـاح مـن يـده، وسـلمه لبخيـت، ثم دفعـه بيده، وقـال له: اسـكت وإلا قتلتـك. صمـت الرجـل ودمـوع عينيـه لا تتوقـف، وركـب بخيـت السـيارة وانطلـق بهـا، يتبعـه طـاوي وسـعيدان والغريـب.

وبعـد دقائـق جـاءت السـيارة الهايلوكـس الخـضراء، وأركبـوا الرجـل الكبـير، ودمعـه يتسـاقط، يقـص عليهمـا قصتـه، ويحدثهمـا بأنـه تاجـر كبـير، وبـكاؤه ليس عـلى النقـود أو السـيارة، وإنمـا للفـزع الـذي أصابـه، والخـوف الـذي انتابـه، وبأنـه يأخـذ دواء للقلـب، ومـا شـاهده كاد أن يـودي بحياتـه،

هنـآه عـلى سـلامته، وأن كل شيء يعـوض، وحـذراه مـن أي شـكوى،

فالعصابة لا ترحم، ولم تستطع عليها دولة ولا قبيلة، وأخبرهما بأنه لن يسلك هذا الطريق ما بقي في عمره بقية...

وصل طاوي ومرافقوه إلى بني شامخ، وخلفه بخيت بالسيارة المنهوبة، وفي الورشة المقصودة، قابل أبو ناهل، وطلب منه شراء السيارة البيضاء وتبديل سيارته الشاص بسيارة كروزر، أخذ أبو ناهل بيد طاوي الليل وأراه سيارة كروزر حمراء اللون، وافق طاوي واتفقا على أن يدفع له أبو ناهل مليوني ريال فقط، حمل بخيت الحقيبة من السيارة المنهوبة ووضعها في السيارة الجديدة، وأخذ طاوي الليل كيس النقود، ودسّه في الحقيبة المنهوبة، والتي كانت مليئة بالنقود، وركب الأربعة وانطلقوا إلى الخط العام، وهناك سلم طاوي للثلاثة المشاركين مبلغ مليوني ريال...

***

توقفت سيارة طاوي الجديدة، أمام منزله، والشمس في كبد السماء، وأشعتها حارة لاذعة، وحمل الحقيبة إلى منزله، ووضعها في مكان آمن، وخرج حميدان فرحا، يطوف بالسيارة الجديدة، بينما سعيدان وبخيت في داخلها، سألهما: من أين ومتى تم شراؤها؟ لكنهما تلعثما ولم يجيباه، وطلبا منه أن يسأل أباه...

وحين خرج أبوه، أمسك به حميدان، وسأله عنها، وكان جواب أبيه: بأنه اشتراها اليوم.. استأذن أباه، وركب بجوار سعيدان، وانطلق طاوي باتجاه منزل الشيخ جلمود، وقبل أن يصل كان الشيخ في أسفل الربوة، يسير برفقته جرمل، ويحمل مظلة سوداء متوجها نحو المسجد الصغير. توقف طاوي بجواره، وسلم عليه، ومشى معه خطوات، إلى ظل شجرة قريبة، واشتكى له ضيق منزله، وطلب منه السماح ببناء ديوان، في الساحة العامة التي أمام بيته، والتي مساحتها شاسعة جدا، وافق الشيخ جلمود، ثم طلب منه السماح أيضا بتوصيل أنابيب من خزان المزارع الكبير، إلى

مزرعته، فوافق له الشيخ أيضاً، وبارك له على السيارة الجديدة، وفي داخله أسئلة حيرى كثيرة، حول طاوي ومصادر الدخل المثيرة...

وفي صباح الثلاثاء اجتمع بخيت وسعيدان وخالد ومريس في المكان المحدد، وأقبل طاوي ومعه حميدان، واتجهوا جميعا إلى السوق، وهناك اشترى طاوي أنابيب بلاستيكية، مع روابط التوصيل والشد، ومكابح الفتح والإغلاق، وتم التوجه إلى الخزان الكبير، والذي تصب فيه الآبار الارتوازية، ويشرف عليه مهياب، وتم توصيل الأنابيب بتعاون الجميع حتى وصلت إلى مزرعة طاوي الليل، وتم لف العجلات المتبقية، وحملها إلى حصن جولبة، والذي يقع على جبل صغير،خلف منزل طاوي، و جولبة هو الجد الثالث لطاوي الليل، وسمي الحصن باسمه منذ جاء إلى القبيلة لاجئا وسكن فيه، وكان اسم الحصن الأصلي: حصن وعلان، وتكثر الحصون في القبيلة، وكانت تستخدم للحراسة، والحماية من الغزاة، وقطاع الطرق، إلا أن دورها تضاءل في السنين الأخيرة، وأصبحت مخازن للأعلاف والحبوب، وأدوات الزراعة...

كُلِّف خالد بشؤون المزرعة، ومتابعة سقيها، وتقليب تربتها، وغرسها بالذرة، وكلف مريس بمتابعة البناء، والتنسيق مع أبو خالد بشأن حجارة البناء، والترتيب والتخطيط مع المقاول.

تدحرجت الأيام بسرعة، وتسارعت عجلة التنمية مع طاوي الليل، وازدادت أمواله بشكل كبير، ولم تنقطع مواعيد النهب عن يومها المحدد بالاثنين، ولم يكن يتأخر عن المهمة أحد، فقد اجتمع حوله الشباب الأربعة، يستفرد بهم الفقر، ويلبسهم الجهل، ووجد طاوي فيهم مرآته المفضلة، وحقق بهم ولهم ما يحلم ويحلمون، فقد عين لهم المرتبات، وتعهدهم في المناسبات، وأجزل لهم في المكافئات، ومع أنها من الفتات، إلا أنهم يرونه رجلاً معطاء، وصاحب كرم وسخاء، ووجدوا فيه الأب

والصديـق، ووجـد فيهـم السـند والرفيـق، وكلـما ازدادت الغنـائم أغرقهـم بالموائـد والعـزائم، وكان مـن الحـرص والـذكاء، أنـه لا يطلعهـم عـلى شيء، ويقيـد حركتهـم بالأوامـر الصارمـة، وقـد تحـكم في قلوبهـم، وسـيطر عـلى عقولهـم، فـلا يخالفـون له رأياً، ولا يعصـون له أمـراً، وتمـر الأيام ويرتفـع معهـا البنـاء، لديـوان «مجلـس» بطـول خمسـين مـتراً، وخمـس غـرف ملحقـة، وبوابـة كبـيرة، وعمـال يشـتغلون ليـلَ نهـارَ...

وبعـد شهـرين مـن البنـاء، وقـد شـارف عـلى الانتهـاء، وبينما طـاوي يتفقـد المبـنى، يرافقـه بخيـت وسـعيدان، ومريـس يرش السـطح بالمـاء، والمقـاول يوجـه العمـال، والشـمس تجـر آخـر خيوطهـا الذهبيـة مـن أطـراف القبيـلة وجبالهـا، أقبـل جـرير بسـيارته الصفـراء، وأوقفهـا أمـام المـنزل، وقـد رمقهـم ببـصره، وأشـار إليـه طـاوي بالصعـود، وصعـد راسماً ابتسـامةً عريضـة، وكلمات وتهـان مباركـة متتابعـة، يتأمـل في البنـاء تـارة، وفي وجـه طـاوي تارة أخـرى، ويردد : يرزق مـن يشـاء بغـير حسـاب، وسـعيدان يشـيح بوجهـه جانبـاً، فقـد كان أكثرهم تشـاؤما، وأكثرهم معرفـةً بجرير، شـبَّك جـرير أصابـع يـده اليسرى، في أصابـع يـد طـاوي اليمـنى، وانسـحب بـه عـلى انفـراد، يرسـل الهمسـات تلـو الهمسـات، ويؤكـد لطـاوي، بأنـه حليفـه المخلـص، وصديقـه الـودود، ويطلـب منـه طلبـين؛ أن يتوسـط بالـسماح له بالخطابـة، وبيـع خلطاتـه.

هـزّ طـاوي رأسـه، ووعـده خـيراً، إلا أن جـرير ألحّ بشـدة، وتـضرع أشـد، فشـد طـاوي عـلى يـده، وقـال له: سأتوسـط لـك، وأريـدك في مهمـة، التفـت جـرير واقـترب مـن طـاوي حـتى لامـس أنفـه أنـف طـاوي وقـال: أنا رهـن الإشـارة، وحـاضر لأي أوامـر. تراجـع طـاوي خطـوة إلى الـوراء، وقـد أمسـك بيـده اليسرى عـلى أنفـه وقـال: أريـد المزرعـة الـتي بجـوار مزرعـتي، وقـد عرضـت مبلغـاً خياليـاً، ولكـن أم جنـدل صاحبـة الأرض رفضـت.

وكانـت أم جنـدل أرملـة، قُتـل زوجهـا في إحـدى الحـروب القبليـة، وتـرك

لها تلك المزرعة، وابنها جندل، والبالغ من العمر أربعة عشر ربيعاً... هزّ جرير رأسه، ومسح رقبتهُ بيده، ونظر إلى السماء وتنحنح، ثم حدق في عينيّ طاوي، وقال: سأفكر وآتيك بالحل، ليجيبه طاوي قائلا: لستُ مستعجلا، وخذ وقتك، ولنذهب الآن إلى الشيخ جلمود، تحرك طاوي بسيارته، يرافقه بخيت وسعيدان، وخلفه جرير يصارع الغبار الذي تخلفه سيارة طاوي، وما إن وصلا منتصف الطريق حتى أدركا الشيخ جلمود يرافقه جرمل، يسير راجلاً، توقف طاوي وترجل من سيارته، وصافح الشيخ وأخذه على انفراد، وأقبل جرير مصافحا ومندساً، فأوجز طاوي الطلبين، ووافق الشيخ على أن تكون لجرير خطبة، وللقاضي خطبة، ووضع شروطاً كثيرة، منها ألا يخرج عن المألوف، وأن تكون الخطبة للإرشاد لا لتنفير العباد، وهزّ جرير رأسه موافقاً، وأمسك بيد الشيخ مقبلاً، وسأل الشيخ عن الطلب الآخر، فأخبره طاوي عن بيع الخلطات، وانتفض الشيخ وتوسعت حدقتا عينيه وقال: الخلطات مرفوضة حتى يعود الدكتور أمير، وهو من يحدد للخلطات المصير، وحاول طاوي أن يلح في الطلب، إلا أن الشيخ رفض رفضا قاطعاً، توسل جرير إلى الشيخ، إلا أنه ازداد غضبا وقال: هل تريد قتل الناس بخلطاتك؟ يكفيك الخطابة ولست لها أهلاً.. وودعهم الشيخ وانصرف، وسكت جرير، وفي قلبه حقد كبير، ومضى يقلب عينيه يمنة ويسرة، وكأنه يتفحص وجه طاوي لأول مرة، أدرك طاوي غيض جرير، وأخبره أن نصف المطلوب قد تم، وعليه أن يعد للخطبة ما يلزم، وحين يعود أمير، سيجد له حلاً وتدبيراً، تنحنح جرير، وكان لصدره من أنفه صفير، يقلب كفيه، ويحك منخريه، ربَتَ طاوي على ظهره، وودعه ومضى...

الساعة العاشرة صباحا من يوم الجمعة، والشمس تملأ السهول والجبال، وتحتضن البيوت والشوارع، وتداعب المنازل، بشعاع خفيف نافذ، من الأبواب و النوافذ، خرج جرير بعد أن أمضى الساعات أمام

زوجتيه والمرآة، يلبس الشال الوردي، ثم ينزعه، ويلبس البني ثم يرميه، ثم الأصفر فلا يعجبه، ويربط الأخضر فلا يروقه، واستقر به الأمر على الشال الأبيض، ملفوفا على رأسه، كثعبان على شجرة، والشال الأصفر فوق كتفه، وثوب أبيض، وعصاه بيده، تقدم نحو الدكان، واستقبله ابنه شادي ومنير، وسألهما عن مسعود، فأخبراه أنه موجود، في مخزن الغاز المجاور، ابتسم جرير، ووجّه خطابه لمنير، وقال له بصوت فيه تحقير: افتح أذنيك في الخطبة! ومضى دون أن يسمع جواباً، وترك منير في حيرة وارتياب، وركب سيارته، وانطلق نحو المسجد الكبير، وكان أول الواصلين، وما إن وطأت المسجد قدماه، حتى تفقدت المكان عيناه، وكأنها لأول مرة تراه، فينظر للفرش والجدار، وللسقف والأركان، اقترب إلى المنبر، وصعده ثم نزل، أخرج ورقته من جيبه، وقرأها مرة تلو أخرى...

وبدأ الناس بالتوافد، واعتلى المنبر، والكثير من الناس مستغربة، لعودة المطوع للخطابة، وكانت الآذان منصتة لكلماته وجمله، وكان أكثر المنصتين هما الشيخ والقاضي، وقد أدرك جرير؛ بأنها فرصته للتغيير، وكسب الجميع بالتعبير، فحرص على عباراته، وانتقى كلماته، ولم يتجاوز الاتفاق، ولم يخرج عن نص الأوراق، وموضوعها الأخلاق، بنصائح وإرشادات، لا تثير الشبهات، ولا تستنهض الاختلافات، وأكمل خطبته بسلام، وحاز على رضا العوام...

واستمر الحال، على هذا المنوال؛ خطبة للمطوع، تليها خطبة للقاضي، وكلا الخطبتين تسيران بنسق واحد، بلا إفراط ولا تفريط...

22
حصن جولبة

وبعد أربعة أشهر، وقد أصبح «ديوان» طاوي الليل، مضربا للأمثال لا يشبهه إلا ديوان الشيخ، في طوله وعرضه، وفخامة فرشه وأثاثه. وتكاثَرَ الناسُ حول طاوي، كلما تكاثرت أمواله، لكنه مع كثرة نقوده لا يمتلك سوى مزرعة واحدة. التقط طاوي فكرة سعيدان، وذهب معه يخطط المكان، «والجرافة» وسائقها منتظران في الوادي الأعلى، حيث المساحات الشاسعة التي لا يمتلكها أحد، ولم يتجرأ عليها أحد، وتحتاج إلى استصلاح، يكلف الكثير من المال، فاستأجر طاوي «جرافة» كبيرة، وجمع مرافقيه حولها، وبدأ يخطط للسائق، أين يتم المسح والجرف، وأين تكون التسوية والدفن. وصل خبر الجرافة إلى شيخ القبيلة، فجمع مرافقيه وبعض الأهالي، وركبوا ثلاث سيارات، تلحق بها سيارة جرير، توقف الشيخ بجوار الجرافة، وقد أمسك بسلاحه، وجميع مرافقيه أعدوا أسلحتهم، واستعدوا لمعركة حامية، نزل سائق «الجرافة» معتذرا، ويوجه اللوم إلى طاوي، وأقبل طاوي وقد أدرك الخطر، يسأل الشيخ عن الخطأ الذي ارتكبه، والجريمة التي اقترفها، وما الذي أغضب الشيخ في أراض قاحلة يريد استصلاحها، وزراعتها واستثمارها، وتوفير العمل لشباب القبيلة، إلا أن الشيخ نهره وزجره، وأجابه بأن لكل شيء ضوابط، وليست الأراضي سائبة، وليس كل من أراد شيئا فعله، وأن هذه «مراهق» القبيلة كلها، لا تُمَلك لأحد، ولا يستصلحها أحد، فمنها ينزل الماء عند المطر، ليسقي المزارع والثمر، واستمر يعاتبه ويؤنبه، على تجاهل عادات القبيلة، وقوانينها وأعرافها. ومع أن مرافقي طاوي، قد أعدوا أسلحتهم، واستعدوا للقتال،

إلا أن طاوي تنبه للأمر، وطلب منهم الهدوء، واعتذر للشيخ بشدة، و في قلبه غيظ وكربة، ودفع لسائق «الجرافة» أجرته، وطلب منه العودة إلى داره، وانطفأت الشرارة، والتي كادت أن تشتعل، وهدأت الأنفس، وعاد الشيخ مع مرافقيه، باتجاه الوادي الأسفل، وخلفهم طاوي مع مرافقيه.

أدرك جرير أن فرصته قد حانت، للغوص إلى أعماق طاوي المنكسرة، وملامسة جرحه الغائر، فقصده ليلاً وعاتبه، كيف سمح للشيخ بمنعه، وأشعل في قلبه نارا موقدة، وأخبره بأن أجداده هم الشيوخ، ومن علامات ذلك وأبرزه؛ حصنهم العالي المنيع، والمسمى باسم جده جولبة، لم يتمالك طاوي نفسه، وضحك ضحكة مدوية، وقال لجرير: هل نسيت قصة الحصن يا مقص أم أذكرك؟ وواصل حديثه قائلا: اسمه الأصلي حصن وعلان، وليس باسم جدي إلا من قريب، ولم نكن شيوخا ولا رعية، بل جاء جدي لاجئاً مسكينا، فلا تذكرني بتاريخ جولبة، ابتسم جرير وبلع ريقه، وصوب سهامه من جديد وقال: ليس الفتى من قال كان أبي، ولكن الفتى من قال ها أنا ذا، وأنت اليوم الرجل الأول، بيتك من أكبر البيوت، وعندك المرافقون، وعندك النقود، ولا ينقصك شيء.. ابتسم طاوي وقال: وماذا عندك يا جرير المقص؟ ففي قلبي نار تغلي، ويجيبه جرير المقص وقد أمسك بلحيته ويقول: عندي الكثير، وإن تبعتني، سأجعلك شيخ القبيلة! انتفض طاوي وكأنما قرصته حشرة، وذهب يردد: شيخ القبيلة، شيخ القبيلة...

***

ودارت الأيام، ودارت معها فكرة جرير كإعصار ملازم، في قلب طاوي وعقله، وكبرت يوما بعد يوم، ونمت كثيرا، وازدادت نموا كلما

زادت النقـود، وتفرعـت أغصانها، كلما شـاهد مرافقيـه. وبينما طـاوي يقلـب بـصره، في سماء القبيـلة الصـافي، الـمليء بالنجـوم المتلألئـة، وفي يـده كـوب مـن القهـوة، وعـلى يمينـه ابنتـه حمامـة، ينعكـس ضـوء النجـوم عـلى وجنتيهـا، وكأنهـا القمـر البديـل في غيابـه، لم تقاطـع أباهـا بحديـث، ولم يبتدئهـا بخـبر، كان يغـوص في عالمـه، وهي تتأمـل النجـوم، وتراقبهـا أيضـا، وتنتظـر كـوب أبيهـا، لتمـلأه مـن جديـد، وتحـول بصرهـا نحـو البنـاء، وهـذا السـطح الممتـد الكبـير، فـوق ديـوان «مجلـس» طويـل، فتحمـد ربهـا تارة، وتلـقي بنظـرات المحبـة لأبيها تارة أخـرى، وتمـلأ قلبهـا وعينيهـا بالشـكر والثنـاء لله، عـلى منزلهـم الواسـع.. كان الطقـس معتـدلاً يميـل قليـلا إلى الـبرودة، إلا أن ريحـاً خفيفـة تداعـب خصـلة مـن شـعيراتها المتمـردة، فتحركهـا يمنـة ويسرة، وكانـت تلـف جسـدها بمعطـف، وأبوهـا يلتحـف بطانيـة مـن الصـوف، و السـاعة تشـير إلى الثامنـة، والصمـت يحيـط بالمـكان، إلا مـن صـوت نهيـق متقطـع، أو صرير حـشرات ليليـة، واسـتغرق طـاوي في التفكـير، عـن سـبب تأخـر جـرير، فقـد طـال غيابـه لأكـثر مـن خمسـة أيام، ومـاهي إلا لحظـات، ونحنحـة حـول المنزل ترتفـع، يتبعهـا صـوت خافـت ينـادي، مـد طـاوي عنقـه ليتبـين القـادم، فـإذا بـه جـرير، يجـر مصباحـا في يـده، وفي الأخـرى عصـاه، أدخـله الديـوان، وصـب له كـوبا مـن القهـوة، وقبـل أن يرتشـفها.. قـال جـرير: جئتـك بالبـشرى، نظـر إليـه طـاوي وقـال له: أي بـشرى يا مطـوع ؟ أمـاط اللثـام عـن وجهـه وقـال: قمـت بإقنـاع أم جنـدل، وسـلمت لهـا أول راتـب، خمسـين ألـف ريال، وجعلتهـا تبـصم هي وولدهـا.

فتـح طـاوي فمـه مسـتغربا! وقـال: لم أفهـم شـيئا؟ وطلـبي منـك أن تقنعهـا ببيـع الأرض! ضحـك جـرير عاليـا، حـتى تطـاير بعضـاً مـن ريقـه، في وجـه طـاوي، وأخـرج ورقـة مـن جيبـه وقـال: الدنيـا تحتـاج حكمـة يا طـاوي. وقـرأ

له الورقة، فإذا هي تعهد لطاوي بسداد الدين، وأردف قائلا: والأم وولدها تظنها راتباً، من الشؤون الاجتماعية، ولا تكف عن الدعاء لك. أمسك طاوي برأسه، ونزع شاله ورماه، وقال: يا لك من إبليس يا مطوع! ضحك جرير وقال: من أجلك يا طاوي، والاتفاق الذي بيننا أن تدعمني وأدعمك.

كانت عينا طاوي مفتوحة، لا يغمضها، يقلب كفيه ويتأمل في وجه المقص، ويتساءل كيف اجتمع كل هذا الدهاء مع الخطابة و الوداعة.. وتذكر شكوى سعيدان، وكيف أخرجه من الدكان، وسقاه الكأس بالفكرة نفسها، تجاهل طاوي كل هذه الأفكار، بينما امتلأ وجه جرير غبطة وسرورا، فقد بدأت أولى حلقات المودة، وعرى الصداقة، تتوثق مع طاوي، أخرج طاوي ربطة من النقود، وناولها جرير، وقال: هذه راتب شهرين، أخذها جرير مبتسما، وقال: وسنستمر وربما نزيد المبلغ، حتى يصل الهدف المنشود، وأدخل المبلغ في جيبه، واقترب من طاوي، ومد يده حتى أمسك بكف طاوي، ضغط عليها بقوة، وعيناه تحدقان في عينيه، وقال: دعني أحدثك في الأهم: خطة الانقلاب جاهزة، وسأتوجك شيخا للقبيلة...

23
التخطيط

كانت الخطة قد وجدت عقلاً مدبرا، درس القبيلة بفؤاد مكسور، ونفذ إلى أعماقها بألمٍ مرير، راقب الفريسة كذئب جريح، فوجد في طاوي لجرحه الدواء، ووجد في قوة طاوي، لهدفه الغطاء، وأمضى الليالي تلو الليالي، يفكر ويدبر، ويتسلل ويحضر، واستحضر كل المشاهد والشهود، للنفاذ إلى الهدف المنشود، فكانت الحلقة الأضعف، والبناء المستهدف، هي تلك العلاقة المضطربة، بين الشيخ جلمود، ومنطقتي بني شامخ وبني علي، والتي لم يجد الشيخ لتلك المشكلة من حل، ولا لتلك الأواصر من ترميم، وقد اجتمع بعقّال المنطقتين لمرات كثيرة، وفي كل اجتماع يخرجون بلا بنود، ولم يجدوا من الشيخ إلا الوعود، ومن هنا أدرك جرير أن ذلك هو الطريق اليسير، فبدأ في خطب الجمعة، يتحدث عن العدالة بصفة عامة ومرسلة، وبعد بضعة أيام قرر الدفع بالمخطط إلى الأمام...

وبعد عصر يوم الجمعة أقبلت خمس سيارات تحمل على ظهرها العشرات، من منطقة بني شامخ، يتقدمهم العاقل، وكان في استقبالهم الشيخ والقاضي وطاوي والمطوع جرير، توقع الشيخ أنها زيارة محبة، لا تشوبها شائبة، وبعد الترحيب وإظهار السرور قام عاقل بني شامخ في الحضور، وأوجز الكلام واختصره، وقال للشيخ جلمود:

-يا شيخ جئناك مرة تلو أخرى، ولم نجد منك إلا الوعود، مزارعنا يبست، وماء الآبار السطحية، لا يكفي للشرب والماشية، ونحن لا نطلب إلا العدالة، ففي بني وعلان بئران ارتوازيتان، وفي بني منصور بئر وفي بني ناجي بئر ونحن لا شيء...

كانت نبرة العاقل مختلفة، وفيها شيء من الحدة، وما إن انتهى العاقل حتى تحولت الأعين نحو الشيخ لمعرفة الجواب، تربع الشيخ واعتدل،

والتفت إلى العاقل وقال:

-سأخبركم باختصار، لكي تتفهموا الأمر، فاللجنة الألمانية تبرعت بخمس آبار، وحفرت لنا ثلاثاً منهن، واحدة في بني ناجي، والثانية في بني منصور، والثالثة في بني وعلان، وبقيت بئران لبني شامخ وبني علي، لكن اللجنة سلمت بقية المشروع للحكومة، ومنذ ذلك اليوم، اختفى المشروع، واختفت المبالغ المخصصة له، وقد ذهبت مرة تلو مرة، لمراجعة الحكومة، ومواعيدهم كثيرة وبلا فائدة...

أجابه العاقل وقد ازداد حدة وقال:

-يا شيخ إلى متى ننتظر؟ وأنت ذكرت بئرا واحدة، ولكن في بني وعلان بئرين.. فيقاطعه الشيخ قائلا:

-نسيت أخبرك عن البئر الثانية، فقد حفرتها من مالي الخاص، والقاضي وبعض الحاضرين يعرفون التفاصيل...

ازدادت حدة العبارات، وتورمت بعض الكلمات، وانتفخت بعض الأوداج، ولم يعد الحديث بين العاقل والشيخ، فقد تجرأ البقية على خوض نقاش القضية...

غمز جرير بإصبعه في كتف طاوي، والذي وقف في الديوان ينادي:

-صلوا على النبي وآله يا رجال! صلى الجميع وسكتوا، وواصل حديثه قائلا:

-الشيخ لم يقصر، وعمل ما يستطيع، وأنا أعرف معاناتكم، وعندي القدرة من فضل ربي، وسأحفر لكم بئراً مجاناً، وسيأتيكم الحفار غدا...

اشرأبت الأعناق، تتفحص طاوي، من رأسه حتى أخمص قدميه، وتتالت له الدعوات بالخير والبركات من الشيخ والقاضي، ومن العاقل ومن معه، لكن جرير لم يكن إمَّعة، ولابد أن يضع بصمته، فتنحنح ليلفت الجميع إليه، وخاطب الجميع، وكأنه قد رتب الكلام وصفه: فشكر طاوي

وأثنى عليه، وذكر لطاوي فضائل آنفة، ووقفات كبيرة ومشرفة، وخص منها إخراجه السجناء، ومساعدة المعسرين، وتوفير فرص للعاطلين...بينما طاوي فاتح فاهه، لا يصدق بأنه المقصود، وبأنه صاحب الفضائل والجود، وبأنه ذلك الولي العابد، وصالح ومصلح وزاهد، ولم يصحو من سكرته، إلا على أنف جرير، يلامس جبهته، وحرارة شفتين تقبل بين حاجبيه...

***

وجاء السبت على بني شامخ، لا يشبه سبتا من قبل، وقبل أن تغادر شمسه، وتودع جباله وتلاله، كان هناك موعد لقاء، ليس له نظير، ولا يصفه التعبير، فقد اصطف الجميع، والشمس تضع أكاليل الوداع، على الرؤوس المصطفة، والعربات القادمة، ويتقدم الصفوف طاوي وجرير، يتوسطهما العاقل المثير، وجمع من الناس غفير، فيهم الكبير والصغير، واقتربت العربات، وكانت ثلاثاً؛ الحفار المنتظر، وعربة تحمل مضخة، وأخرى تحمل أنابيب حديدية..

واستقبلت استقبال الملوك، بالزغاريد والتصفيق، وبزخات من الرصاص، تجمع حول الحفار، الكبار والصغار، يتأملون الضيف العزيز الذي طال انتظاره، وأخذ طاوي بيد المهندس، وأراه المكان المحدد للحفر، وأخبره المهندس المختص، بأنه سيبدأ الحفر ليلا، وبدأ العمال بنصب الخيام، وترتيب المكان، وبينما هَمَّ طاوي بالمغادرة، بادره العاقل بأغلظ الأيمان، بأنه معزوم في الغد على الغداء، ومعه المطوع ومن معه بلا استثناء، وأن يجلب برفقته من يشاء، فقد أعد العاقل وليمة عريضة، فرحة بالحفار، واستبشارا بالخير، وبينما طاوي يحك رأسه، ويفكر في الأمر.. قدم جرير مقترحا، بقبول العزيمة وتأجيلها، حتى اكتمال الحفر، وظهور الماء، وافقه طاوي على المقترح، وقبل العاقل الاقتراح...

وأشرقت شمس الخميس، تتراقص طربا، على صوت المضخة، وتنعكس أملا على سطح خزان كبير، قد امتلأ بالماء الزلال، وأقبل

الجميع، صغارا وكبارا يتأملون ذلك الماء المتدفق في الخزان الكبير، وقد طفح من جوانبه الماء، وسال حتى ملأ الطريق، وأشبع حفراً كثيرة، يتقافز فيها الأطفال، سباحة ولهواً، وتعالت الزغاريد مجددا، وصدحت زخات الرصاص، وأقبل العاقل مهرولاً وشرب من الماء، وأطلق النداء، بذبح الخمسة الخرفان، والثلاثة الثيران التي تبرع بها الأهالي لهذا اليوم المثالي، وأرسل الرسل للدعوة للوليمة بدءاً بالشيخ وطاوي ومن معهما، وإلى منطقة بني علي، وتوافدت الجموع من كل المناطق، لتشاهد البئر، وتحضر وليمة الغداء، وكان الشيخ والقاضي على رأس الحضور...

وبعد تناول الغداء، قام العاقل وألقى كلمة شكر وعرفان لطاوي على تعاونه وكرمه، ثم تحدث الشيخ باقتضاب، مكرراً الشكر لطاوي، وتوجهت الأنظار كلها إلى طاوي، فقام وقال كلاماً مبعثراً، تلقفته الأسماع باهتمام، وكأنما يلقي درراً من الحكمة.. وحين وجد الحشد يملأ المكان، انتفخت في عقله هبة الكرم، ونسائم الجود، فوعد الحاضرين ببناء سد كبير في القبيلة، وصفق له الجميع بحرارة، وما إن أكمل كلامه حتى قام الشيخ وودع الحاضرين وتبعه طاوي وبقية الحضور...

ولم يدخر جرير جهداً في خطبة الجمعة، والتي عرج فيها على صانع المعروف وفاعل الخير، وأسهب في المديح، وعَلِم الجميع من المقصود، مع أنه لم يذكر اسم طاوي، وبعد الصلاة تقدم أحد رجال بني علي إلى طاوي، وأخبره برغبتهم للمقيل عنده، فرحب أشد الترحيب، وركب سيارته، يحيط به مرافقوه، كسوار حول معصم في مشهد ملفت وجديد، وتحرك إلى منزله، وما كاد ينهي غداءه، حتى أقبلت ثلاث سيارات مليئة بالرجال المسلحين، يتقدمهم عاقل بني علي، واستقبلهم طاوي وصافحهم، وأدخلهم الديوان الجديد، وعددهم لا يتجاوز الثلاثين، أومأ طاوي إلى حميدان، وأخبره أن يأتي بجرير في الحال، وانطلق حميدان يسابق الريح، وما إن وصل الدكان، ورأى جرير يتلوى كالثعبان، صاح به: يا مطوع الآن الآن...

انتبـه جـرير وقـال: مـا بـك يا حميـدان؟ فأجابـه: إن أبي يدعـوك الآن، وبـني عـلي يملـؤون الديـوان.

ضحـك جـرير عالياً، حـتى ظهـرت كل أسـنانه، والتقـط عصاه، وأمسـك بيد حميـدان، وتجاوز عقبـة الـدكان، وركبـا السيارة، وانطلقا إلى بيت طاوي...

***

لم تكـن طفـرات طـاوي المادية، ولا الأحـداث اليوميـة غائبـة عـن الشـيخ والقـاضي، لكنهـما لا يريـدان الصـدام معـه، خاصـة والأمـر فيـه سـعة، ولم يـدرك الشـيخ مُـراد طـاوي، مـع أنهـا أدركتـه الغـيرة، منـذ رآه بالمرافقـين، ويبـذل المـال للمعسرين، ويحفـر بـئرا للمحتاجـين، لكـن اجتماعـه بالعقّـال، يثـير ألـف سـؤال وسـؤال، ومـن يكـن هـذا الصعلـوك، حـتى يخالـف العـادات والسلوك.. كانـت الأفـكار تتلاقـى في صمـت وسـكون، وأطلـق القـاضي إنـذاراً مبكـراً، لعـل الشـيخ يتـدارك الخطـر، وأخـبره بأن وراء طـاوي، مجموعـة مـن الكـوارث والبـلاوي... وصـل نبـأ بـني عـلي سريعـا، وأرسـل الشـيخ مرافقـه جرمـل، ليأتيـه بالخـبر المفصـل.. وعـاد جرمـل، بحديـث مجمـل، فحـدث الشـيخ عـن رجـال بـني عـلي، والـذين ناشـدوا طـاوي بحفـر بـئر لهـم، أسـوة ببـني شـامخ، وكيـف خـرج طـاوي مـع جـرير، في غرفـة مجـاورة، للتـداول والمشـاورة، وبعدهـا قـام عاقـل بـني عـلي، ومعـه جـرير، وتحدثـا عـلى انفـراد، ثم اتفـق الجميـع عـلى الاجتماع غـدا في بـني عـلي، ولم يتطرقـوا لسـبب الاجتماع ...

أدرك الشـيخ جلمـود، أن طـاوي قـد تجـاوز كل الحـدود، فقـرر اسـتدعاءه، وأقبـل طـاوي عنـد الثامنـة مسـاء، ومعـه بخيـت وسـعيدان، ودار الحـوار بينهـما، عنـد بوابـة مـنزل الشـيخ، وسـأله عـما يفعـله، وكيـف له أن يتجاهـله، ورد طـاوي بأنـه يفعـل الخـير، ويحفـر للنـاس آبارا، وطلـب مـن الشـيخ أن يسـاعد النـاس، وإلا فـلا يتحسـس مـن فعـل الخـير، وانـتهى الحـوار سريعـا، وغـادر طـاوي، بينما اتصـل الشـيخ بولديـه، أن يحضرا سريعـا.. وكان أحدهمـا مسـؤولا في الجمـارك، والآخـر مـديرا للأمـن في تعـز...

24
الانقلاب

وفي صباح السبت انطلق طاوي، ترافقه ثلاث سيارات، محملة بالرجال المسلحين، من منطقة بني وعلان، وبجواره المطوع جرير، وما إن وصلوا حتى كان في استقبالهم جمع غفير من الناس من منطقة بني علي، وكذلك من منطقة بني شامخ، يتقدمهم العقّال والوجهاء، وبعد التحية والترحيب، قام طاوي وأخبرهم: بأن الحفار الارتوازي، في الطريق إلى بني علي لحفر بئر، ووعد بحفر آبار كثيرة، وكرر وعده ببناء سد، وأنه سيطور القبيلة، ويوصل لها الكهرباء والهاتف، ووعدهم بوعود كثيرة، فقام عاقل بني علي بعده، وخاطب الحاضرين جميعا: بأن طاوي هو الرجل القوي، والإنسان الخدوم، وهو الساعي في مصلحة الناس، وطلب من الجميع رأيهم، أن يكون طاوي هو شيخ القبيلة، فصاح الجميع بالموافقة، وأخرج ورقة من جيبه، وطلب ممن يوافق التوقيع أو البصمة...

كانت الأوراق حاضرة، وكذلك الأقلام، وحتى محبرة البصمة، فقد دبر الأمر بليل، تدافع الناس للبصمة و التوقيع، بينما ابتسامة جرير لا تفارقه، وطاوي يطلب منهم التريث، حتى يتم مشاورة الشيخ جلمود، فرد عاقل بني شامخ: بأنهم لم يجدوا من الشيخ أي منفعة ولا مصلحة، ولا يهتم بالقبيلة ومتطلباتها، واتفقوا جميعا على أن تستكمل في يومين توقيعات بني شامخ وبني علي، وبعدها يكون المقيل في بيت طاوي، وأن يتم دعوة البقية، للتوقيع والتزكية، وأن يتنازل الشيخ جلمود...

ودّعهم طاوي، ولم يتحرك موكبه، حتى تأكد من وصول الحفار إلى بني علي، وتحديد مكان الحفر، وفي أثناء الطريق، أَسَرَّ إلى جرير بدواخله، وأنه يخشى تسارع الأحداث، ومفاجأة العواقب، فهمس له جرير بأن المخطط

خطير، وعلى الخط يسير، على أكمل تدبير، وأفضل تقدير، وما عليه سوى الثبات، وألا يسقط في المنتصف، وأن يترك الأمر له...

ومضت ساعات طاوي طويلة ثقيلة، وحدث نفسه كثيرا، هل يتحقق المراد بسهولة ويسر، كما يخطط له جرير، أم تتشابك الخطوط، وتتعقد الأحداث، ويحل الصراع، وكيف سيقبل الشيخ أن يتنازل عن المكان الذي توارثه، والجاه الذي يكتنفه، وكيف ستتقبل بقية المناطق، وقرر تجاوز كل هذا التفكير، بمواصلة الطريق العسير...

***

وفي صباح الاثنين، اصطحب معه المرافقين إلى الرحلة المعتادة، لنهب السالكين في الطريق العام، وكان ممن رافقه بخيت وسعيدان، وخالد ومريس، وانتظروا لساعات بانتظار فريق الاستطلاع، لكن شركاءه الغرباء في السيارة الخضراء، لم يحضروا كعادتهم، فقرر طاوي أن يقوم بالمهمة بدون أي مراقبة وصعد الجبل، وسد الطريق بسيارته، ووزع المرافقين، وما إن أقبلت سيارة بيضاء، تويوتا «كروزر» جديدة، حتى استوقفها، وسأل سائقها عن الرخصة والملكية، وعيون المرافقين تراقب، وأياديهم على الزناد، كان سائقها شابا في العشرينات من عمره، يسأل طاوي عن سبب التوقيف، ويطلب منه طاوي الصمت وعدم الكلام، ويتفحص بنظراته السيارة، ويسأله طاوي عن الركاب، فيجيبه الشاب بأن من بجواره هو أخوه، وأنهما عادا من قضاء شهر العسل، وأن النساء في الخلف هن زوجتاهما وأمه، طلب طاوي منهما النقود، فأخرجا كل ما بحوزتهما، فلم تكن كافية لإشباع نهم طاوي، فطلب ذهب النساء، فقمن بخلع الحلي من الرقاب، والأساور من المعاصم، وعينا طاوي تراقب وتتفحص، ذلك الجمال الظاهر، وامتدت يد طاوي لتلامس إحداهن، فصرخت وانزوت، وأمسك الشاب بيد طاوي، وحاول عصرها، إلا أنه تراجع، بعد أن رأى البنادق المصوبة تجاهه، وترجى طاوي السماح

بالرحيل، فقد أعطوه كل النقود، وجميع الذهب والحلي، ولم يتبق لهم شيء، لكن طاوي ونفسه الشريرة، قد امتدت إلى ما وراء المال والذهب، وطلب من الشابين النزول من السيارة، وترك النساء فيها، فعلم الشاب بالمراد، والتفت إلى أخيه، والذي كان عاجزا عن فعل شيء، فلم يحضرا سلاحهما، ولا حتى خناجرهما المعتادة، فهمس له بصوت خفيف، بأن كل شيء يهون إلا العرض فلابد أن يصان، وحاول الشاب مع طاوي، بكل طريقة ووسيلة، من الاسترحام تارة، والتذلل أخرى، لكن عيني طاوي الملتهبة، قد امتلأت شراً وخبثا، وفحشا وقبحا، ولم يرفع عينيه، عن النظر إلى العروسين، ويداه تحاول فتح الأبواب، وسحب الشابين، حينها قرر الشاب أن الموت أشرف، وأن الحياة بعد العِرضْ أسخف، وحرك السيارة بقوة، وانطلق محاولا تجاوز سيارة طاوي، إلا أن الطريق ضيق، فوجهها نحو الهاوية، وقفزت السيارة من أعلى الجبل، تتدحرج عشرات المرات، حتى سكنت بطن الوادي، وقد تفرقت قطعة قطعة، وتناثرت الجثث ممزقة في كل الشعاب بينما فر طاوي ومرافقوه، وقد هالهم المنظر، وفاجأتهم ردة الفعل، وحذر طاوي مرافقيه، من أي حديث أو همس...

وعاد إلى بني وعلان حاملاً جريمة لم تحدث من قبل، وتعامل مع الحدث وكأنه لم يكن، ولم يتوقف إلا أمام دكان جرير، وأخذه على انفراد وطلب منه ألا يتأخر في الحضور، لاستقبال بني علي وبني شامخ، هز جرير رأسه، وأخبره أن الأمر لم يفارق تفكيره، وأنه جدد المخطط، ولم يترك للفشل أي ثغرة...

وفي الساعة الثانية بعد الظهر، توافدت الوفود من بني علي، وبني شامخ إلى ديوان طاوي، وكل وفد يصل، يترجل رجاله من سياراتهم، ويدخلون في صفوف،و يرددون «الزوامل» والأهازيج المعتادة، ومنها قولهم:

إحنا عزمنا واتكلنا ... نبقى سوى عاطش وراوي

وبالرضا اخترنا اتفقنا...شيخ القبيلة شيخنا طاوي

وطـاوي وجـرير وبعـض أبنـاء بـني وعـلان يسـتقبلونهم، ويرحبـون بهـم، ويحملـون عنهـم بنادقهـم، ويعلقونهـا في «معالـق» الديـوان الكثـيرة، ومـاهي إلا سـاعة، وقـد امتـلأت جوانـب الديـوان، وبـدأ المتوافـدون الجـدد، يفترشـون الوسـط، وقـام عاقـل بـني عـلي يدعـو النـاس إلى التوقيـع عـلى الوثيقـة الجديـدة لطـاوي، فوقَّـعَ الكثـير مـن بـني وعـلان، بعـد أن وقعهـا غالبيـة بـني عـلي، وبـني شـامخ..

واتفـق الجميـع عـلى أن تسـير الأمـور بسـلام، وبـدون أي نزاعـات وخصـام، واختـاروا ثلاثـة للذهـاب إلى الشـيخ جلمـود، وإقناعـه بالتنـازل لطـاوي؛ الـذي اسـتعد لحفـر الآبار، وبنـاء سـد، ومتابعـة الحكومـة في المشـاريع الكثـيرة، والـتي لم ترَ منهـا القبيـلة شيئاً، كان الثلاثـة المختـارون هم جـرير وعاقـلا بـني عـلي وبـني شـامخ...

كان الشـيخ جلمـود، عـلى اطـلاع كامـل بمـا يـدور، وكان ديوانـه قـد امتـلأ بالرجـال، مـن بـني ناجي، وبـني منصـور، وبعـض مـن بـني وعـلان، وكان ابنـاه في مقدمـة الديـوان...

وصـل جـرير مـع العاقلـين، وكان أشـدهم رعبـا، وأكـثرهم خوفـاً، مـن أن تنكشـف المؤامـرة، وأنـه وراء هـذه الإثارة، وحامـل تلـك الـشرارة، وقـد اتفـق معهمـا، بأن يتحـدث نيابـة عنهمـا عاقـل بـني عـلي؛ فصوتـه جهـوري، ولا يـتردد أو يتلعـثم، ومـا إن دخلـوا الديـوان، وسـلموا بالتحيـة بـدون مصافحـة، تحـدث عاقـل بـني عـلي طالبـاً الحديـث عـلى انفـراد، مع الشـيخ جلمـود، لكـن جـواب الشـيخ كان مفاجئـاً، فقـد طلـب منهـم الجلـوس، وأن يكـون كل مـا يـدور واضحـاً جليـاً أمـام الحضـور، فأجابـه عاقـل بـني عـلي قائـلا:

-يا شـيخ، لـك قـدرك ومكانتـك، لكـن القبيـلة بحاجـة إلى مصـالح وآبار

وسدود، وطاوي تعهد بخدمة القبيلة، وبني علي وبني شامخ قد وقعوا، ونطلب منك الموافقة، والتنازل عن المشيخ له.. فقام مردم أحد أبناء الشيخ وصاح قائلا: ما هذه السخافة، ولولا أنكم تحت السقف، لملأت بطونكم بالرصاص، بيننا وبينكم الحرب، يا بني علي أنتم وبني شامخ...

كان جواب مردم قاسياً، ويعد عيبا كبيراً، لكن والده تدارك الأمر، وأجلسه بقوة، وأسكته وزجره، وأما عاقلا بني شامخ وبني علي فخرجا غاضبين، بينما تقدم جرير إلى الشيخ جلمود، وجلس بين يديه، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، يطلب منه الهدوء والروية، والحكمة والعقلانية، ووعده بأنه سيسعى في حل هذه القضية، وإطفاء هذه الشرارة الغبية، وقدم نفسه على أنه وسيط، وعلق القاضي بقوله لجرير: احلب حلباً لك شطره.. لكن جرير تظاهر بعدم سماعه، وخرج مسرعا، ليلحق بالعاقلين...

كان الجميع في ديوان طاوي بانتظار الجواب، وما إن دخل العاقلان، حتى قالا بصوت واحد: قوموا يا أصحابنا، ذهبنا له بالطِّيْبْ، لكنه يريد الحرب، ووجها خطابهما لطاوي قائلين: أنت من اليوم شيخنا، ويرضى من رضي، ويواجهنا من عارض، لكن لا تخذلنا ...

وقام الجميع حاملين بنادقهم، وركبوا سياراتهم، واتجهوا إلى حدود بني شامخ، والقريبة من بني وعلان، وصعدوا الجبال، وأطلقوا الرصاص في الهواء، لدعوة من لم يلتحق، وتنادى شباب ورجال بني علي وبني شامخ، استجابة لدعوة العاقِلَيْن، وتبادلوا فيما بينهم العيب الأسود الذي قابله بهم مردم ابن الشيخ جلمود، وتعاهدوا على تنصيب طاوي، شيخا للقبيلة، ملأوا الجبال المطلة على بني وعلان جميعها، وحملوا الرشاشات الكبيرة، وأخرجوا المدافع المخبأة...

وفي المقابل خرج كل من في ديوان الشيخ، يتقدمهم مردم وأخوه معصم وصعدوا جبال بني وعلان، والمطلة على بني شامخ، وحملوا الرشاشات

التقيـلة، والهـاونات الكبـيرة، والتحـق بـني منصـور وبـني ناجي، وامتـلأت الجبـال، بانتظـار شرارة البدايـة، كان الشـيخ جلمـود أمـام مـنزله، وبجـواره القـاضي شمـس الـدين، يسـتمع للمرافقـين، عـن آخـر التفاصيـل. أمسـك بيـده القـاضي، وأخـذه عـلى انفـراد، وأخـبره أن القبيـلة الآن انقسـمت نصفـين، والنـار تنتظـر الـشرارة الأولى، وأن هـذه الحـرب خـاسرة، وذكَّـره بالحـرب السـابقة، مع إحدى القبائـل المجـاورة، والتي ذهـب ضحيتهـا اثنـان مـن أبنـاء الشـيخ، وسـتة مـن أبنـاء القبيـلة، التفـت إليـه وكأنـه ذكـره بأمـرٍ قـد نسـيه، ووضع يـده عـلى كتفـه، وقـال: وهـل تريـدني أتنـازل لهذا اللـ.. قاطعـه القاضي قائـلا: تسـتطيع أن تطـفئ الفتنـة بـدون تنـازل...

وأقبـل جـرير مسرعـا، وطلـب مـن الشـيخ وأد الفتنـة، وإخمـاد النـار قبـل اشـتعالها.. أخـذ بأيديهـما وأدخلهمـا الديـوان، وكل منهـا يطـرح رأيـه، وقـد لـقي اقـتراح جـرير، موافقـة مبدئيـة عنـد الشـيخ، حيـث اقـترح أن يصبـح طـاوي هـو الشـيخ، كفـترة اختبـار وتجربـة، وأن يكـون الشـيخ جلمـود هو كبـير القبيلة وراعيهـا، وافـق الشـيخ عـلى الاقـتراح مكرهـا لا مختـارا، بعـد أن رأى تهـور ولَدَيـه في حـرب بـين الإخـوة، ولم يعـارض القـاضي، بـل وجـده حـلاً قبـل أن تنعـدم الحلـول، وقبـل أن تسـقط الدمـاء، واتفقـوا جميعـا، عـلى أن يرسـل الشـيخ جلمـود، إلى المرابطـين بالـنزول مـن الجبـال، وأن يتحـرك جـرير ومعـه القـاضي، إلى الجبهـة المقابـلة، وإنزالهـم مـن الجبـال، وإعـلام الجميـع بوجـود حـل، بـدلا مـن الحـرب، وأن يكـون هنـاك اجـتماع جامـع، في صبـاح الغـد، بجـوار السـوق...

ونزل مـردم مسرعـا، يسأل أباه عـن الحـل؟ فأخـبره أبـوه بموافقتـه أن يصبح طـاوي شـيخا للقبيـلة، عـلى أن تبـقى مكانتـه ككبـير للقبيـلة... استشـاط مـردم غضبـاً، بينـما أبـوه يذكـره بأخويـه اللـذين أخذتهـما حـرب سـابقة، وبأنـه لا يريـد خسـارته وأخيـه، في حـرب خـاسرة، وعـض مـردم شـفتيه بقـوة، ودخـل المـنزل ولم يخـرج، وكذلـك تبعـه أخيـه معصـم، وتفـرق النـاس بانتظـار الغـد...

25
الشيخ طاوي

وانطفأت شرارة حرب كادت أن تشتعل، وعاد جرير المقص إلى طاوي، قبل أن يطوي الليل رداءه، يطوي الأخبار السارة، ويبشره بقرب البشارة، وأن غدا لناظره قريب، وطاوي يبادل جرير النظرات، ويعده بالمفاجآت، وأن تكون له أعلى المقامات.. وجرير لا يطلب سوى الخلطات أن تعود لمجدها، وتأخذ حصتها، وتخرج من حبسها.. وطاوي يهز رأسه، ويدخل يده جيبه، ليخرج ربطة من النقود، ويدسها في جيب جرير، وتتعالى الضحكات، في حين لا يعلم المرافقون، وهم أسفل الديوان، بما يدور في أعلاه، بين طاوي والمطوع جرير...

وأشرقت شمس الثلاثاء على بخيت وسعيدان، وهما يرتبان المكان، ويستقبلان الواصلين، واجتمع خلق كثير، يتقدمهم عقّال المناطق الأربع، وبينما الشمس توزع دفئها، وتقبّل رؤوس الأشجار، كانت سيارة الشيخ جلمود قد أقبلت، يرافقه جرير المقص، ولم تمض دقائق حتى وصل طاوي يرافقه القاضي، وامتلأت ساحة السوق بالناس، بدأ الشيخ جلمود كلمته، من على دكّة مرصوصة، مرحّبا بالجموع القادمة، وبأنه يريد مصلحة القبيلة، ولا يريد سفك الدماء، وطالب الجميع بأن يكونوا معه في المتابعة والإشراف، وختمها بالتمني لطاوي بالتوفيق والسداد، وأخرج ورقة من جيبه، ووقعها ودفعها إلى طاوي، وتعانقا وصفق الجميع، وقام بعدها طاوي وألقى كلمة مكسرة، شكر فيها الشيخ جلمود، وكرر وعوده السابقة، بحفر الآبار وبناء سد، والكثير من المصالح، وصفق له الجميع.. ثم تحدث جرير مباركاً للقبيلة هذه الروح الطيبة، والأخلاق النبيلة، ودعا من لم يوقع إلى التوقيع، للشيخ طاوي، وقام بخيت وسعيدان، بإطلاق الرصاص في الهواء، وتبعهما الكثير، وما إن هدأت فورة الرصاص، حتى قام أبو

ناهل، صاحب ورشة التشليح، وصاح في الناس، أن هذه المناسبة كبيرة، وأن الحكمة حقنت الدماء، وأن الجميع معزوم للغداء غدا، وفي المقدمة الشيخ طاوي والحاج جلمود، وقد أعدَّ ثلاثة قِعْدان وثلاثة ثِيران، وستة خِرفان...

وأصبح طاوي هو الشيخ، بينما التصقت صفة الحاج بجلمود، وأقبل الناس إلى الشيخ طاوي، يصافحون ويباركون، وغادر الحاج جلمود، بعد أن همس معتذراً، في أذن أبو ناهل، بأنه لن يستطيع الحضور غدا للغداء. وبينما الوفود تتفرق، إذ أقبلت سيارتان، تخرجان من بني وعلان، وتسيران بسرعة فائقة، متجهتين إلى الخط العام، خارج القبيلة، وكانتا لولدي الحاج جلمود، واللذان غادرا القبيلة غاضبين جدا، لما آلت إليه الأمور..

***

وعند الظهيرة والشمس في كبد السماء، أقبلت سيارة جيب سوزوكي حمراء اللون، موديلها حديث، عليها ثلاثة أشخاص، توقفت أمام منزل القاضي، ونزل منها الدكتور أمير، ومعه اثنان من الألمان، ونزل خبر وصول الدكتور أمير، على المطوع جرير، كالصاعقة، فالفرحة لم تكتمل، والخلطات لم يخرج بها تصريح، والشيخ طاوي ما يزال عوده طريا... وعلم الدكتور بالتطورات الجديدة، وما إن تناول غداءه، حتى أخذ الفريق الذي معه، وذهبوا إلى منزل طاوي، وقد تفاجأ بذلك البناء الضخم، والمفاجأة الأكبر كيف أصبح طاوي هو الشيخ! استقبلهم الشيخ طاوي ورحب بهم، وأدخلهم الديوان...

وأقبل الناس للمقيل والمباركة، وللسلام على الدكتور أمير، وكانت المصافحة مزعجة، فقد صافح الجميع، ولابد أن يقف للمصافحة، وهي عند البعض عذاب نازل، فلا يكتفي بمصافحة اليد باليد، ولا الأنف بالأنف، ولا بالعناق وتقبيل الأكتاف، وإنما يتكلف المصافحة تكلفاً لا تعرفه القبيلة،

ولم يكن شائعاً، ولا متقبلاً ولا معروفا، ولا تفعله النساء بالنساء، فقد يفرك خديه بخديك، بقوة وجلافة، حتى يخيل إليك، أن جلدك قد انسلخ، وقد يقبل خديك بصورة مستفزة، وبإصرار عجيب، تاركاً بصمة بصاق لاصق...

تحدث الدكتور أمير، كيف حاز على المراتب الأولى، واستلم الجوائز والكؤوس في دراسته بألمانيا، وكيف كافأته ألمانيا بالتكفل ببناء مركز للمعالجة والأبحاث الجينية، وأخبرهم بأنه أحد العشرة المتخصصين على مستوى العالم في علوم الجينات والشفرات الوراثية.

كان جرير قد اتخذ له مكانا مقابلاً، يسترق السمع ولا يتكلف الرد، ويقرأ ما بين السطور، وما إن انتهى الدكتور من حديثه، حتى أشار للشيخ طاوي بكلمة على انفراد، وانفرد بالشيخ وحدثه عن المرافقَين اللذين معه، وبأنهما من السفارة الألمانية، لبناء مركز طبي لمعالجة الناس وللأبحاث، وأنها ستتكفل بكل التكاليف، وأنه يرغب ببنائه بجوار منزلهم، تردد طاوي في الرفض أو القبول، فليس من داع للرفض، وليس هناك مانع من القبول، وطلب مهلة لبعض الوقت، لكن الدكتور ألح عليه، وأخبره أن الخبراء سيعودون الليلة، ولابد أن يُحَدَّدَ المكان، هز الشيخ طاوي رأسه، وقال سآتي معك لتحديد المكان، فانتظرني لدقائق.. خرج الدكتور أمير ومعه الخبيران، بينما أشار طاوي لجرير، وأخبره بالخبر، فارتعش وكأنما لدغه ثعبان، وأخبر طاوي بأن هذا محال، وكيف يكون مركز طبي كبير وسط الأحياء والبيوت، وفيه مخاطرة ومواد خطرة، وخاصة حينما يكون مركز أبحاث، فهذا يعني الكثير من الإشعاعات الخطيرة، والتي تسبب الأمراض المستعصية.

فسأله طاوي وما الحل؟ فلابد أن نجد له مكاناً، خاصة والمركز مجاني من السفارة الألمانية! وأجابه بأن المكان الأفضل أن يكون خارج الأحياء في مكان بعيد، وأن يكون متوسطاً لكل القبيلة، وأشار عليه بأن يكون في

الوادي الأعلى.. وافق طاوي وخرج إلى الدكتور وأخبره بأن البناء بين الأحياء مرفوض، وأفضل مكان لهذا المركز في الوادي الأعلى، حاول الدكتور مرارا وتكرارا، لكن الشيخ أصرَّ على ذلك المكان، فوافق الدكتور على مضض..

وصاح طاوي لجرير وبخيت أن يسيرا أمام سيارة الدكتور، وكلف جرير بتحديد المكان، وسارت السيارة يقودها بخيت، ولم تتوقف إلا عند أطراف القبيلة، وهناك نزل جرير وقال هنا، ونظرات الدكتور مليئة بالأسى والحزن، وهو يقول: ومن سيستفيد من المركز في هذا المكان؟ وهمهم جرير بقوله: هذه أوامر الشيخ طاوي. التفت الدكتور إلى الفريق، وخاطبهم بأن هذا هو الموقع، فأخرجا عدتهما، وقاما بتخطيط المبنى وكل ملحقاته على الأرض، بألوان مختلفة، وأخبراه بأن العمل سيبدأ من الغد، وأوصلهما إلى صنعاء، بينما عاد بخيت وجرير، إلى الشيخ طاوي...

وفي صباح الأربعاء، ومع زقزقة العصافير، والفجر يصارع الظلام، تحرك طاوي مع مرافقيه، وقد أخذ الوثيقة التي وقّع عليها أبناء القبيلة، واتجه نحو صنعاء، ليضع لاسمه وشخصه كياناً في مصلحة شؤون القبائل، والذي يخصص رواتب مغرية للمشايخ والوجهاء، وصل صنعاء في الثامنة والنصف صباحا، ولم يجد سوى الحارس، والذي أخبره بأن الموظفين لا يأتون إلا بعد التاسعة، ومن حسن حظه، أن رئيس المصلحة سيداوم اليوم، لاجتماع المكافآت المعتاد، والذي يعقد كل شهر، طلب طاوي منه أن يصفه له، فاختصر الوصف وقال سيارته تويوتا كروزر زرقاء موديل ٢٠١١، توجه طاوي ومرافقوه إلى مطعم قريب، يبيع الفول والفاصوليا مع «الكدم» الدافئة، وأكلوا منه حتى شبعوا، وبينما كان طاوي ومرافقوه يرتشفون قهوة البُن، كان الموظفون يتسابقون إلى المبنى، وبعد لحظات أقبلت السيارة الزرقاء، وفتح لها الحارس البوابة، فقفز طاوي كالسبع وراءها، ومن خلفه المرافقون، ولم يستطع الحارس إبعادهم، فقد كان منشغلاً بفتح البوابة

وإغلاقها، خرج رئيس المصلحة من السيارة، وخرج مرافقوه، وظن أن الأمر فيه اختطاف، فأخرج مسدسه، وفتح مرافقوه «أمان» أسلحتهم، واستعدوا لمعركة وشيكة، لكن ابتسامة طاوي، ومد يده للسلام، أعادت بعض الطمأنينة للرجل، وأخبره بأنه جاء مراجعاً، فلم يلتفت رئيس المصلحة، وقال له: ضع السلاح في البوابة، وأخرِجْ المرافقين واتبعني، وضع طاوي سلاحه، وأخرج المرافقين، وتبع المسؤول، وهو يترنح في الدرج لخمس دقائق، فقد كانت بطنه كبيرة، وجثته ضخمة، مع أنه لا يزال في الأربعين من عمره، وما إن وصلا مكتب المسؤول، حتى سأله عن طلبه، فأخرج طاوي الأوراق، وحكى له القصة، وكيف اختارته القبيلة، كبيرها وصغيرها، فالتفت إليه المسؤول وقال له: وماذا تريد؟ فأجابه طاوي: أريد مليون ريال راتباً شهرياً، كبقية مشايخ القبائل، ضحك المسؤول ضحكة مجلجلة، واتكأ على كرسيه الضخم محدثا أزيزا صارخاً، وقال: أين ضيعت الغنم؟ وأجابه طاوي: أنا الشيخ طاوي الليل جولبة، فلا تسخر، ليرد عليه المسؤول قائلا: شيخ القبيلة المعروف لدينا، هو الشيخ: جلمود زيرم، وأبناؤه أحدهما مدير أمن تعز، والآخر مدير جمارك، وأنت يا جولبة: اذهب ارعَ غنماً، أو احرث الأرض، وواصل حديثه قائلاً: كل واحد يجمع له عشرة صعاليك ويأتي يقلد أنه شيخ.. ورمى بالأوراق نحو طاوي...

نهض طاوي وجمع أوراقه، وقبل أن يخرج من المكتب، التفت وقال له: هذا آخر كلام عندك؟ فرد عليه، بعد أن نزع نظارته الشمسية وقال: أول وآخر كلام...

خرج طاوي من المبنى غاضبا، وركب سيارته، ووجه بخيت لقيادة السيارة، والتحرك بسرعة نحو القبيلة، وأمسك شاربه بإصبعيه، وقال: سأعرفه من هو الشيخ طاوي! وأخذ يتمتم ويهمهم ويحدث نفسه، بينما الجميع في صمت، قرر سعيدان أن يكسر حاجز الصمت، وأن يخفف

النار التي تتقد في صدر طاوي، والظاهرة في حركات يده، ونتف شاربه، فقال: يا شيخ، نحن رجالك ونحرقها حريقاً.. ما الذي يضايقك؟ لم يلتفت طاوي، وضرب بقبضة يده على زجاج النافذة المغلق، وقال بصوت واضح: سيعرف من أنا!...

وما إن بلغوا مشارف القبيلة، حتى أشار طاوي لبخيت، بأن يتجه نحو المعسكر، والذي يربض في الجبال الواقعة أقصى القبيلة، وخرجت السيارة من الطريق الإسفلتي، وسلكت طريقا ترابيا، وبينما هم في الطريق، إذا بشاحنة كبيرة، من شاحنات المعسكر، محملة بقطع غيار للسيارات والمدرعات، تسير بسرعة خفيفة، طلب طاوي من بخيت، أن يتجاوزها، ويقف أمامها، وبعد أن تجاوزها و توقفت.. نزل طاوي، وصوب رشاشه نحو السائق، وكذلك المرافقون الأربعة، وتسلق بخيت، وفتح باب الشاحنة، وسحب السائق العسكري إلى الأرض، ومحرك الشاحنة لا يزال يدور بينما حاول مرافقا السائق رفع سلاحيهما، لكن سعيدان وخالد باغتاهما بفتح الباب وسحباهما بسرعة، وأخذا سلاحهما، ووضعاه في سيارة طاوي.. وسأل طاوي مرافقيه، من يستطيع قيادة الشاحنة؟ فصعد بخيت، لكنه لم يستطع تحريكها، فأخذ طاوي بيد السائق الجندي، وطلب منه تدوير الشاحنة، والسير بسرعة خلفه، وطلب من الجنديين أن يبلغا قائد المعسكر: بأن الشاحنة مع طاوي الليل؛ شيخ قبيلة بركان، وستتوقف في بني شامخ، عند أبو ناهل، حتى تحقيق المطالب. وصعد السائق الجندي، وصعد بجواره خالد وسعيدان، وانحرف بالشاحنة، إلى طريق العودة، وصعد طاوي سيارته، يقودها بخيت ومعهما مريس، وما إن غادرت الشاحنة، حتى ترجل الجنديان نحو المعسكر.

كان عنصر المفاجأة، هو الذي أربك الجنود، وأفشل مقاومتهم، وكان قرب المكان من المعسكر، هو الذي جعل الجنود في اطمئنان، وحتى السيارة العسكرية التي ترافق الشاحنة، تجاوزتها وانطلقت إلى المعسكر،

فذلك المكان يعد من توابع المعسكر، ولا تفصله عن بوابته سوى ثلاثة كيلومترات.

انطلقت الشاحنة بسرعة، تلحق بسيارة طاوي، وانعطفت باتجاه بني شامخ، ولم تتوقف إلا أمام منزل أبو ناهل. كانت الشمس في كبد السماء، وكان الناس يتجمهرون بأعداد غفيرة، فاليوم هو موعد العزيمة، التي دعا إليها أبو ناهل، وتحلق خلق كثير حول الشاحنة، بينما بقي المرافق خالد بجوارها..

كانت لأبو ناهل صداقة وثيقة بقائد المعسكر، وما إن انتهى الجميع من الغداء، حتى أقبل قائد المعسكر في سيارة واحدة، وبثلاثة مرافقين فقط، لكي لا يستفز أبناء القبيلة، ولا يوحي لهم بأنه صاحب القوة، فالمعسكرات وإن كانت كبيرة، إلا أنها تظل أمام القبيلة صغيرة، واستقبله أبو ناهل، بعد أن عرف أن الشاحنة منهوبة، وقد تفاجأ قائد المعسكر، من التطورات الجديدة، والتي أطاحت بشيخ قبيلة بركان، وجعلت طاوي هو الشيخ الجديد، وتفاجأ أكثر بتلك الجموع الغفيرة الحاضرة، وطلب الحديث مع الشيخ طاوي على انفراد، وسأله عن مطالبه، وأخبره طاوي بقصته، مع رئيس مصلحة القبائل، ووضع شروطا جديدة؛ منها دفع مبلغ عشرة ملايين ريال، وراتب له، ولولده حيدان، فوعده القائد بحل الإشكال، وأخبره لولا عدم وجود إرسال لتمّ حل الأمر بالاتصال، في اللحظة والحال، وطلب الشاحنة أن تعود، لكن طاوي رفض، وأصر على التنفيذ قبل أن تتحرك الشاحنة.. وغادر قائد المعسكر، وأجرى اتصالاته، وضرب موعدا في الغد مع رئيس المصلحة، وكتب رسالة قصيرة، حدد فيها موعد المقيل غدا، في بيت رئيس مصلحة شؤون القبائل، وأسفلها رقم تلفونه، وأرسلها مع العساكر إلى طاوي، وما إن وصلت الرسالة إلى طاوي، حتى طلب من أبو ناهل سيارة شاص جديدة، تحت الحساب، ولم يتردد أبو ناهل، وسلمه سيارة شاص بيضاء موديل ٢٠١٠ ...

26
مركز الأبحاث

وفي صباح الخميس وعند الساعة العاشرة، كانت سيارتي الشيخ طاوي مع سيارة ثالثة قد امتلأت بالمرافقين المسلحين، والذين بلغ عددهم واحداً وعشرين مرافقا، ركبوا جميعاً، وخرج الشيخ طاوي، وقد حلق لحيته، وحدد سكسوكته، ورش بغزارة على ثيابه عطراً محلياً من دهن العود، أهداه إياه المطوع جرير المقص، ولبس معطفاً أحمرَ طويلاً، تحته ثوب أبيض، وربط على رأسه شالا أحمرَ، ووضع على كتفه شالاً أبيضَ، ولبس جنبيته، وحمل على كتفه رشاشه، وغرز في حزامه مسدسه، ركب السيارة التي يسوقها بخيت، وبينما الأطفال في الطريق، والصبايا والنساء تنظر من النوافذ، وبخيت يتلفت يمنة ويسرة، كأنه يبحث عن شيء مفقود، فيغمزه طاوي بيده، ويأمره بالتحرك بهدوء، وينطلق الموكب، متهاديا بين البيوت، ترميه العيون بنظرات الإعجاب، ويرمي القبيلة بآمال عريضة، ويشق طريقه .. وقبل أن يغادر طاوي القبيلة، شاهد معدات وأعمدة من الحديد، فسأل بخيت عنها، فأخبره بأنه المكان الذي حدده جرير، للدكتور أمير، فاحمرّ وجه طاوي وقال: يا له من مطوعٍ بليد! فالمكان هنا بعيد، وهذه أطراف القبيلة، وأشار إلى بخيت، بأن يتحرك صوب المكان.

وأقبل الدكتور أمير ليسلم على الشيخ طاوي، وأخبره بأن البناء لن يستغرق إلا أسابيع، فالشركة المنفذة تبني بالحديد، وبعدها تثبت التركيبات الجاهزة، ووعد طاوي بأن يكون المركز مفخرة للقبيلة وللبلاد كلها.. ابتسم طاوي وبارك له، وسأله أن يخبره إن احتاج لشيء فشكره الدكتور، ومضى الموكب في طريقه...

وصل الموكب أطراف صنعاء، والشمس في كبد السماء، التفت طاوي

إلى من خلفه من المرافقين وسألهم: هل أنتم جائعون؟ فصمتوا أجمعون إلا سعيدان أجابه قائلا: شكلهم صائمون، ضحك الجميع، وأردف سعيدان قائلا: يا شيخ، ملَّتْ بطوننا العصيد والهريش، واليوم بمناسبة أنك الشيخ، يكون الغداء(مَنْدي) وردد الجميع: نعم مندي يا شيخ!...

وبعد أن تناول الموكب الغداء، توقفوا أمام أحد أسواق القات، وكلف سعيدان بالشراء، وعاد ومعه عشرات الربطات، طويلة وطرية و ملفوفة، من القات الهمداني والخولاني، وبدأ اللعاب يسيل إلا أن طاوي أمرهم بالتأجيل، حتى يجدوا بيت المسؤول، ودفع إلى بخيت بالورقة التي عليها الأرقام، ليتصل ويسأل عن المكان، وخرج بخيت إلى الدكان، وعاد مبتسما يقول: عرفت المكان...

وتحرك الموكب باتجاه حي حَدَّة، وبعد الإشارة الأولى حسب الوصف، اتجه بخيت يمينا، ليتوقف بعد خمسمائة متر أمام بوابة زرقاء كبيرة، وما إن ترجل سعيدان من السيارة، ليقرع الجرس، حتى خرج رئيس مصلحة القبائل بنفسه، واحتضن سعيدان بسرعة كدُبٍّ يحتضن فأرا، وأخذ يقبله، بينما سعيدان يصرخ: لست أنا، لست أنا، لك العمى، لك العمى، طفحتني. وخرج طاوي لينقذ الموقف المميت، ويشد كتف المسؤول، ويأخذه إليه، ويغوص طاوي للحظات، في أحضان المسؤول، بينما سعيدان يجمع أغراضه التي تساقطت، ويعيد ربط شاله الذي تبعثر، وفتحت البوابة، ودخلت السيارات الثلاث، في حوش يتسع لمآت السيارات، تتوسطه فيلا كبيرة، تتألف من أربعة طوابق.. وبينما طاوي يشير لمرافقيه بالبقاء في سياراتهم، صاح المسؤول: لا يمكن أبدا، فعندي ثلاثة مجالس، فليتفضلوا في هذا المجلس.. وتدافع المرافقون إلى ذلك المجلس الكبير بجوار البوابة، والذي يمتد لحوالي ثلاثين مترا، بينما يد المسؤول تمسك بيد طاوي، يسيران في ممر طويل، تغطي أشجار العنب والتين جوانبه، وينتهي بعد السير لدقائق أمام نافورة كبيرة، تتراقص فيها المياه صعودا وهبوطا.. وتستمر خطواتهما

ليتوقـف مشـدوها أمـام بحيرتـين، إحداهمـا محاطـة بشـبك حديـدي، تقـف علـى جوانبهـا ثلاثـة تماسيح ضخمـة، وأخـرى مفتوحـة، يتمايـل علـى جوانبهـا البـط والإوز، نزلـت علـى طـاوي جبـال الدهشـة، وظـن شـيئا أصابـه، وأن ما يراه خيالاً لا حقيقة، وما إن التفت إلى المسؤول حتى أيقن بأن ما يراه حقيقـة لا خيـال، وبعـد خطـوات شـاهد بعـض الأقفـاص الحديديـة، وسمـع زئـيرا لأسـد، لكنـه لا يراه، ولم يقطـع الزئـير إلا صـوت المسؤول الـذي قـال له: لا تخـف يا شـيخ، هـن في أقفـاص مأمونـة، وصمـت طـاوي ولم يعقـب، وتوالـت الخطى ليشـاهد ثلاثـة مسـابح كـبيرة، أحدها تحـت الشـمس، ويسـبح فيـه بعـض الأطفـال، وتـترنم موسـيقى هادئـة، وبعـد خطـوات ينفـرج الممـر أمـام حديقـة كـبيرة مغطـاة بالعشـب الأخـضر، وفي أطرافهـا ثلاثـة خيـول، وأقبلـت بعـض الغـزلان إلى المسـؤول، فأخـذ شـيئا مـن إناء معلـق، وألقـم كل واحـدة منهـن لقمـة، وانطلقـن يتراقصـن في ذلـك الفنـاء، بينما تتراقـص في رأس طـاوي ألـف قطـة وألـف فـأرة، وبعـد خطـوات توقفـا، وأقبلـت خادمـة جميـلة، ظنهـا طـاوي زوجـة المسـؤول.. ومـا إن اقتربـت عـرف أنهـا فلبينيـة، وصبـت له قهـوة في صينيـة زجاجيـة صغـيرة، وشربهـا سريعـا، وشـكرها عـلى القهـوة، فابتسـمت وضحـك المسؤول، وتحـركا لخطـوات، وظهـر أمامهـما بـاب زجـاجي، انفتـح بقدومهـما لتظهـر مـن خلفـه قبـة كـبيرة زرقـاء، ينفـذ الضـوء مـن خلالهـا، وينعكـس عـلى الفسيفسـاء بداخلهـا، فتتشـكل ألـوان زاهيـة، وأضـواء متداخـلة، ولم يفكـر طـاوي إلا في نعـاله، هـل ينزعهـا أم يسـير بهـا، وراقـب قـدمي المسؤول، وسـار بهـا حـين وجـده بنعـاله، وبعـد اجتيـاز القبـة العجيبـة وقفـا أمـام المصعـد الـذي انفتـح بوصولهـما، ضغـط المسـؤول الـرقم أربعـة، وانفتـح البـاب عـلى صـالة طويـلة، تمتـد لعـشرين مـترا، قـد امتـلأت بالأجهـزة الرياضيـة، وبعدهـا صـالة أخـرى، مفروشـة بالسـجاد الإيراني الفاخـر، وهنـا قـرر طـاوي خلـع نعليـه، بينـما المسؤول لم يخلعهـما، واسـتمرا في السـير، حـتى وصـلا إلى البـاب، وأشـار المسـؤول بيـده وقـال: تفضـل يا شـيخ.. تجـاوز طـاوي البـاب، ومـد بـصره عـله يرى أحـدا فيسـلم عليـه،

وخطى خطوات فإذا بقائد المعسكر هناك، فصافحه وجلس، وأدرك القائد شرود طاوي وحيرته، فقال له: هؤلاء هم المسؤولون الكبار يا شيخ. لم يجبه طاوي، وأخذ يقلب بصره في زخارف السقف تارة، وفي الأواني الذهبية أمامه تارة أخرى، وفي أكوام القات المتراكمة وسط المجلس، والتي تكفي لثلاثمائة، فكيف بثلاثة.. أقبل المسؤول مرحبا بالشيخ، وفي يده إناء فيه عسل، وصب لطاوي كأساً، وللقائد كأساً، ولنفسه كأساً، وشربوا جميعاً، ثم دفع نحو طاوي بربطات من القات، تكفي لعشرة، ونسي طاوي القات الذي اشتراه، وأخذ يقطف أغصان القات ويلتهمها، ولم يقل شيئا، ولم يعد في رأسه شيء، وبعد حوالي الساعة، قرر الوداع، ولم ينتبه إلا لصوت المسؤول يقول له: اعتبر الموضوع جاهزاً، وراتبك مليون، ولولدك نصف مليون، وخذ هذا الكيس في داخله عشرة ملايين ريال، حسب طلبك.. حمل طاوي الكيس، ولم تعد قدماه بقادرة على حمله، وأخذ يتهادى في المجلس، فقام القائد وأمسك بيده، وسأله ما الذي جرى له، وهل يشعر بدوخة أو مرض، فأجابه أنه بخير، ولكنه يحتاج إلى من يرشده، في طريق الخروج من المنزل، وضغط المسؤول أحد الأزرار بجانبه، وحضر أحد الخدم، وأمسك بيد طاوي حتى أوصله إلى البوابة...

لم يكن يتخيل طاوي أن يرى ما رآه، وأن للمسؤولين كل هذا الثراء، وكل هذا البذخ والترف، ولم يدر بخلده، أن يخرج حاملا الملايين، سلاماً بسلام، بلا حاجة إلى تقطع أو اختطاف، وازداد غرابة كيف انتهى الأمر، وتغير الحال والاستقبال، وكأن ما جرى جزء من خيال.. تتابعت في رأسه النفحات، والتفت يمينا ويسارا، ليتأكد أنه أصبح الشيخ الذي تفتح له الأبواب المغلقة، وتصرف له الرواتب الضخمة، ورأى الموكب خلفه، فاستيقن أنه في الحقيقة لا الخيال، وأن الأمس قد ذهب بكل صوره، وشد الشال على رأسه، وبينما جميع المرافقين هادئون وواجمون، قد ملؤوا الأكياس برؤوس القات، ويلتهمونه بهدوء، وبخيت يقود الموكب بسرعة متوسطة، ولا أحد يرغب بالحديث، ولا متحدث سوى الراديو الذي

تحشرج صوته بعد تجاوز حدود صنعاء، التفت طاوي إلى بخيت وأخبره أن يتوجه إلى بني شامخ، وأن يخبر بقية الموكب بالعودة إلى بني وعلان، توقف بخيت، وأخبر بقية الموكب بتوجيه الشيخ، واستمر في طريقه نحو بني شامخ، وما إن وصلوا أمام منزل أبو ناهل، إلا واستقبلهم بالترحاب، ووجه طاوي بإطلاق سراح الشاحنة، والتي تحركت في الحال، وطلب من أبو ناهل أن يخبر صاحب الجرافة أن يأتي من الغد، لتسوية الأرض في بني وعلان، في الوادي الأعلى...

***

وقبل أن يغادر طاوي بني شامخ، أوقف بخيت أمام منزل نورة، وهي امرأة مشهورة تدَّعي معالجة العين والسحر، ومعرفة الأحوال، مع أنها أمية لا تعرف القراءة والكتابة، ولا تحسن الصلاة ولا العبادة.. ومنزلها الصغير مبني من الطين، له حوش صغير، يقع عند أطراف بني شامخ، تحيط به أشجار السدر والطلح.

خرج طاوي، بينما وجَّهَ مرافقيه بعدم لحاقه، ودلف إلى الباب، واستقبلته طفلة لا تتجاوز الثامنة، وسألته إن كان يريد أمها نورة، فهز رأسه، وأخذت بيده، إلى درج ضيق ومظلم، ينتهي إلى الدور الثاني، عند حجرة صغيرة. فخلع نعليه، والطفلة تجره بيده، حتى دخل إلى غرفة، شبه مظلمة، تجلس في زاويتها، امرأة في العقد الرابع من عمرها لا يرى منها غير عينيها، قد التحفت رداءً أسودَ، يزيد ظلام الغرفة، سألته عن حاجته، فرد عليها بأنه الشيخ طاوي، وجاء للسلام عليها. فاعتدلت في جلستها وابتسمت، حتى ظهر بياض أسنانها، ورمت بردائها، ومدت يدها مصافحة، وقالت: الشيخ الجديد، يا مرحبا بك، فأنت شيخ مبارك، ولست مثل الشيخ جلمود، فقد كان يكرهني، ولم يزرني قط، وصبت له كوبا من القهوة، من إبريق أصفر بجوارها، وناولته فشربها، وأخرج لها ربطة من النقود، فيها مائة ألف ريال، وودعها. ورافقته وهي تكرر الثناء، حتى ركب سيارته...

27
جبل الولي

كان طـاوي قـد توقـف تماما، عـن القطع في الطريـق العـام، منـذ أصبـح شـيخاً للقبيـلة، وبعـد أربعـة أشهـر وجـد نفسـه أمـام اسـتحقاقات كثـيرة، لم تكـن موجـودة، لحفـرُ الآبار ومسـاعدة بعـض المحتاجـين والعطـايا المتكـررة للعقّـال وللأعيـان، عـلاوة عـلى رواتـب المرافقـين والعمـال، وتكاليـف معامـلات تجهـيز السـد...

قـام باسـتدعاء جـرير، والـذي أصبـح مستشـاره عنـد كل مهمـة ونفـير، وجـاءه عنـد الثامنـة مسـاءً، وفي يـده عصـاه، فأخـبره طـاوي بمـا يغـلي في رأسـه، وبأن مصـادر الدخـل صـارت غـير كافيـة، وجـرير يذكـره بمـا هـو فيـه مـن وفـرة، إلا أنـه أصر عليـه، بنـبرة فيهـا تهديـد ووعيـد، بالبحـث عـن مصـدر مُـدِرّ يجمـع بـه الملايـين، فأمسـك جـرير بأنفـه الكبـير، وطلـب مهلـة لأيام، حتـى يفكـر بإحـكام، ويأتيـه بالغايـة والمـرام، فـرد عليـه طـاوي: بأن مهلتـه ثلاثـة أيام فقـط، وإلا فـلا يلومـن إلا نفسـه ...

وبعـد أيام مـن انشـغال الشـيخ طـاوي بأمـر السـد، كان يـوم الخميـس هـو موعـد زيارة اللجنـة الحكوميـة مـع المهندسـين مـن الشركـة الصينيـة المنفـذة، وقـد وقـف طـاوي مـع المرافقـين وبعـض المواطنـين في الـوادي الأعـلى بانتظـار الـزائرين، وعنـد العـاشرة صباحـاً أقبلـت سـيارتان كـروزر، إحداهمـا تحمـل سـتة مـن الصينيـين، والأخـرى أربعـة مـن اليمنيـين، فأخـذهم طـاوي إلى المـكان المحـدد لبنـاء السـد، والـذي يقـع بـين حـدود بـني منصـور مـع بـني وعـلان، وبـدأ المهندسـون الصينيـون يقيسـون بآلاتهـم المسـافات.. واقـترب منهـم حيـدر ليسـاعدهم، ويتحـدث معهـم، وفرحـوا بـه كثـيرا.. فهـو يتقـن لغتهـم، والـتي تعلمهـا حـين عمـل مـع الصينيـين ثـلاث سـنوات في طريـق

صنعاء-ذمار، وهو الآن مدرس في المدرسة الابتدائية.

وأما جرير فيتأمل المكان، ويتخيل السد، لكنه يحمل عبئاً آخر يفكر فيه، وينتظر الحلول، وخطرت له الفكرة ودارت برأسه العجلة، وأسرع إلى طاوي، واقترب منه، ووضع شفتيه على أذن طاوي وقال: ألم تطلب الملايين؟ ألا تريد النقود الوفيرة؟ فتراجع طاوي خطوة للوراء، وشده إليه بقوة، وقال له: أترى ما نحن فيه؟ أجابه جرير: لهذا جئتك، وأريد منك أن تأخذ هؤلاء الصينيين إلى جبل الولي بأي حيلة وبأي ثمن. ويجيبه طاوي: وماذا يفعلون هناك يا مقص؟ ويرد جرير وقد وضع إصبعه على رأسه قائلا: طلعت الفكرة الآن، وستعرف نتائجها بعد ذلك.

هز طاوي رأسه موافقا. وعاد إلى اللجنة، والتي تجمَّعَ أعضاؤها تحت شجرة قريبة، وأشار إلى بخيت وسعيدان، بإحضار كرتون الرمان، ووضعه أمام اللجنة، فأكلوا جميعا، ووزعوا للمهندسين الصينيين، وأخبرهم طاوي أن الرمان، يرفع معدل «الكيف» للقات، فأخبره رئيس اللجنة أنه لا يخزن، لكنه بهذه المناسبة سيخزن. انتهى المهندسون من التخطيط بعد أن غيروا المواضع المقترحة من الشيخ طاوي، ووضعوا أماكن جديدة، وتم توقيع عشرات الأوراق، من الشيخ واللجنة، والمترجم يشرح أن العمل سيبدأ بعد أسبوعين، وأين سيكون البناء، وأين موضع المنافذ والمخارج...

وتم الانتهاء عند الحادية عشرة ظهرا، وطلب طاوي من اللجنة أن تسير خلفه في نزهة حول القبيلة حتى يحين موعد الغداء، فوافقوا جميعا على الفكرة، وركب سيارته، وجرير في المقعد المتوسط، حتى توقف أمام جبل الولي، والذي يقع في الوادي الأعلى، وهو جبل صغير، يتوسط القبيلة منفرداً ومنعزلاً عن بقية السلسلة الجبلية المحيطة بالقبيلة، وكأن شعاره «خالف تعرف»، وهناك روايات تروى، وخرافات تحكى عن هذا الجبل، منها أنه كان مكاناً لتعبد أحد الأولياء الصالحين، وكانت تنبع منه

ثلاثـة ينابيع تسقي مزارع القبيلة، وجفَّت بعد موت الولي الزاهد، ومنها أنـه كان سكناً لنمرٍ لا يُرى، ولا يخرج إلا بعد منتصف الليل، واعتادت القبيلة أن تنام مبكراً منذ ذلك الحين ...

وطلب الشيخ طاوي منهم الصعود إلى أعلاه، وصعدوا جميعا، يتأملون المزارع المحيطة، والجبال المتسلسلة، وكان الصينيون قد أخذوا حيدر معهم في سيارتهم، وأخذ يشرح لهم وهم يضحكون بقلوب بيضاء نقية، بينما المترجم المرافق يراقب بصمت. وأما بقية المواطنين، فقد تجمعوا عند موضع السد، وراقبوا بأعينهم تحرك السيارات، وتوقفها أمام جبل الولي...

وبعد الغداء والمقيل لبعض الوقت، غادرت اللجنة عند الساعة الثالثة عصرا، وأقبل جرير إلى طاوي، يخبره بسرعة التوجيه، ببناء سور حول جبل الولي، وتكليف حارس يحرسه. وضع طاوي يده على جبهة جرير، والتي كانت مختفية تحت شاله الملفوف ليتفقد حرارته، وابتسم جرير قائلا: امشِ خلفي وبس! أشار له طاوي بالنهوض، وأن يتبعه، ودخلا الغرفة الصغيرة، وطلب منه تفسير كلامه، فشرح جرير الخطة كاملة، وطاوي يضحك مستغربا ثم قال جرير: إذا نجحت الخطة كم نصيبي؟ فأجابه طاوي بلا تردد: لك النصف، وإن فشلت فالسجن ينتظرك...

***

وفي يوم الجمعة، وبينما المسجد الكبير، قد امتلأ حتى المنتصف، والشيخ طاوي على غير عادته، قد تربع في الصف الأول، وعلى يمينه ويساره عقّال بني شامخ وبني علي، وفي الصف الثاني يجلس القاضي وبجواره الحاج جلمود.. صعد جرير المنبر، وقد غرز غصن الريحان بين لفات الشال على رأسه، وبعد الحمد الثناء، والصلاة على النبي وآله، أبحر في معارك لغوية، يصارع البلاغة، ويصرع النحو، ولم يبدأ الخطبة كعادته في مدح

حسن البنا لكنه مدح الشيخ طاوي، وبشر الناس بهذا المنقذ الذي أنقذ القبيلة من العطش، فحفر لها الآبار، وبدأ ببناء السد، والذي سيوفر للقبيلة الماء، وستنمو الزراعة نموا كبيرا...

ثم توقف جرير أثناء الخطبة، وعيون المصلين ترقبه بشدة، وهو يقلب عينيه في كل أرجاء المسجد، وكأنه يبحث عن مفقود، وحين شد الانتباه، وأطبق الوجوم، على كل الأرجاء، إلا من ساعة معلقة على الجدار، تصدر صوتا خفيفا متقطعا، صاح جرير قائلا: أريد أن أبشركم، بشارة لا تتخيلونها.. اشرأبت الأعناق، وتوجهت الأنظار جميعها إليه، والكل يترقب البشارة.. توقف هنيهة ثم قال: ستودعون الفقر، فقد حدثت بالأمس معجزة، لم يكن أحد يتوقعها...ثم صمت وعيون الجالسين تراقب أنفاسه.. وواصل حديثه وقد رفع كلتا يديه وقال: قولوا الحمد لله والشكر لله، فضج المسجد بالحمد والشكر، ثم أردف قائلا: بحكمة الشيخ طاوي، وبحبه للقبيلة، فقد كشف الخبراء الصينيين بالأمس: أن جبل الولي ينام تحته كنز كبير من الذهب.. صاح مرافقو طاوي «الله أكبر ولله الحمد» وصاح معهم بقية الناس، وامتلأ المسجد تكبيرا، واكتست الوجوه فرحة غامرة، وامتلأت الأفواه بابتسامات ظاهرة.. ولم يكن أحد في المسجد إلا وظهر أو تظاهر بالفرح.. إلا المدرس حيدر، والذي تلفت يمينا ويسارا، لعله يجد أحدا مكفهر الوجه، أو ممتعض الملامح، أو غير مصدق لجرير، لكن بصره عاد خائبا، فاستعاد شريط الأمس كاملاً، فقد رافق الخبراء الصينيين طوال الوقت، ولم يتركهم أو يتركوه لحظة واحدة، فقد أحبوه وأحبهم ولم تفته كلمة واحدة، وكلامهم مفهوم له، فأين قالوا ما يقوله جرير، وأين سمع منهم هذا التقرير..

فانتظر فراغ جرير بفارغ الصبر، وبعد الخروج من المسجد، تجمع الناس حول طاوي، وتقدم حيدر إلى جرير وأخذه على انفراد، وسأله متى وأين قال الخبراء ذلك؟ فرد عليه جرير: بأن الخبر سر كبير، ولم يخبروا إلا

الشيخ طاوي، فأجابه حيدر وقال: لكني لم أفارق الصينيين لحظة واحدة. فرد عليه جرير وقد رفع حاجبيه: قل الحمد لله على هذه النعمة، ولا تشكك الناس...

كان الناس يتزاحمون حول طاوي، يسألونه عن التفاصيل، فيحيلهم إلى جرير، والذي بدوره أخبرهم بأن الذهب سيوزع على القبيلة، عن طريق الأسهم، وسعر السهم الواحد خمسة آلاف ريال، ومن أراد شراء أكثر من سهم فله ذلك...

وقبل أن تغيب شمس الجمعة، كان السور حول جبل الولي قد اكتمل بناؤه، كخاتم كبير ينتهي بغرفة صغيرة، وتم تكليف مهياب بالحراسة.. بعد أن أصبح من مرافقي الشيخ طاوي، بينما يقف أمام دكان جرير طابور طويل من رجال القبيلة من المناطق الخمس، وكل منهم يشتري أسهما من الكنز، وبخيت وسعيدان يعدان النقود، ويضعانها في صندوق خشبي، وما إن حل الظلام، حتى أطلق جرير صافرة الإغلاق، على أن يستأنف التسجيل غدا السبت..

وانطلق جرير، يرافقه بخيت وسعيدان، وركبوا سيارته الهايلوكس الصفراء، وجاءوا إلى طاوي الليل بعد أن سلمه جرير الكشف المرفق، وأخبره أنه تم بيع خمسة آلاف سهم، لكن طاوي سأل عن المبلغ، فأخبره جرير بأن المبلغ خمسة وعشرون مليون ريال.. لم يصدق طاوي الخبر، فتح الصندوق وقلب ربطات النقود بيده، وربت على كتف جرير، وقال: أنت داهية الدواهي. وحمل الصندوق، وأفرغه في خزنته الداخلية، وعاد به فارغا، وأوصاهم بالمواصلة، وتشجيع الناس...

***

نفد صبر حيدر، وتوجه صباح السبت إلى الحاج جلمود، وأخبره بما يغلي في صدره، وأن حكاية الكنز كاذبة، وبيع الأسهم نصب واحتيال، وأنه

لم يسمع من الصينيين أن هناك كنزا، وطلب منه أن يوصله بالصينيين، أو يأتي بهم إلى القبيلة.. هز جلمود رأسه، وأخبره بأنه لم يعد شيخ القبيلة، ولا مكان لمعارضة طاوي، وأن على الجميع انتظار النتيجة.. ومما زاد غيظ حيدر، حين علم بأن الحاج جلمود، قد اشترى أسهما من طاوي، وفعلها كذلك القاضي شمس الدين..

غادر حيدر غاضبا، وتوجه إلى مركز الدكتور أمير، وما إن التقاه حتى أخبره الخبر، فرد عليه بأنه لم يشترِ أسهما، ولا يستطيع معارضة طاوي.. فعاد حيدر منكسرا، وشاهد طابورا طويلاً، أمام دكان جرير، فقرر الذهاب إلى طاوي ليسأله عن الكنز، وكيف أخبروه؟ وبينما طاوي يقنعه، ويسرد له الأمنيات، إلا أنه ختم حواره بقوله: إن ما يجري نصب واحتيال...

غضب طاوي الليل، وأمر خالد ومريس أن يكتفا يديه، ويأخذانه إلى السجن، ولحق به في غرفة مظلمة لا ترى النور، وحاول إقناعه، ووعده بثلاثمائة ألف ريال إلا أنه مصرّ على رأيه، ويهدد بفضحهم في القبيلة كلها، اقترب منه طاوي ولطمه، رفع حيدر رأسه، وبصق على وجهه، فنزع طاوي شاله المربوط على رأسه، ولفه حول رقبة حيدر، وطلب من خالد ومريس أن يمسكا طرفه، وأمسك بالطرف الآخر، وشد الشال، بينما حيدر يصيح ويتحرك، لكن أنفاسه نفدت ولفظ آخرها ومات، وسقط على الأرض جثة هامدة، طلب طاوي بطانية، ولف الجثة فيها، وأغلق الغرفة، وطلب منهما السكوت، وأرسل مريس لإحضار جرير.

وجاء جرير لا يدري ما الخبر، وقضيا حوالي الساعة يتناجيان بصوت خافت، وأخرج طاوي ثلاث ربطات من النقود، وسلمها لجرير، ويده على رقبته كاد أن يخنقه...

وبعد الغروب، تحرك جرير بسيارته، وتوقف عند أطراف بني شامخ،

وتسلل سيرا على الأقدام، حتى بلغ منزل العرافة نورة، وطرق الباب طرقا خفيفا، فخرج أحد أولادها، ورحب به وأدخله إلى أمه، والتي رحبت به كثيرا، واستغربت أكثر لحضوره، وطلبها على انفراد، وألا يعلم أحد بمجيئه، فأشارت لابنها بالخروج، وإغلاق الباب، وأخرج جرير الثلاث ربطات، ووضعها أمامها، وقال لها: هذه من الشيخ طاوي، ويقول لك: سيأتي مع أم حيدر، للسؤال عن حيدر، ويكون جوابك «حيدر وكلبٌ في البئر»، لم تفهم الخبر، ولكنها فهمت المطلوب، ويدها تقلب الربطات باهتمام، وهزت رأسها وقالت: أبلغه سلامي وطلباته أوامر، وودعها وانصرف ...

وحين حل الظلام على طاوي، أمر خالد ومريس بحمل الجثة إلى السيارة، بعد أن ربط شال حيدر حول خصره، وأمرهما بإحضار أحد الكلاب الضالة، والتي تطوف حول المنزل ووضعه في شِوالٍ، بعد ربط فمه، وأخذه معه في السيارة، وانطلق الثلاثة نحو بئر الفيران المهجورة، وبعد استطلاع المكان، أمرهما بقذف الجثة أولا، ثم برمي الكلب ثانيا، ففعلا سريعا.. وفي طريق العودة تعمد العبور أمام منزل حيدر، وكانت أم حيدر وزوجته، تقفان عند باب منزله تبكيان.. فسألهما عن سبب البكاء؟ فأخبرتاه بعدم عودة حيدر، وهو معتاد ألا تغرب الشمس إلا وهو في البيت..

التفت الشيخ طاوي إلى خالد ومريس، وأمرهما بجمع المرافقين، وأطلق ثلاث رصاصات في الهواء، وهي علامة في القبيلة، للدعوة للحضور عند أي طارئ، وبعد دقائق معدودة تجمع الكثير من الرجال، يحملون سلاحهم، ويتساءلون عن الخبر، فيخبرهم الشيخ طاوي بضياع حيدر، ويوزعهم على جميع الاتجاهات، على المزارع والجبال، وحدد لهم المكان والزمان، وأن يعودوا جميعا بعد ساعة ونصف من الآن، وتحرك الجميع، وفي أيديهم المصابيح الصغيرة، إلا جرير وخالد ومريس، فقد طلب منهم أن يبقوا معه، وطلب من أم حيدر وزوجته، أن يذهبا إلى منزله، عند زوجته وبناته، حتى يجدوا حيدر...

وبعد ساعة ونصف، من البحث المضني عاد الجميع، وتجمعوا أمام منزل الشيخ طاوي، وفي يد كل منهم مصباحه الصغير، وكل واحد ينثر حكايته، وفشله في العثور على حيدر.. وأم حيدر وزوجته تراقبان وتسمعان، خلال نوافذ المنزل المطلة.. وبعد أن خيم الصمت، صاح جرير قائلا: عندي اقتراح؟ صاحت أم حيدر من النافذة: أخبرنا يا مطوع بشرك الله بالجنة؟ قال: أنا لا أؤمن بالشعوذة، لكن لماذا لا نجرب، ونسأل مشعوذة بني شامخ؟ صاح الجميع: نعم نعم، فهي تستخدم الجن، وقد تخبرنا عن مكان حيدر.. أجاب الشيخ طاوي: فكرة جيدة، إذاً فلنذهب.. فصاحت أم حيدر: سآتي معكم .. ركب طاوي السيارة وبجانبه جرير، وركبت أم حيدر في المقعد الأوسط ورافقتها عشبة، وفي المقعد الخلفي تزاحم خالد ومريس وبخيت وسعيدان...

***

أشعلت نورة البخور وهمهمت بكلمات، وولولت بصيحات، وقامت وقعدت، وغطت وجهها بخرقة سوداء ثم كشفته، وعينا أم حيدر تتابعها باهتمام، وأذناها تلتقط كل صوت، ثم قالت وكررت بصوت مفهوم «حيدر وكلب في البئر»، وشهقت بالبكاء، وقالت : اخرجوا من بيتي...

وخرجوا وطاوي يسأل جرير، ماذا تعني بقولها؟ فيجيبه قائلا: ربما حيدر في بئر، فلنذهب إلى الآبار، ويرد عليه طاوي: لدينا ثلاث آبار سطحية في بني وعلان، البئر العليا والبئر السفلى، وبئر الفيران... وتحركوا نحو البئر العليا، وصوبوا الكشافات إليها، فلم يسمعوا صوتا، ولا رأوا إلا انعكاس الماء، وتحركوا ثانية إلى البئر السفلى، ولم يجدوا شيئا، وتحركوا إلى بئر الفيران، وما إن وجهوا الأضواء حتى نبح كلب، وصاح جرير مناديا، فرد الكلب بالنباح ثانية، وصاحت أم حيدر: عندي إحساس أن ولدي هنا...

كان الليل قد التهم نصفه، وأمر طاوي بخيت بإيصال عشبة وأم حيدر إلى منزله، ويعود سريعا...

أحضروا الحبال، وتم ربط سعيدان، وإنزاله إلى البئر، وكانت خالية من الماء، وصاح حين وصل قعر البئر بأن حيدر هناك، وطلب منهم حبلاً آخر، وربط به حيدر من خصره، وحمل الكلب بين يديه، وطلب منهم أن يرفعوه، وما إن وصل فوهة البئر، حتى أخبرهم بوجود حيدر، وأنه فارق الحياة، وطلب منهم شد الحبل...

وشدوا الحبل، وظهر حيدر جثة هامدة، وشاله على خصره مربوط، فقال جرير: سبحان الله، ربط شاله لكي ينقذ الكلب، لكن قدر الله أقرب، فمات المنقِذ، وعاش المنقَذ.. وذهب الجميع لمواساة أم حيدر، وأنها يجب أن تفخر، فابنها غامر بحياته لينقذ حيواناً...

وفي الصباح وقبل شروق الشمس تجمع الناس من كل مكان، وأقيمت لحيدر ذلك الإنسان جنازة كبيرة، وشارك جرير في تشييعه، وقراءة سورة يس على روحه، وبكاه الكبار والصغار، وأصبحت تضحيته مضربا للأمثال...

واستمر جرير يعاونه بخيت وسعيدان في بيع أسهم كنز جبل الولي، لمدة خمسة أيام، وقد خصص اليوم الأخير للنساء، واللائي توافدن بأعداد كبيرة يحملن ذهبهن وحليهن، ليشترين بعض الأسهم، وبعد أن اكتمل العدد وحُمل الصندوق إلى طاوي، وتم الجرد والحساب، فإذا بعدد الأسهم يصل إلى خمسين ألف سهم، بقيمة مائتين وخمسين مليون ريال، حمل طاوي الصندوق وعاد وفي يده عشر ربطات من النقود تساوي مليون ريال، ولفها في كيس صغير، ودفعها إلى جرير، لكن جرير رفع حاجبيه، ومطّ شفته السفلى، وقلب كفيه، وقال: وأين وعدك يا شيخ طاوي بالنصف؟ فيضحك طاوي بصوت عال ويقول: القناعة كنز لا يفنى...

28
قائد المعسكر

وبعد مرور ستة أشهر كان الناس مستبشرين وفرحين بالشيخ طاوي، فقد حفر بئرين؛ واحدة منهما في بني شامخ والأخرى في بني علي، ونجح في متابعة الحكومة في بناء سد في القبيلة، و بدأ الناس يسقون منه مزارعهم، وعادت المياه بوفرة للآبار السطحية، واشترى مولداً كهربائياً كبيراً لبني وعلان، ووعد المناطق الأخرى بشراء مثله قريبا.. ونجح أيضا في إقناع شركة الاتصالات بتثبيت جهاز إرسال على إحدى الجبال المحيطة بالقبيلة، وأصبح الهاتف النقال يلتقط الإشارة في كثير من الأماكن، ولكنه بالمقابل اهتم بمصالحه، فقد استصلح ثلاث أراض شاسعة في الوادي الأعلى، وحولها إلى مزارع كبيرة، ومما حققه لنفسه، أنه قام ببناء منزل جديد، واسع وكبير، في الوادي الأعلى، فوق مزارعه الثلاث، وتزوج زوجته الثانية: ختام، وأسكنها المنزل الجديد...

وفي يوم الخميس وعند الثامنة صباحاً، وبينما طاوي يسند ظهره إلى جدار منزله، وحميدان يصب له قهوة البن، أخذ يقلب أفكاره، بانتظار مهمة جرير، والذي أرسله لإكمال عملية الحيلة، في استلاب أرض المسكينة بحجة سداد ديونها المتراكمة، والتي بلغت سبعمائة ألف ريال... أقبل جرير مسرعا، بسيارته الهايلوكس الصفراء وعلى رأسه شاله الأبيض، يتنحنح بقوة، وجلس بجوار طاوي، وبعد أن تناول كأسا من قهوة البن التفت إلى طاوي وقال: أخبرت أم جندل بأن عليها سداد الدين، لكنها استغربت، وقالت: أي دين؟ فقد كانت تحسبها صدقة، أو راتباً من الشؤون الاجتماعية.. التفت طاوي إلى جرير، وقد أمسك بيده على ذقنه، وقال: أنا أريد الأرض؟ هل تفهم يا مطوع؟ وأخذ يعاتبه قائلا: ألم أسمح

لك ببيع خلطاتك؟ برغم معارضة الدكتور أمير! ألم أجعلك تخطب الجمعة؟ أم أنك نسيت؟ تنحنح جرير وقال: دعني أخبرك الحل: احبس ولدها جندل، وستأتي خاضعة. نادى طاوي لبخيت وخالد وسعيدان و كانوا في غرف الحراسة، وأمرهم بإحضار جندل ليودعه السجن، وأرسل مريس إلى القاضي يدعوه للحضور، ولم تمض ساعة إلا والقاضي وجندل وأمه بين يدي طاوي في الديوان، وتولى جرير مفاوضتها، وعَرَضَ الأوراق التي بصمت عليها على القاضي شمس الدين بعد أن تم إيداع جندل السجن، والذي يقع في غرف صغيرة تحت الديوان، وافقت أخيرا أم جندل على بيع الأرض بعد أن سألت القاضي عن الأوراق وصحتها، ودموعها الغزيرة تملأ وجنتيها، ودعواتها المتوالية لا تفارق لسانها، وهي تمطرها جرير، والذي تقول أنه خدعها، وأوهمها بأن راتبها الشهري إنما هو من الشؤون الاجتماعية، فإذا به مصيدة للأرض وبيعها.. وثَمَّنَ القاضي الأرض بمليون ريال، فأخرج طاوي ثلاث ربطات، كل ربطة مائة ألف ريال، ودفعها إلى أم جندل، وكتب القاضي ورقة البيع، ولسانه لا يفارق الحوقلة، وأطلق سراح جندل، وخرج مع أمه، يحملان هماً لا تطيقه الجبال...

وقف جرير مصافحا طاوي، ومباركا له على الأرض التي أصبحت من ممتلكاته، ولم تفت جرير هذه اللحظة حين رأى الفرحة والضحكة، لا تفارق وجه طاوي، فطلب منه طلبين، وسأله ألا يرده، وأجابه طاوي بأن يسأل ولا يتردد، فأخبره أنه بحاجة لبناء دكان صغير في طرف السوق في الوادي الأعلى، يبيع فيه الخلطات بعد أن تكاثرت الطلبات، ورد عليه طاوي بأنه لم يبن هناك أحد أي بناء، والسوق إنما ينشط في يومين فقط، واقترح عليه، بعمل غرفة من الحديد، وتثبيتها، فوافق جرير وتهللت أساريره، وأخبره أنه سيضع فيها بعض الخلطات، وينام فيها أحيانا، ويجعلها قريبة من المسجد الكبير، وسأله عن الطلب الثاني، فحك جرير لحيته، وأخبره أن مركز الدكتور أمير، قد أصبح يعالج القبيلة كلها، وفيه كل التخصصات،

وأن الدكتـور أمـير يسـافر إلى ألمانيـا كل شهـر أو شهـرين.. وقاطعـه طـاوي قائـلا: أعطـني المختـصر؟ مـا هـو طلبـك؟ ومـاذا تريـد يا مطـوع؟ بعـد أن قذفنـا بمركـز الدكتـور في أطـراف القبيـلة... تنحنـح جـرير وقـال: لا أريـد شـيئاً يا شيخ، ولكـن لـو تخبر الدكتـور أمير بأن لا يتـكلم عـن خلطـاتي، بخير أو بشَر.. ابتسم طـاوي وقـال: سأخبره، فأنا ذاهـب إليـه بعـد قليـل، لأني بحاجـة لعـلاج الحموضـة.. قاطعـه جـرير قائـلا: عنـدي خلطـة تنهي الحموضـة للأبـد. رد عليـه طـاوي وقـد أمسـك بلحيتـه قائـلا: لا تصـدق نفسـك يا مطـوع، خلطاتـك للبقـر، وليسـت للبشر، وتريدهـا للشـيخ. ابتسم جـرير، وفي قلبـه غيـظ مـرير...

***

تحـرك الشـيخ طـاوي، ومعـه بخيـت وسـعيدان وخالـد، وتوجـه نحـو أطـراف القبيـلة، ومـا إن وصـل

إلى الـوادي الأعـلى حـتى طلـب منهـم الـنزول، وأمـرهم بتفقـد المـزارع الثـلاث، وإن كانـت لهـم عليهـا أي ملاحظـات، وقـاد السيارة باتجاه المركـز، وليـس مـن عـادة طـاوي الليـل أن يزور المركـز نهـارا، إلا نادراً، ولا يحـب تنـاول الأدويـة إلا لـضرورة بالغـة، ولكنـه يثـق ثقـة كبـيرة في الدكتـور أمـير وعلاجـه. وصـل إلى جـوار المبـنى، والـذي توقفـت حـوله بعـض السـيارات، وقـد هـاله مبـنى المركـز الجميـل وسـكن الأطبـاء المقابـل له .

كان المركـز واسـعا، وتم بنـاؤه بالتعـاون مـع الحكومـة الألمانيـة، و يتألـف مـن طابقـين؛ الأول: للتحاليـل الطبيـة الروتينيـة وثـلاث عيـادات تخصصيـة، واحـدة للباطنيـة وأخـرى للجلديـة، والثالثـة للأطفـال، والثـاني: كان خاصـاً للأبحـاث المتخصصـة ويسـتغرق فيـه الدكتـور أمـير معظـم وقتـه، ولم يُحَـدِّث أحـداً عـن تلـك الأبحـاث ونتائجهـا، وتواصلـه الـدائم مـع مركـز أبحـاث ألمـاني شهـير، كان موظفـو المركـز في الطابـق الأول يتحدثـون همسـاً عـن أبحاثـه، فالبعـض يتحـدث عـن اكتشـافه لعـلاج أمـراض كثـيرة مسـتعصية، ومـرات

كثيرة يشاهدونه يحمل فأراً وأحياناً قطاً وأرنباً وضفدعاً، وما كان يدهشهم أكثر هو بقاؤه في المركز كل يوم إلى وقت متأخر من الليل، وأدهشهم أكثر، خصوصية الطابق الثاني المثيرة، حيث لم يكن يسمح لأحد أن يدخله.

كان الحارس واقفا أمام بوابة المركز، وما إن رأى الشيخ حتى أقبل وسلم عليه، وسأله طاوي عن الدكتور أمير، ورد عليه الحارس أنه موجود، وسأخبره وسيأتي إليك، وهز طاوي رأسه وقال: بسرعة.. وأقبل الدكتور أمير مسرعاً، وهو يلبس معطف العمل الأبيض، يسأل الشيخ عن سبب زيارته، فأخبره طاوي بحاجته لعلاج الحموضة، وبعض المقويات من تلك التي يحضرها الدكتور بنفسه، فهو يشعر بضعف وخمول. فأحضر له الدكتور شريطا أبيضَ لعلاج الحموضة، يأخذ منها حبة بعد الغداء فقط، وجاء بعلبة خضراء وفتحها، وأخذ بالملعقة كمية صغيرة، وألقمها لطاوي، وأخبره أن يمضغها، وستكون كافية لشهر وأكثر، وطلب طاوي العلبة الخضراء، لكن الدكتور أمير، أخبره بأن مقاديرها دقيقة، ولابد أن تخزن في مكان بارد، وهي سامة وضارة، وأنه يقوم بفحصها من وقت لآخر، ولم يضف لها مواداً حافظة... وأخرج طاوي ثلاثة آلاف ريال، ودسها في جيب الدكتور أمير، وشكره ومضى...

وعاد الشيخ طاوي، وتوقف أمام إحدى مزارعه الثلاث في الوادي الأعلى، والتي زرعت بألف شجرة من القات، ومع أن الشجيرات صغيرة، إلا أنها أصبحت جاهزة للقطاف، وأقبل مرافقوه مسرعين، فأمر سعيدان بقطف بعض القات، له ولهم، فقطف الشجرة الأولى، ثم الثانية، وصاح له طاوي: هذا يكفي...ومد سعيدان شاله، ووضع أغصان القات فيه، ولفه بطريقة لولبية، وركبوا جميعا، وانطلق طاوي باتجاه منزله الجديد...

وكان يتألف من طابقين، مبني من الحجر الأبيض، يحيط به جدار عال يغطي الطابق الأول، وحوش المنزل واسع جدا، يتسع لحوالي مائة

سيارة، له بوابة كبيرة تدخل منها السيارات، وثلاثة أبواب صغيرة موزعة، واحد أقصى اليمين وآخر أقصى اليسار والثالث خلف المنزل، وبجوار البوابة مبنى طويل بطول خمسين مترا، يلاصق جدار حوش المنزل من الخارج، مقسم إلى سبع غرف ومطبخ وحمامين، يستخدم سكناً للحرس والمرافقين والخدم ولبعض الضيوف، وتحت هذا المبنى بدروم تحت الأرض مقسم إلى أربع عشرة غرفة صغيرة وحمام واحد، يستخدم كمخازن وسجن، وخلف مبنى الحرس مبنى صغير يستخدم سكنا للمواشي وإسطبلا للخيول، وله بابان أحدهما للداخل والآخر للخارج...

وما إن حان موعد المقيل حتى أقبل وفد من بني شامخ لزيارة الشيخ طاوي، وللسؤال عن الكنز الذي طال انتظاره، وكان في مقدمة الزائرين العاقل وأبو ناهل، وقد وعدهم طاوي بأن الكنز سيوزع حسب الأسهم، و معاملات متابعة التنقيب تأخذ وقتاً، ولكنها في نهاية الأمر ستنجح، وأخذ يسوق لهم الشكوى، من مماطلة الحكومة وفسادها، وقبل أن يغادر الزائرون، أخذ طاوي أبو ناهل على انفراد، وطلب منه أن يوثق علاقته بقائد المعسكر، فتهلل وجه أبو ناهل وأخبره، بأن الأمر سهل ويسير، وأحضر ورقة وقلماً، وكتب إلى قائد المعسكر دعوة للغداء يوم غد الجمعة في بيت الشيخ طاوي، وأسفلها اسم الشيخ، وطلب منه التوقيع، وقعها طاوي بثلاثة خطوط متقاطعة، وأخذها أبو ناهل وانطلق إلى المعسكر...

***

وقبيل غروب شمس الجمعة، وبعد وليمة كبيرة، ذبح طاوي فيها ثمانية خرفان احتفاء بقائد المعسكر، والذي حضر ومعه ثلاثة أطقم مليئة بالعساكر بلباسهم المدني في بثياب بيضاء وملونة، وجنابيهم الرائعة، وحل القائد ضيفا عند الشيخ طاوي. ويعد هذا التقارب خارج عن المألوف، وبعيد عن العادة، فقد كان المعسكر والقبيلة، في حالة انفصال تام، فلا

يتدخل المعسكر في شؤونها، ولا يحضر أفراحها، ولا يشارك أتراحها، وهو في عزلة تامة، لكن طاوي خرق العادة، وله في ذلك مآرب جمة...

وقبل أن يتهيأ القائد للوداع أخذه طاوي في حديث منفرد، في غرفة صغيرة بجوار ديوانه الكبير، وأخبره عن دهشته لذلك البذخ الذي رآه، في بيت ذلك المسؤول-رئيس مصلحة شؤون القبائل-، ويجيبه القائد: بأنه لم يرَ شيئا، وأن ذلك المسؤول لا يزال متواضعا مقارنة مع غيره من الوزراء. وهنا برقت عينا طاوي بالطمع، وأطلق للسانه العنان، وسأل القائد: كيف يكون الطريق إلى مثل ذلك التوفيق؟ فألمح له القائد باختصار، بأن الثروة ليست في التقطع للعساكر المساكين، فلو أنك اختطفت أحد الأجانب، وارتضيتني وسيطا ستجني الملايين، ونقتسم الغنيمة نصفين، وتفيدني وتستفيد. وودعه القائد شاكراً ممتناً...

ومضت الأيام، وقام طاوي باختطاف بعض الأجانب في سرية تامة، لا يطلع عليها سوى المقربين من المرافقين، كبخيت وسعيدان وخالد ومريس، وكان يضع المختطفين في سجنه الخاص في بيته الجديد، وكثرت زيارات قائد المعسكر لإطلاق الأجانب، ودفع الفدية، واستمر الحال بهذا المنوال، والقائد يظهر كوطني غيور، والشيخ يغلف اختطافاته بمصالح القبيلة المنسية، والتي تحتاج إلى دعم، وبنية تحتية...

29

الوداع

وبعد مرور شهر من الزمن وفي يوم الثلاثاء، وعند الساعة العاشرة مساءً، وبينما كان الدكتور أمير في مركزه يجمع أوراقه ويتأكد من بعض التحاليل والعينات التي سيأخذها معه، كان الوقت يلاحقه بسرعة، فلم يتبق على موعد الطائرة إلا أربع ساعات، فإذا بضيف ثقيل يقتحم أروقة المبنى، ويصدر ضجة وجلبة، تلك الخفين التي يلبسهما، والخطى التي يخطوها اخترقت صمت الليل، وهدوء المبنى، وتناهى الصوت إلى الطابق الثاني كجرس إزعاج يتكرر كل شهر، أدرك الدكتور أمير أن الزائر في هذه الساعة هو الشيخ طاوي الليل، لقد جاء كعادته يطلب بعض المقويات والفيتامينات التي تعود على أخذها، وتمنى لو جهزها له قبل أن يأتي..

أصدر الشيخ صوتاً مجلجلاً:

-يا دكتور، جئت أودعك ...

مد يده الممتلئة العريضة ليمسك بيد الدكتور الذي كان يحاول نزع القفاز، لكن يد الشيخ كانت أسرع وعصرت القفاز حتى تمزق .. عانقه بحرارة، وكانت أنفاسه سريعة وساخنة، كأنفاس لاعبٍ في نهاية مضمار سباق..

- متى السفر يا دكتور؟

- السفر بعد أربع ساعات تقريباً.

- وكم ستمكث في ألمانيا؟

- من شهر إلى ثلاثة أشهر.

-هـذا كثـير! سـنفتقدك كثـيرا، وتعـرف احتياجنـا الشـديد للمقـويات والفيتامينـات الـتي تصنعهـا بنفسـك في مركـزك الرائـع...

-دعني الآن أجهز لك الوصفة المعتادة.

-لا يا دكتـور أنـت سـتغيب أشهـر، وأرجـوك أن تضاعـف الجرعـة ثـلاث مـرات.

-انتظرني هنا لدقائق، وسأذهب للطابق الأول لأجلب لك ما تحتاج.

كان طـاوي الليـل متوسـط القامـة ضخـم الجثـة عـلى خـده الأيسر حفـرة سـوداء مـن أثر شـظية رصاصـة أصابتـه في أحـد الأعـراس، وله في الفـك الأيمـن سـناً ذهبيـة للزينـة. وشـواربه طويـلة، وله سكسـوكة محـددة، كانـت الغرفـة كبيرة وباردة وفيهـا ثلاثـة رفـوف ممتلئـة بعلـب وقـوارير كثيرة، وقـف يحملـق بعينيـه الصغيرتـين في تلك العلب الـتي أمامـه، واحـدة منهـا اسـتفزت ذاكرتـه، ونفخـت شهيتـه، وسـال لهـا لعابـه، كانـت خضـراء اللـون تشبـه تلـك الـتي كان الدكتـور يعطيـه منهـا ملعقـة واحـدة في كل زيارة، وكان تأثيرهـا لا ينسى، أحـس بنشـوة لا تقـاوم، ورغبـة جامحـة لا ترد، مـد يـده، وأخرجهـا مـن قفصهـا الزجـاجي، حـاول فتـح غطائهـا، لكنـه كان محكم الإغـلاق، كانـت تقـاوم بشـدة، وكان مـصراً عـلى هتكهـا، وسـلب حصانتهـا، وضـع العلبـة بـين فكيـه، وفتـح الغطـاء بقـوة، كانـت تحـوي مـزيج لحـم مفـروم، ورائحتهـا تشبـه رائحـة «المطهـر». غمـس السـبابة و الوسـطى، وغـرف مـن تلـك المـادة اللزجـة، وابتلعهـا بسرعـة، وأخـرج لسـانه للقبـض عـلى مـا تمـرد في أطـراف شـفتيه، ومسـح شـاربه، وتجشـأ، وأعادهـا مكانهـا .

أقبـل الدكتـور وفي يـده اليمـنى مفاتيـح تحـث عـلى الاسـتعجال، وفي اليسرى وصفـة لطـاوي الليـل: ثـلاث علـب صغـيرة، في كيـس صغـير: الأولى بيضـاء اللـون: لخفـض الكولسـترول الـذي صـار يلازمـه، منـذ انتفـاخ كرشـه،

والثانية بنية اللون: فيتامينات، والثالثة خضراء: مقوية، أوصاه: أن يأخذ منها ملعقة صغيرة كل ثلاثة أسابيع، وألا يعرضها للشمس، وأن يحفظها في مكان بارد.. أدخل الشيخ طاوي يده في جيب معطفه الأحمر، وأخرج مغلفاً بنياً صغيراً، ورمى فوقه اليمين، بأنها هدية السفر، وقال: يا دكتور، لقد تركت المرافقين عند أطراف القبيلة على بعد حوالي كيلو مترين أو أكثر، وجئتك مشيا على الأقدام، فلا أريد أحدا أن يعرف، وهل أوفر لك سيارة توصلك المطار؟ أجابه الدكتور: أولا سرك في بئر، وليس هناك ما يثير، وثانيا: أشكرك كثيرا، فهناك سيارة ستأتي الآن، ثم تواعدا بحرارة، وأنفاس باردة.

***

توقف طاوي فجأة! في منتصف الطريق، التفت إلى اليمين واليسار، وشاهد سيارة تتوقف أمام المركز، ما لبثت أن غادرت.. وخيم الهدوء.. والقمر يرسل ضوءا خفيفا.. شعر بشيء ما يتحرك في بطنه، جلس على قارعة الطريق فوق حجر كبير.. وأخذ يحدث نفسه:

- مقدار ملعقة واحدة من تلك المادة اللزجة، ذلك كل ما أكلت! أليست المادة نفسها التي تعودت عليها؟ أخذ يقلب العلب الثلاث، أمسك بالعلبة الخضراء، فتحها، شمها، لحسها بلسانه! كانت رائحتها كرائحة البصل! وطعمها مختلف أيضا! يا الهي! ما تلك المادة التي أكلتها، وكانت رائحتها كرائحة «المطهر» ؟ تقاطرت آلاف الأفكار في رأسه ولا يدري بأي مناسبة، حضرت الكثير من جرائمه، في تلك اللحظة قوية وبارزة كبث حي مباشر، وكانت أقوى الصور التي هاجمته: اغتصابه للمشيخة من أهلها بيت زيرم، والتحالف الخبيث مع المطوع جرير المقص، وقتل الشاب حيدر في السجن، وأخذ المزرعة من أم جندل، بالحيلة ... وتوالت

الصور الإجرامية، كعقد انفرط حبله ... أمسك برأسه وكاد من الغيظ يضربه، وهو يراقب الحركة التي تزداد مع ألم خفيف!

ثم حدث نفسه: هل أعود إلى الدكتور وأخبره بفعلتي؟ لكنه أغلق باب المركز أمامي! هل أذهب إلى المرافقين الذين ينتظروني على مسافة ليست بعيدة؟ لكن ماذا أقول لهم؟ ... أخذ يضرب كرشه الذي انتفخ كثيراً، ويقول: هل أنا حامل! وكيف حدث ذلك؟ يا إلهي! ماذا يجري في معدتي ؟! لماذا أفكر بالأسوأ؟ ربما إسهال يحاول الإزعاج! ربما غازات تتصارع كالعادة! لكنه بدأ يشعر بحكة شديدة! بدأت في يديه، وقدميه، ثم ما لبثت أن انتقلت إلى كل جسمه، صار يهرش يديه ثم ينتقل بسرعة إلى قدميه ثم إلى رقبته ثم ظهره في حركة حلزونية راقصة، بدأ يشعر بحمى تسبح في جسمه، تتسابق مع الحكة، تتزايد أمواجها بسرعة، أدرك خطورة الحمى وجاءته الفكرة سريعا بالذهاب إلى المسجد الكبير، والقريب منه، ترك الكيس والعلب، وأطلق ساقيه للريح، صار يسابق الحمى والحكة والجنين المجهول المرتقب...

كان باب حوش المسجد مفتوحاً، ويمتد إلى درج سفلي، حيث ترقد بركة كبيرة، يمتد طولها خمسة أمتار في عرض أربعة، مصبوبة بالإسمنت، تُملأ بالماء كل شهر، و اعتاد الناس على الوضوء منها، ولا يُسمح لأحد بالاستحمام فيها، كان ضوء القمر يتصارع مع جدرانها المرتفعة، وكانت الأقوى لطرد الضوء وجلب الظلام...

نزل طاوي الليل الدرج الواسعة، واستقبلته الضفادع بنقيقها الفريد، ترحيباً بالزائر الذي طال غيابه، وتوجساً من زيارته غير المتوقعة، ومع أن أصواتها كانت حادة ومخيفة، إلا أن الحمى التي تشتعل في جسمه كانت أقوى، وضع سلاحه الكلاشنكوف على طرف البركة، أخرج المسدس من مخبئه، نزع الشال الذي يغطي رأسه، خلع معطفه، خلع «العسيب

والجنبيـة»، نزع ثوبـه، نزع البقيـة الباقيـة، وهـو يقـول: غـضي طرفـك أيتهـا الضفـادع المجنونـة، واهـدأي عـن الـصراخ لا بارك الله فيـكِ، قفـز إلى البركـة كملتهـب مشـتعل بالنـيران، يحـاول إطفـاء جسـده .

كان مـاء البركـة بارد جـدا يعانـق رقبتـه، ويصـارع حرارتـه بعنـف شـديد. لم يـترك طـاوي الليـل زاويـة في البركـة إلا وتقافـز فيهـا. وبعـد انتهـاء شـوط مـن العـراك أحـس بهـدوء في الحكـة، وانكسـار في الحـمى، لكـن أصابـع يديـه أعلنـت عـن فاجعـة جديـدة. حيـث بـدأت تتجمد بشـكل سريع، وبعـد لحظات التحقـت أصابـع قدميـه بقـدم المسـاواة. كان الظـلام يخفـى تفاصيـل التطـورات المفاجئـة، لم يكـن يرى شـيئا، ضرب بيـده عـلى حافـة البركـة، أصـدرت صـوتا يشـبه قـرع الطبـول، حـرك قدميـه فـإذا الحوافـر تعلـن عـن صلابتهـا، حـاول أن يصعـد مـن البركـة، وقـد كاد مـن صدمتـه يجـن. لم يـدرك حينهـا مـاذا يجـري، خـرج بأيـد صلبـة قويـة متدليـة، حركهـا للأعـلى، فقـد توازنـه، سـقط إلى البركـة ثانيـة. انغمـس رأسـه، شرب مرغـما بعـض المـاء، عـاود الصعـود مـن البركـة، أراد أن يصـل إلى حـوش المسـجد، علَّ ضـوء القمـر يخبره عـما حـل بأطرافـه. كان صعـود الدرجـات الخمـس معقـداً وصعبـاً، عـلى غـير العـادة، واسـتخدم يديـه وقدميـه، وضـوء القمـر يسـحب آخـر خيـوط الليـل. تأمـل طـاوي الليـل يديـه وقدميـه، ونظـر إلى بطنـه، التـف لـيرى المنحـنى الـذي يمتـد خلفـه، فـإذا هـو ظهـر طويـل ممتـد، حـرك رقبتـه التـي طالـت وعرضـت، لـف حـول نفسـه ثـلاث لفـات فـإذا هـو حصـان مكتمـل الأعضـاء، أغمـض وفتـح عينيـه، حـرك شـفتيه، فتـح فمـه، حـرك ذيلـه، احتـك بجـدار حـوش المسـجد ليكتشـف تقاسـيم وجهـه...

صرخ بأعـلى صوتـه، فخـرج مـن حلقـه صهيـل مجلجـل، فـزع فزعـا شـديدا، جلـس أرضـا، والأرض بـه تـدور. حـدث نفسـه: يا إلهي! هـل أنا في حـلم أم حقيقـة! هـل تحولـت فعـلا إلى حصـان؟ لكنـني مـا زلـت أنسـانا! أفكـر

وأحدث نفسي! سأل نفسه وأجاب، ليتأكد بنفسه عن نفسه:

-من أنا؟

-أنا الشيخ طاوي الليل؟

-أين أنا؟

-في حوش المسجد.

-من أين جئت؟

- من مركز الدكتور أمير. همهم في خياله بكبرياء وقال: ما زلت أنا، هو أنا، لكن ماذا حدث لجسمي الذي تحول إلى جسم حصان!

ماذا أفعل الآن ؟ وماذا عن سلاحي والنقود التي في جيبي؟ إنها عشرون ألف دولار ومائة ألف ريال! عاتب نفسه بشدة وقال: يا لهذا الغباء! ما زلت أفكر في السلاح و«النقود» ولا أفكر في هذا الحال المنكوس.

أين أنت يا دكتور أمير؟ وماذا كان في علبتك اللعينة! هل كنت تحضِّر الجان والعفاريت! وتمارس السحر والشعوذة، حتى حولتني إلى حمار! استدرك سريعا وقال: لا لا لست حماراً بل حصاناً، ولكن ما الفرق؟ كلاهما سواء، انتبه إلى أفكاره التي تقوده إلى تناسي ما حدَث. وحدَّث نفسه قائلاً: كيف أعود لأنسانيتي؟ أين أذهب الآن؟ هل أعود إلى المرافقين، الذين ينتظرونني، و لن يغادروا مكانهم حتى أعود إليهم! وكيف أخاطبهم؟ وماذا أقول لزوجاتي؟ وكيف أظهر لأبناء قبيلتي؟ عصفت عواصف الأفكار، برأسه أسئلة حائرة غائرة، كانت تدور في مخيلته، كمروحة في محرك نفاثة.

الصبح يحاول أن يتنفس، سمع نحنحات صديقه المطوع جرير المقص، وصوت عصاه التي ألبس قدمها حذوة حديدية، يضرب بها الحصى عند كل خطوة، لا تفارقه عصاه، كما لا تفارقه نحنحته.

نهض طاوي الليل بلا تفكير وراح يجر الخطى كطفل يتعلم المشي. سار في الشارع الضيق بخطى متعرجة. وشرود لا ينتهي، وقلب مرعوب، وهو الذي طالما وزع الرعب على الخصوم. شاهد المزارع المتناثرة وكأنه لأول مرة يراها، سمع زغردة العصافير، مؤذنة بقدوم صبح جميل، لا يريد أحدا أن يراه، ولا يريد أن يرى أحدا، خطاه تسير بلا هدى ولا بصيرة، تحسنت خطواته، تعلم المشي سريعا، كانت الطرقات خالية، وخيوط الصباح تشق طريقها في الممرات ...

***

وصل المطوع جرير المقص، إلى المسجد، وكان طويلاً ونحيفاً، ولحيته طويلة مصبوغة بالسواد، يحمل في يده اليسرى مصباحا صغيرا، وفي اليمنى عصاه، ويلبس شالاً أبيض يربط به رأسه ومعطفا أصفر طويلا، يصل حتى ركبتيه، خلع نعليه ومعطفه بعد دخوله حوش المسجد، نزل من الدرج إلى البركة، ليغرف منها ماء للوضوء، رأى الملابس المبعثرة، والسلاح بمقربة منها، مرر المصباح في كل اتجاه، لم ير أحدا، صاح بأعلى صوته: هل يوجد أحد هنا؟ ارتد صدى صوته إليه، صاح ثانية، وثالثة، ورابعة، لكن رجع الصدى ما زال هو الجواب، تساءل في نفسه:

لماذا خلع ملابسه وسلاحه هنا! أكان يريد الاستحمام، لكن الماء بارد جدا، وممنوع السباحة أيضا... اقترب يفتشها وأدخل يده في جيب المعطف، فعثر على النقود الكثيرة، كان المبلغ يعادل ما يكسبه جرير المقص في عام، سال لعابه، حدث نفسه، وقد برقت بعينيه بروق الطمع، وأعمت بصيرته عن التفكير: لماذا لا أخبئ هذه النقود والسلاح، فإن ظهر لها صاحب أرجعتها، وإن لم يظهر، فهي رزق ساقه الله إلي! أسرع إلى جمع الملابس المتناثرة والكلاشنكوف والمسدس «والنقود» وحملها إلى غرفة صغيرة مغلقة، ملاصقة للمسجد اتخذها له منذ تولى إمامة الصلاة ...

30

جوليا

كان المطار هادئا، وكان الدكتور أمير آخر الركاب وصولاً، أخذ جوازه بعد ختمه، وسلم حقيبته الحمراء المتوسطة، كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، وعدد الركاب المنتظرين لا يتجاوز العشرين، وصل صالة الانتظار، نادى المنادي: على جميع ركاب الطائرة المتجهة إلى برلين التوجه إلى البوابة رقم ثلاثة، اقتربت منه سيدة بيضاء نحيلة، في الستين من عمرها، ترسم على وجهها ابتسامة خفيفة، تلبس فستانا أصفر طويلاً، وشعرها قصير أبيض، وعلى صدرها سلسلة ذهبية رقيقة، سألته بلغة إنجليزية ولكْنة ألمانية:

-من فضلك، ماذا يقول المنادي؟ عرف جنسيتها، وترجم لها النداء باللغة الألمانية، سألته ثانية:

-إنك تتكلم الألمانية بطلاقة فأين تعلمتها؟ أجابها:

-اسمي أمير، ودرست في ألمانيا وأحبها كثيراً، وهي بلدي الثاني، وأسافر إليها من حين لآخر...

احتضنته وقبلته بحرارة، وأخبرته أن اسمها جوليا وقدمته إلى زوجها تيم، تحركوا جميعا إلى البوابة رقم ثلاثة، استغرب الدكتور من حرارة قبلاتها، فالألمان جافّون، وتحيتهم لا تتعدى مصافحة اليد، رأت جوليا علامات الاستغراب تتراقص في عينيه، وأمواج الدهشة تتلاطم في خياله، قالت له وقد أوشكوا على الصعود إلى الطائرة: لقد زرت اليمن عشر مرات، لكن زيارتي هذه هي الأخيرة، غلبه الفضول وسألها: لماذا الأخيرة؟ ألم تعجبك اليمن؟ أم أنها تغيرت؟ كانت تصعد الدرج الأخير في سلم الطائرة، وزوجها ممسك بيدها، التفتت إليه وقالت: القصة طويلة، ثم يممت وجهها

صوب صنعاء وقالت: وداعاً أيتها الجميلة! وانزلقت من عينيها دمعتان!

جلس الدكتور على مقعده في الصف الرابع، والذي يطل على النافذة، أراد الاسترخاء، لكن رياح الفضول كانت عاتية، أخرج قلمه وكتب اسم الألمانية وزوجها.. تساءل: وما فائدة كتابة الأسماء؟ أقبلت قوافل الاحتمالات تهاجم خياله، لماذا زارت اليمن عشر مرات ؟ ولمَ كانت هذه هي الأخيرة ؟هل عامل السن هو السبب؟ أم أن السبب مادي؟ وما قصتها الطويلة تلك؟ ولمَ انهمرت عيناها بالدمع، وهي تلقي نظرتها الأخيرة على صنعاء؟ لابد من معرفة التفاصيل! نهض من كرسيه وتوجه نحوهما، كانا في الصف الأخير، يعزفان ترانيم الشخير.

عاد إلى كرسيه مضطربا، يحملق من النافذة، لم يرَ شيئا، الطائرة لم تتحرك، محركها يدور، ظلام يبسط أجنحته على المكان، هدوء في الطائرة، سبات عميق، شخير يتصاعد. كان متعباً، وبحاجة إلى النوم، ليشارك النائمين، سيمفونيته الفريدة، بجوار قائمة الترانيم المتداخلة، لكن الإقلاع والهبوط، لم يعرف في حياته غفوة، منذ ركب طائرة. تحركت الطائرة وأقلعت، وغفا بعد ساعتين ونام، ولم يفق من سباته إلا على صوت جوليا ويدها على كتفه: لقد وصلنا! أخرجت من حقيبتها ورقة صغيرة وسلمته إياها، وقالت له: إن واجهت أي صعوبات، فلا تتردد في الاتصال بي، ثم ودعته وانصرفت...

***

وصل أمير إلى سكنه المخصص، والذي يقع بجوار مركز برلين للأبحاث، كان في الطابق الثاني ويتألف من غرفة صغيرة بسرير كبير ومطبخ متكامل وصالة فيها أريكة لشخصين وثلاثة كراسٍ خشبية وطاولة زجاجية صغيرة وأرضية خشبية لامعة ومرحاض صغير. لم تكن هذه الزيارة هي الأولى.. بل تعد الخامسة..

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً بتوقيت برلين ..خرج إلى البلكونة ليكحل عينيه بتلك المناظر الخلابة ويلقي تحية الوصول لتلك البلابل التي ما إن رأته حتى غردت بألحان توازي جرعة مخدر قبل عملية جراحية...كان الرذاذ خفيفا صامتا، يداعب الأجواء الباردة ...

وكانت نظراته المتثاقلة، تتابع تمايل الأغصان وتراقصها، تحت أقدام البلابل الجميلة. كان جسمه منهكا، بعد رحلة ثماني ساعات بالطائرة، وبحاجة إلى استراحة هادئة.

عاد إلى الغرفة وفتح حقيبته، رصّ ملابسه بسرعة، في دولاب يختبئ في جدار الغرفة.. سقط مغلف بنيّ اللون إلى أرض الغرفة، وكأنه يستنكر التجاهل والنسيان.

فتح المغلف، وعدّ النقود التي ترقد في بطنه، كانت ثلاثة آلاف دولار، أمسك رأسه بكلتا يديه، وصار يحدث نفسه: ثلاثة آلاف دولار! لابد أنها مزورة! فتح عينيه المنهكة، اقترب من مصباح فوق المرآة التي تقابل السرير، تفحص النقود جيدا، حدث نفسه ثانية: إنها سليمة، لكن هذا لا يصدق، أيعقل أن الشيخ طاوي الليل يهديني هذا المبلغ الكبير، وهو الذي لم تدخل الهدايا يوما قاموسه! ولا يجيد إلا أن يأخذ! كيف يعطيني هذا المبلغ، وقد أخذ مني قبل شهر مائة ألف ريال، تحت مسمى حماية! ذلك البند الذي ينتزع به أقوات الضعفاء، من أصحاب المزارع والدكاكين، هل يكون المبلغ طُعماً؟ لا بد أنه كذلك! فما زلت أتذكر كيف فعل بأم جندل وابنها اليتيم حين قرر لهم مبلغا شهريا لمدة سنة وأوهمها أنها صدقة. ثم استولى على أرضهم بحجة عدم سداد الدين، وأصيبت المرأة بالعمى من شدة الصدمة..

31
الحصان الأصفر

كان عدد المرافقين للشيخ طاوي الليل قد بلغ خمسة وثلاثين مرافقاً، يوزعهم على مزارعه الخمس، وعلى بيتيه الكبيرين، وفي تلك الليلة لم يأخذ معه إلا أربعة أفراد، وهم بخيت وسعيدان وخالد ومريس، يلبسون ثيابا رمادية موحدة، وعلى رؤوسهم شيلان بنية معصوبة، مدججين بكامل سلاحهم، يحمل الواحد منهم رشاشه الكلاشينكوف، مع ثلاثة خزنات رصاص، في جعبة معلقة على الكتف، مستعدين لأي طارئ محتمل، ينفذون أوامر الشيخ باستبداد وتفانٍ، كانت السيارة تلك الليلة هي تويوتا لاند كروزر موديل ٢٠١٠ حمراء اللون، سائقها بخيت المقرب من الشيخ، ويعتمد عليه في قيادة الحرس، وضبط تهورهم، واجتهاداتهم، وفي الوسط يجلس سعيدان، وفي المقعد الخلفي حيث يكون الباب مفتوحا باستمرار يجلس خالد ومريس، كان طاوي يأخذ هؤلاء الأربعة، حينما يخرج إلى أماكن قريبة، داخل القبيلة وأطرافها، وأيضا حينما يكون الأمر خاصاً وسرياً، جميعهم في العشرينات من العمر، يحفظون أماكنهم جيدا، ويطبقون بروتوكولات طاوي الليل باحترافية عالية، وطاعة عمياء، يفهمونه بنظرة، وينفذون بإشارة، ويصوبون بمهارة، لسعيدان حضور فكاهي مميز، يمازح الشيخ مزاحاً ثقيلاً لا يجرؤ على مثله غيره، ينتزع منه ابتسامات وضحكات نادرة، وأحيانا يخرجه من ظلمته المظلمة، ويدخله في نوبات ضحك هستيري، وأما بخيت فهو الدب المرعب، صاحب المهام الصعبة، كما يطلق عليه طاوي الليل، أما خالد ومريس فيتشابهان حد التطابق، ويشتركان حتى في الغباء، والصمت هو الذهب الذي يمتلكانه، ولا تتحرك شفاههما إلا بكلمة يتيمة واحدة على الدوام، هي حاضر عند كل مهمة ومهام...

السيارة متوقفة حيث أمر طاوي الليل، عند أطراف القبيلة. تلك القبيلة التي تحتضنها الجبال العالية. من كل اتجاه والتي تتحول إلى بساط أخضر بعد نزول المطر. وبسبب السيول الجارفة من تلك الجبال على مر السنين تكونت الأخاديد الممتدة وتشكلت على جانبيها وديان زراعية خصبة. هي جنة المزارعين ودنياهم ..ولها طريقان لا ثالث لهما إلى العالم الخارجي، وكل الطرق ترابية، سهلة ميسورة في السهل والوادي، شاقة وخطرة بين الجبال، ومعظم القرى عند بطون الجبال، وبعضها تتربع على القمم، وتدفع ثمن ذلك حوادث دائمة، تتزايد وتيرتها عند موسم الأمطار، حيث تصبح الطرق الصغيرة الوعرة زلقة ورخوة...

***

كانت الشمس ترسل تباشير حضورها بشعاع ذهبي يلامس أعالي الجبال في عناق حميمي مع ذلك الضباب الذي لا يغادر القمم، إلا بعد أن يبلل ضفائر الشمس الناعمة... وبجوار منزل صغير مهجور.. دار بين المرافقين الحوار التالي: قال سعيدان:

- لقد تأخر الشيخ كثيرا.

فيجيبه بخيت:

- نعم لقد تأخر لكن ما علينا سوى الانتظار.

فيرد سعيدان:

- ربما ذهب لزوجته الجديدة.

أجابه بخيت:

- أنسيت أنَّا على أطراف القبيلة والبيت بعيد من هنا حوالي ساعة ونصف مشيا على الأقدام.

رد سعيدان:

- ليتك سألته يا بخيت أين سيذهب أو متى سيرجع؟

وأجاب بخيت:

- ومنذ متى نسأله ؟ ومن يجرؤ على سؤاله؟

وعلق سعيدان قائلا:

ربما الشيخ مارس الرياضة لتخفيف الكرش.. فتعب ونام تحت شجرة.

ضحك الجميع باستثناء: خالد ومريس، فقد كانت ترانيم نومهما غريبة ومثيرة كصوت قِطَّين على وشك العراك، ما إن يهدأ مريس حتى يستلم البوق خالد...

كان طاوي الليل يسير في الطريق التي يعرفها جيدا، والتي ذرعها مشيا آلاف المرات، قبل أن يستولي على المشيخة.. لم يكن بعيدا عن مرافقيه، لكن الطريق في خطواته البائسة طويل جدا. ومزروع بأشواك اليأس والإحباط، ومليء بأحجار الخيبة والتيه.. يجر الخطوة تلو الأخرى، برأس منحنٍ من الهم تارة، ومرفوع من رعب المواجهات القادمة تارة أخرى، لمح سيارته، نظر إليها، وقد انعكس شعاع الشمس على زجاجها الأمامي، ليمتد ضوءا خاطفا لعينيه، يدعوه إلى مواصلة الخطى، ومواجهة الخطوب.

اقترب أكثر، وحوافر أقدامه تتعثر، نظر إلى المرافقين، وقد أخرج كل واحد منهم رأسه، وكأنهم قرود في شجرة قصيرة. الدهشة بادية على وجوههم وأعينهم التي كانت تسبح في معركة مع النعاس، أصبحت واسعة جدا.

اقترب طاوي من المرافقين في لحظة انكسار، يعرفهم ولا يعرفونه، يخافهم ولا يخافونه، يتوجس تصرفاتهم، ولا يلقون له بالا...

ترك بخيت سلاحه، وترجل من السيارة، واقترب بخطوات هادئة، كنمر يحاول الإمساك بفريسته، أمسك برقبة الحصان بسهولة، نزع شاله من على رأسه، ووصله بشال سعيدان، وربطه كلجام، وقال :

- حصان أصفر جميل في هذا الصباح الجميل والمكان المقفر! يا ترى من صاحبه؟

أجاب سعيدان:

- بدو أنه سهران مثلنا، انظروا إلى عينيه، فهي ذابلة وناعسة.

كان وجود الحصان قد حرك شفاه مريس، والتي لا تتحرك إلا نادرا وقال:

- ربما هو واحد من أحصنة الشيخ طاوي.

أجابه بخيت:

- أحصنة الشيخ اثنان فقط، أحدهما بني والآخر أسود.

وعلق سعيدان قائلا:

- ربما جاء من إحدى القبائل المجاورة، لكن ما دام وقد دخل حدود قبيلتنا، فهو ملك للشيخ طاوي، وهو من يقرر، وسيفرح به كثيرا، ويكافئنا.. وسكت للحظة وهو يتأمل الحصان.. ثم أردف قائلا:

- ما أجمل لونه الأصفر! لكن في عينيه حزناً وكآبة.

كان طاوي الليل يحاول إيقاف دمعة من السقوط، لكنها اندلقت على وجهه حتى استقرت في منخره الواسع، وهو يتأمل وجوههم بصمت وقلق...

أصدر بخيت أوامره إلى مريس وقال:

- اركب الحصان وانطلق به إلى بيت الشيخ الجديد وضعه في الاسطبل، وارجع بسرعة.

حاول مريس أن يركب الحصان، لكنه يبتعد وينفر، حاول مرارا دون جدوى، أمسك بخيت وسعيدان برقبة الحصان بقوة، وخالد يمسك بأرجله... أراد طاوي في تلك اللحظة العصيبة أن يصيح فيهم : أنا شيخكم، ولم يجرؤ أحد على رفع صوته عليّ منذ توليت «المشيخة»، والآن مريس يركب ظهري، هذا لن يكون أبدا.. كان القهر والغيظ يغليان في قلبه، حاول أن يصرخ لكن ربطة بخيت على فمه كانت أقوى. جلس على الأرض وأسقط مريس من على ظهره، حاولوا جميعا تثبيته ثانية وثالثة، وكان الحصان يجلس في كل مرة.

قال سعيدان موجها الخطاب لمريس:

- يا أخي أنت مثل الثور تحتاج إلى جمل يحملك وليس حصاناً!

تدخل بخيت قائلا لسعيدان:

- تعال أنت يا «عود الخيزران» واركب.

حاول سعيدان مرتين، لكن الحصان أسقطه من على ظهره بهزة خفيفة دون الحاجة للجلوس.

بدد الحيرة خالد وقال:

- عندي اقتراح: نربط الحصان خلف السيارة ونسحبه لبيت الشيخ.

أجابه سعيدان:

-وإذا رجع الشيخ يا «ذكي» ولم يجدنا هنا، تأكد أنه سيربطنا جميعا في إسطبل الخيول.

أمسك بخيت باللجام، وثقه أكثر، وقال لهم:

-سأقوده مشياً إلى بيت الشيخ وسأعود بالسيارة «الشاص».

انطلق بخيت وأطلق سعيدان وراءه كلمات الوداع قائلا:

- «يا أيها الدب المرعب» لا تحاول أن تركبه في الطريق، فقد يجلس فوقك ويقضي عليك ولا تجد من ينقذك!

لم يكن أحد يلقب بخيت بالدب المرعب سوى الشيخ طاوي لا غير! ربما كان سعيدان مغتاظا من ذلك اللقب الذي ناداه به بخيت «عود الخيزران»!

التفت بخيت ضاحكاً بسخرية! وضحك الجميع...

***

الشمس تهبط من القمم العالية رويدا رويدا، الظلال تعطف سجادتها بسرعة، الجبال تبطئ سيطرة الشمس على كل القبيلة، وفي الطريق كان طاوي الليل يسير خلف بخيت كحصانٍ مهزوم، بخطى وئيدة. صافحت الشمس رأسيهما عند منتصف الطريق، اختار بخيت طريقا غير مرتاد، ليتجنب التأخير والسؤال، سلك بالحصان بين المزارع في الوادي الأعلى، حتى وصل إلى مزارع الشيخ طاوي الثلاث، والتي تفصل بينها طرق صغيرة، تمر بالكاد منها السيارة، واحدة من المزارع مزروعة بالذرة، والثانية مزروعة بشجرة القات، توقف الحصان الأصفر عند مزرعة القات، بخيت يسحبه، والحصان لا يتحرك، أخذ بخيت حجرا صغيرا وضرب ظهره فتحرك، وما إن تجاوز المزرعة الثالثة، وكانت مزروعة بالرمان والتفاح والعنب، نادته امرأة باسمه من داخل المزرعة، وكانت تلبس الأسود، كعادة بنات القبيلة، ولا يرى سوى عينيها، عرفها أنها ختام زوجة الشيخ طاوي الثانية، وسألته عن الشيخ ؟ فأجابها قائلا:

- الشيخ ذهب إلى مكان ما، وطلب منا أن ننتظره عند أطراف القبيلة عند البيت المهجور...

قاطعته وقالت:

-ولكني اتصلت به عدة مرات ولا يرد.

أجابها:

- الشيخ نسي تلفونه فوق السيارة وخرج من عندنا بسلاحه فقط.

ردت عليه مستفسرة:

-ومن أين هذا الحصان الأصفر؟

أجابها:

- وجـدناه هنـاك وسـأضعه في الإسـطبل مـع الخيـول، وسـأرجع عنـد المرافقـين بالسـيارة الشـاص.

ردت عليه وقد انصرفت بوجهها قائلة:

- حين يرجع الشيخ، قل له أن يتصل بي ضروري.

أجابها:

- حاضر.

ختـام هي الزوجـة الثانيـة للشـيخ طـاوي الليـل، طويـلة، وجميـلة، عمرهـا ١٧ عامـا، شخصيتهـا قويـة، يحبهـا الشـيخ طـاوي كثـيرا، وقـد كانـت حامـلاً في الأشهـر الأخـيرة...

وصـل بخيـت إلى مقربـة مـن المـنزل، والتقى مهيـاب وهـو المكلـف برعايـة الخيـول، وحراسـة جبـل الـولي، أخـذ مهيـاب الحصـان الأصفـر، وأدخلـه إلى إسـطبل الخيـول....

32
إعصار

بسطت الشمس بساطها الحار على كل القبيلة، باستثناء بعض البطون تحت أقدام الجبال، تصاعد الغبار خلف سيارة مسرعة، تتجه نحو أطراف القبيلة، اقتربت من البيت المهجور سيارة تويوتا «شاص» بيضاء اللون موديل ٢٠١٠... الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً، الثلاثة المرافقين يلاحقون الظل بجوار البيت المهجور، الجوع يطارد أمعاءهم الخاوية، وقفت «الشاص» بجوارهم، نزل حاملاً معه كيسين، تسابق الجميع إلى تفتيشهما، خمسة أرغفة خبز في كيس، وعلبة من اللبن في كيس آخر، التف الأربعة في دائرة ضيقة، الصمت حاضر بقوة، البلع هو الصوت الوحيد، بخيت لم يَسأَلْ شيئا، ولم يُسأَلْ شيئاً، حتى النظرات كانت كرادارات موجهة نحو الخبز واللبن، دقيقة واحدة بعدها طار الكيسان بحرية، دون أثرٍ خلفاه، علبة اللبن عادت كيوم ولدت، نظيفة صافية، تحولت النظرات، كمصابيح موجهة نحو بخيت، أسواطٌ تجلده بلا صوت، أدرك مقصدهم، وسر نظراتهم المشحونة، وقال مستبقاً أي تعليق:

- أعلم أنكم جائعون، لكن هذا كل ما جهزه الطباخ على عجل.

أجابه سعيدان:

- لو أنك أكلتَ في بيت الشيخ لوفرت لنا نصف الفطور.

ضحك بخيت وقال لسعيدان:

- كنت أفكر بالعودة إليكم بأسرع وقت، مع أني كنت جائعاً.

قام بخيت إلى السيارة الحمراء التي تربض بجوارهم، علها تضيف شيئا

من الظل إلى ظل المنزل المهجور، وحرك الكرسي الأمامي الذي عادة ما يجلس عليه الشيخ طاوي، وأخرج كيسا صغيرا كان يخبئه تحته، فيه بعض البسكويت والتمر، أحضره بخيت، وتقاسمته الأيدي في غمضة عين...

أصبحت الشمس في كبد السماء، والظل من الهجير اختبأ تحت السيارتين، واجتمع الأربعة المرافقين في السيارة الحمراء، أدار بخيت محركها وأدار المكيف إلى المستوى الثاني ...

كان تلفون طاوي الليل المحمول في الخزنة التي بين السائق والكرسي الأمامي، من نوع نوكيا موصولا بشاحن السيارة، لم يتوقف عن الرنين لحظة، الرنات أغلبها تشبه نقيق الضفادع، إلا رنتين واحدة كانت كصوت الطبل، الذي عادة ما يكون في الأعراس والمناسبات، وأخرى تشبه صوت إطلاق الرصاص، كان الإرسال قوياً في ذلك المكان.. ولم يكن طاوي الليل يسمح للمرافقين بحمل أي تلفون...

الجميع ينصت لتلك النغمات التي لا تتوقف، وكأنها روح طاوي الليل وهيبته. وحده سعيدان من أشعل فتيل التفكير وقال موجها الحديث لبخيت:

- أكثر من ثلاث عشرة ساعة ونحن ننتظر، لابد أن نفعل شيئا!

أجابه بخيت وقد نزع شاله وأدخل كلتا يديه في شعره المنفوش ككرة فوق رأسه:

-ليس من عادة الشيخ طاوي أن يتأخر هكذا، لكن ماذا بأيدينا؟

أجابه سعيدان ويده تشير إلى التلفون:

- يا بخيت انظر من يتصل بالشيخ ورد عليهم، واسألهم عنه، حتى نصل إلى حل.

هز بخيت رأسه موافقا بالإيجاب، رن الهاتف بصوت طبل الأعراس، قال بخيت:

- إنها زوجته الثانية، لكن لن أرد عليها...

رن ثانية بصوت ضرب رصاص، تأمل بخيت في الشاشة وقال:

- إنه حميدان ابن الشيخ طاوي، صاح مريس وسعيدان في اللحظة نفسها: أجبه!

أمسك بخيت بالتلفون ورد على حميدان، كان صوته عاليا يقول:

- لماذا لا ترد اتصلت بك أكثر من عشرين مرة، أريد أخبرك عن مزرعة العنب في الوادي الأسفل...

قاطعه بخيت قائلا:

- عفوا عفوا معك بخيت ... لكن حميدان قاطعه أيضا قائلا:

- أين أبي؟ دعني أكلمه.

أجابه بخيت وقد أخفض صوته ويده اليسرى تعبث في شعره المنفوش:

- والله لا أدري ماذا أقول لك .. قاطعه حميدان وقد علا صوته أكثر:

- قلي ماذا جرى، ماذا هناك، هل انقلبت السيارة، أو حدث تقطع، أين مكانكم؟

كانت أسئلة حميدان مربكة أكثر لبخيت، أجابه:

- اسمعني نحن في أطراف القبيلة، عند البيت المهجور القريب من الخط العام.. قاطعه حميدان:

- البيت المهجور الذي كنتم تتقطعوا عنده؟

يجيبه بخيت:

- نعم نعم هو بذاته لكن اسمع أخبرك؟

يرد حميدان بعصبية:

- أخبرني، مغصت بطني، ماذا هناك ؟

يجيبه بخيت:

- الشيخ أخبرنا أن ننتظره هنا لكنه لم يرجع من أمس الليل؟

قطع حميدان الاتصال ...

***

حميدان .. لا يأخذه أبوه معه في رحلاته، لكنه يعتمد عليه في متابعة مزرعتيه الاثنتين في الوادي الأسفل، حيث يوجد منزل طاوي الليل الأول، ويسكن ذلك المنزل حميدان وأمه «عشبة» وأختاه حمامه ورمانة.. وكان طاوي قبل شهرين، قد اشترى لحميدان سيارة هايلوكس بيضاء موديل ٢٠١١ ...

إعصار يتحرك أفقيا، ثعبان ترابي قادم، يخلف وراءه ذيلاً طويلاً من الغبار، إنه حميدان يسابق الريح، سيارته الهايلوكس، مظهرها يناقض موديلها، في كل شبر منها جرح ينزف، وجرح يحاول أن يلتئم، لكنه لا يلبث أن ينزف، صوت نفاثة، توقفت العاصفة، التحق الذيل بالرأس، صوت الوقوف مميز، لا يتقنه إلا حميدان، يخنقها فجأة من سرعة ٨٠ حتى الصفر، تتوقف بلا توقف، كادت تصطدم بالكروزر الحمراء، ثار الغبار وعلا، أطفأ المحرك، فتح الباب لكنه لم يستطع الخروج، خرج من الباب الآخر...

لم تكد تمر ساعة على مكالمته، نزل كملدوغ يصيح:

-بخيت، بخيت، بخيت، أين أنت يا أعور؟

لم يكن بخيت أعورَ، ولكن لحميدان طريقته في المناداة، حين يلبسه الغضب، وهو في الحقيقة لا يهدأ، ترجل بخيت من السيارة وتبعه خالد ومريس، كانت الشمس حارقة، ورأس حميدان حاسر، وفمه واسع، ممتلئ بكلام لا يدري كيف يخرجه، كانت شفتاه المنتفختان تتراقصان بدون تحكم، كبَّ على آذانهم أسئلة متتالية، ثقيلة، ويده اليسرى تمسك بكتف بخيت:

-أين أبي؟ ماذا جرى؟ أخبرني بالتفصيل؟ متى جئتم؟ من كان معكم؟ من رافق أبي؟ إلى أين تحرك؟ كل الأسئلة دفعة واحدة ودون نفس فاصل، كأن شفتيه تودعان الفرصة الأخيرة، وبين الأسئلة الثكلى، ينفض ثوبه بيده اليمنى، ويتطاير غبارا إضافيا، من ثوبه الأبيض في الأصل، لكنه تماهى مع لون التربة، في حميمية نادرة لا ينافسه فيها منافس.

التقط بخيت فرصة نادرة، وحميدان مشغول بثوبه، الذي نسي لونه الأبيض، منذ زمن طويل.

أخذ مضطرا نفسا عميقا، لكي لا يترك نقطة فراغ لمقاطعات حميدان التي لا تنضب، وقال:

-لم يخبرنا الشيخ بشيء، ولم نبرح مكاننا حسب أوامره، منذ الأمس، لكنه لم يعد إلى الآن، لمحته بالأمس يتوجه بهذا الاتجاه؟

وأشار بخيت بيده نحو القبيلة ...

أمسك حميدان رأسه بكلتا يديه، يجمع أفكاره، أو يضلل رأسه، التفت نحوهم محملقاً كأنه يعدهم وقال:

-أنتم الثلاثة فقط؟

أخرج سعيدان رأسه من داخل السيارة قائلاً، وأنا رابعهم.

-ولماذا لا تخرج؟

-أخاف تذوب الصلعة.

ضحك الجميع، وفتح حميدان باب السيارة الحمراء الأمامي وركب بجانب السائق، وتدافعوا جميعا داخلها، كل واحد جلس في مكانه المخصص..

فتح الدرج الذي أمامه، سحب بعض المناديل الورقية، مسح جبهته البارزة العريضة، وخدوده المتورمة، ومنخره العريض، وشفاهه المنتفخة، ثم مرر المناديل على رأسه، وأخذ يمسح المرآة التي على يمينه، تأمل عينيه الصغيرتين المحمرتين، وبشرته التي اسمرت بشكل لافت، وذهب يخاطب نفسه في المرآة:

-الشمس سودت بشرتنا يا رجال!

ضحك سعيدان بصوت عال، وأضحك الجميع قبل الكلام وقال:

-منذ عرفتك بهذه البشرة، يبدو أن مكيف السيارة أثَّرَ فيك! هل نسيت ما نحن فيه؟

ابتلع المزحة حميدان وقال:

-سنجد الشيخ، فكروا معي جيدا، هذا الطريق الأيمن ينتهي إلى بني شامخ، والأيسر ينتهي إلى بني منصور، والأوسط ينتهي الى بني وعلان، وخلفنا الطريق العام... وكلف بخيت وسعيدان بالذهاب إلى الطريق العام، ومريس إلى بني شامخ على الأقدام، وخالد إلى بني منصور على الأقدام، وتكفل هو بطريق بني وعلان...وحدد لهم موعد اللقاء عند المغرب بجوار المحكمة...

***

وغربت شمس الأربعاء، ولم يظهر للشيخ طاوي أي أثر، وانتشر الخبر في القبيلة، كانتشار النار في الهشيم، وأقبل بخيت وسعيدان، ومريس وخالد، والتقوا بحميدان عند المحكمة، وقد اجتمع الكثير من الكبار والصغار، وكان القاضي وجرير على رأس الحضور، وتبادلوا الآراء، وجاء اقتراح القاضي أن يكون البحث على مرحلتين: الأولى بالانتشار حول القبيلة، وصعود الجبال، بالكشافات الصغيرة، فمن وجده، فليطلق الرصاص كعلامة للبقية، فإن لم نجده ننتقل إلى المرحلة الثانية: بالبحث في القبائل المجاورة، ولقي اقتراحه موافقة الجميع، وتحركوا إلى الجبال، وأضاءت الكشافات الصغيرة، كأنها نجوم هبطت على الجبال، من بني علي إلى بني شامخ، مرورا ببني وعلان، فبني منصور وانتهاء بجبال بني ناجي، واستمر البحث طوال الليل، ولم تسمع طلقة واحدة، وتجمع الناس عند بواكير الفجر، حول منزل طاوي، وحضر الحاج جلمود والقاضي وجرير، وبدأ جلمود بتوزيع الحاضرين، إلى القبائل المجاورة، وتكفل أبو ناهل بالذهاب إلى المعسكر، واتفقوا على العودة عند المغرب...

كانت عشبة أشدهم قلقا، وأكثرهم فجيعة، وطلبت من حميدان أن يأخذها إلى المشعوذة نورة، في بني شامخ، وذهبا إليها، وبعد أن نفخت نورة الدخان، وولولت ونادت بأسماء غريبة، أخبرتهما بأنه لم يظهر عندها، وحين يظهر سترسل لهما الخبر... وغادرا بصمت وحزن، ينبض ببصيص أمل...

***

وبعد خمسة أيام من اختفاء طاوي الليل، وعدم وجود أي أثر له، في كل القبيلة، وفي القبائل المجاورة، كان المطوع جرير، يفكر بتلك الملابس والنقود والسلاح، والتي وضعها في الغرفة، ولم يسأل عنها أحد.. وقرر أنه لابد من تفتيش تلك الملابس التي وجدها حول البركة تفتيشا دقيقا،

لعله يجد شيئا يخبره عن صاحبها، كانت رياح الفضول عند جرير قوية، لكن عواصف الطمع كانت أشد...

وعند التاسعة صباحا كانت الشمس معتدلة، والرياح ساكنة، والحركة في الشوارع هادئة، والناس في حداد غير معلن، انسل جرير من دكانه، لم يصادف في طريقه إلا سعيدان يحمل رشاشه على كتفه، عيناه الزرقاوان منتفختان ومحمرتان، آثار السهر والإرهاق تلبس وجهه، وعلى رأسه شال أزرق، ملفوف بطريقة عشوائية، ويلبس ثوباً أزرقَ يكسوه التراب، سأله المطوع جرير:

-هل من أخبار جديدة عن الشيخ طاوي يا سعيدان؟

-لا جديد! يا مطوعنا لم نصل إلى شيء، ومازحه قائلا:

-لو تشد الهمة يا مطوعنا، وتجمع البخور والعطور والقحطة السوداء في نار موقدك، ومثلما تقول أنك تعالج كل الأمراض، ليتك تكتشف لنا أين اختفى الشيخ طاوي!

ضحك المطوع جرير المقص وقال:

-ما ألطف دعابتك يا سعيدان!

وصل جرير إلى حوش المسجد، وفتح الغرفة الصغيرة الملاصقة، والتي خصصها له شخصيا، وكانت الملابس والرشاش والمسدس كما وضعها تلك الليلة قبل خمسة أيام،أخذ المعطف واقفا، و فتش جيوبه، فوجد محفظة فيها بطاقة عسكرية باسم الشيخ العقيد طاوي الليل، تسمر في مكانه، وسرت في جسده قشعريرة، كأنها الكهرباء تسري في عروقه! رمى البطاقة، ابتعد عنها إلى زاوية الغرفة، خائفاً يرتجف، مترقباً هبوط طاوي الليل في تلك اللحظة، كانت البطاقة تشكل رعباً حقيقياً، تعرق جبينه البارز، جفف العرق بطرف معطفه الأسود الطويل، أمسك بلحيته التي كانت

مصبوغة بالسواد للتو، ركبتاه ترتجفان، قلبه يدق كساعة في جدار، سقط من طوله، كعمود اختلت قاعدته، لملم بقايا قوته، لعله يستوعب المفاجأة، مدّ رجليه وأسند ظهره للجدار، محاولاً السيطرة على تلك الرعشة، التي انتقلت من الركبتين إلى اليدين ثم الشفتين، لتقتحم فكيه، ويسقط طقم الأسنان الصناعي الأعلى، ثبت طقم الأسنان لكنه سقط ثانية، خبأه في جيبه، كانت صورة طاوي مزلزلة، قَلَبَ البطاقة على وجهها، شعر في هذه اللحظة بنفس ذلك الشعور قبل أشهر حين كانت يد طاوي الليل الغليظة تمسك برقبته وهو يقول له: أريد خطة إخفاء حيدر أن تنجح...

تذكر ذلك جيداً، بكل تفاصيله، بل غاصت به الذاكرة، إلى أيام غابرة وذكريات مريرة، فقد مر الماضي في تلك اللحظة كشريط مصور، تذكر جرير المقص، فشله في دراسته الجامعية، وتذكر سفرته الفاشلة للسعودية، وتذكر عودته إلى القبيلة بلا علم ولا شهادة، تذكر كيف وقف معه طاوي الليل وأجبر الدكتور أمير على بناء مركز الأبحاث بعيدا عن مركز القبيلة، تذكر أيضا كيف كان بلا قيمة، ولا قدر، وحتى المسجد الذي أصبح فيه هو الإمام والخطيب، كان خطيبه وإمامه هو القاضي شمس الدين، ولولا وقوف طاوي معه للإطاحة بالقاضي لما صار خطيب القبيلة، تذكر قول طاوي الليل له :أنت بلسانك ودهائك، وأنا بقوتي وجبروتي، سنسيطر على القبيلة، تذكر تلك الصداقة التي نشأت بينه وبين طاوي الليل، صداقة غريبة، جمعت الفاشل بالمفسد، شعارها الغاية تبرر الوسيلة...

تجاسر جرير المقص، ومد يده، وأخذ البطاقة، وتأمل وجه طاوي الليل، حفرة سوداء على خده الأيسر، شوارب طويلة وعيون صغيرة، لها نظرات حادة... شفط هواء الغرفة في نفس عميق، وخاطب الصورة قائلاً:

وماذا يساوي ما فعلتَه معي! مقابل ما أسديته لك، لقد وقفت معك

يا طـاوي الليـل، في مغامراتـك، وظلمـك، هـل نسـيت أنـك كنـت صعلـوكاً، وقاطع طريـق، ولا قيمـة لـك أيضا في القبيلـة، ولا قـدراً، وكان اسمـك لا يـتردد إلا عنـد حـوادث السرقـة والقتـل، هـل نسـيت أن شـيوخ القبيـلة، كابراً عـن كابر هم بـني زيرم، وقبـل مجيئي كان شيخ القبيـلة هـو جلمـود زيرم، دبَّرت الخطط المحكمـة لإبعـاد بـني زيرم، جعلـتُ منـك شـيخاً للقبيـلة، وأبـوك وجـدك لم يحلم يومـا أن يصبـح عاقـل قريـة، وكنـتَ فظّاً غليظـا، تعاملـني باحتقـار وإهانـة، لا تثـق بعـلاجي، لم تشـترِ مـني يومـاً أعشـاباً طبيـة أو بخـورا أو حنـاء، ولا حـتى القحطـة السـوداء الـتي يشـتريها كل أبنـاء القبيـلة، كنـتَ دائم الـتردد عـلى مركـز الدكتـور أمـير، ذلـك الـذي نافسـني في رزقي، لم أنـسَ كم مـرة قلـت لي أنـني نصَّـاب ومحتـال، وأني بدونـك ذئـبٌ مرجـوم، كنـت أسـامحك، وأقابـل أقوالـك بابتسـامة، وفي قلـبي نار تتوقـد، كنـتُ ممتنـاً لمدحـك لي بـين النـاس، وذمـك لي عـلى انفـراد، لكـني لم أنـسَ تهديـدك المسـتمر، حينما أتردد عـن التخطيـط لبوائقـك، هددتـني بفضحي، مع أني فعلـت ذلـك خدمـة لـك...

قـرَّب المقـص الصـورة مـن عينيـه، واسـتجمع بقـايا شجاعته، وقال: أنسيت يا طـاوي الليـل، تلـك الليـلة الـتي جئتـك فيهـا مسرعـا، تطالبـني، وفي الوقـت نفسـه تهـددني، وقـد كانـت عينـاك تقـدح بالـشرر كنـار في فوهـة بركان، وقلـت لي: «أريـد وسـيلة، أجمـع بهـا الملايـين مـن القبيـلة»، وأردفـتَ قائـلاً: «مُهلتـك ثلاثـة أيام وإلا فـلا تلومـن إلا نفسـك! «كنـتَ تُرعـد وتُزبـد، ولا تعـرف معـنى الأدب، ولا تحسـن الطلـب، وأنا أعـرف شرَّكَ الـذي شـاركْتكَ في إيقاظـه، وأعـلم يقينـاً نتـائج تهديـدك، ومـا قيمـتي لديـكَ إلا بمـا أقـدم لـك مـن خدمـة، وبـدأت أعـصر خـزائن ذكـرياتي، وأحلـب أمهـات أفكـاري، وأقلـب صفحـات القبيـلة، وأتصفـح وجـوه مـن أعـرف، وأشـتمّ أخبـار الأحيـاء والأمـوات، وكنـتُ أسـابق الزمـن لكي أجـد وسـيلة أطفـئ بهـا نار شرك، وخـلال أيام وقبـل انتهـاء المهـلة. هـل تتذكـر حـين أخـذت بيـدك، وقـد حملـت لـك البُـشرى، وركبنـا سـيارتك الحمـراء، إلى جبـل الـولي، مع الفريـق الصيـني، وقلـت لـكَ:

من هذا الجبل سنجني الملايين، كنتَ مندهشاً كيف سنجني الملايين من جبلٍ أصم!...

حرك جرير المقص الصورة وقال: هل تتذكر يا طاوي الليل اقتراحي ببناء سور حول الجبل، وأن تُبقي حارساً يحرسه ليلَ نهاَر، وتترك بقية الأمر إلي، وبعد أن غدا ذلك السور حديث القبيلة، خطبت في الناس خطبة عصماء، وأخبرتهم أن الجبل يحمل في بطنه آلاف الأطنان من الذهب، وأن الشيخ طاوي سيأتي بالخبراء والمعدات، ولكن الأمر يحتاج مالا كثيرا، فمن أراد أن ينال نصيبا من الذهب فليساهم، وجعلت السهم الواحد بخمسة آلاف ريال، فتقاطر أبناء القبيلة زرافات ووحدانا، صغارا وكبارا، حتى النساء، خلعن حليهن، وذهبهن، وامتلأت الصناديق، بالمال والذهب والفضة. ألم تكن تلك حيلتي يا طاوي الليل؟ ثم أخذتَ الصناديق ولم تبلَّ ريقي إلا بمليون فقط، بعد أن وعدتني بالنصف...

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ظهرا، وضع المقص الصورة والتفت إلى ملابس طاوي الليل وأحس برعشة جديدة، قاومها بتجلد، أمسك بالرشاش وتساءل: أين ذهبت يا طاوي الليل؟ وتركت خلفك مئات الروايات، وآلاف الحكايات، وهل ما زلت حيا، أم أنك هلكت؟ وما جاء بملابسك وسلاحك إلى جوار البركة؟ هل أخبرُ أحداً عن ملابسك هذه؟ لا لن أخبر أحداً، إن هذا المال والسلاح هو نصيبي، أخرج النقود ووضعها في جيبه، ولف الرشاش في ثوب طاوي، ودس المسدس في حزامه، وخرج قبل حضور أي أحد، وذهب إلى الغرفة الحديد، والتي ثبتها عند أطراف السوق، وضع الرشاش والمسدس، وجمع الثياب وأحرقها...

33
العرافة

وبعد أيام من مغادرته، وفي صباح الاثنين، وعند الثامنة لبس الدكتور أمير بدلته، ورش عطره المفضل دافيدوف، وركب التاكسي، متوجها إلى قاعة مؤتمر برلين، والذي يقام كل عام، ويحضره كبار العلماء، في علم الجينات والوراثة، ويتحدث عن آخر الأبحاث، وصل القاعة الكبيرة قبل بدء المؤتمر بعشر دقائق، وجلس في مقعده المخصص، يقلب أوراقه، ويرتب أفكاره، وبدأت فعاليات المؤتمر، وتوالت الكلمات، وجاء دوره فقام إلى المنصة، وتحدث عن آخر أبحاثه، وأنه قام باستخلاص خلايا جذعيه، من فأر وأرنب وحصان. صفقت القاعة تصفيقا حارا، وأكمل حديثه بأنه أجرى تجاربه على الفئران والأرانب، ونجحت التجربة، وقد صور تلك التجارب، على شريط فيديو، ووضع الشريط وتم عرضه، وقام كل من في القاعة، يصفقون له بلا انقطاع، وما إن انتهى المؤتمر، حتى تقدم إليه الكثير بالعروض المغرية للعمل معهم، بالمرتب الذي يحدده، لكنه اعتذر، وأخبرهم بحرصه على مواصلة أبحاثه، في بلده ومركزه...

وما إن وصل إلى سكنه، حتى أخذ تلفونه، واتصل بعمه القاضي، وأخذ يدعو الله أن يكون هناك إرسال، وسمع صوت عمه، فسلم عليه، وأخذ يحدثه عن المؤتمر لكن الخط ينقطع بعد ثوان، فيحاول ثانية وثالثة، حتى وصل الخط، فأخبره عمه عن طاوي: بأنه مفقود، ورد عليه أمير بأن طاوي: جاء للمركز وودعه، وأخذ بعض الأدوية.. فرح القاضي بهذا الخبر، وقال ربما نجد أملاً من هذه المعلومة، وودّعه... ثم تحدث أمير إلى زوجته سهام، وولديه الحسن والحسين...

***

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحا، لبس القاضي عمامته البيضاء، ومعطفه الأبيض الطويل، وخرج من منزله، ميمما وجهه نحو منزل الحاج جلمود، والتقاه في مزرعته المجاورة لمنزله، وأخبره الخبر، ففرح كثيرا، وأخذ القاضي وركبا سيارته الكروزر البيضاء، وتحركا باتجاه منزل طاوي، وما إن توقفت السيارة، حتى خرج حميدان وعن يمينه بخيت وعن يساره سعيدان، والصمت يلفهم، بانتظار بصيص أمل.. أمسك جلمود بحميدان، واحتضنه وضمه إلى صدره، وقال: لا تقلق يا ولدي، نحن معك، حتى نجد أباك. والآن جئناك لأن عند القاضي خبراً جديداً. سمع حميدان الخبر لكنه لم يضف أي نتيجة، ولم يرشدهم إلى أي أمل، فقد تم تفتيش القبيلة بجبالها وسهولها، ومزارعها ووديانها...

كان طاوي في منزله الجديد يشاهد ما يقع تحت عينيه، ويسمع ما يصل إلى أذنيه، ويتمنى أن يصيح، أو يقول كلمة تنقذهم من عناء البحث، وتنقذه مما هو فيه، هاهو يمر أسبوع كامل، ولا يهتم لأمره أحد، ومنذ أن قذفوا به في الإسطبل، مع الحصانين الآخرين، ولا يرى أحداً، إلا مهياب يأتي كل صباح، ليقذف ببعض البرسيم، وبعض التبن، وقليل من الشعير، ويملأ وعاء كبيرا بالماء...

وفي صباح الثلاثاء وقبل شروق الشمس، ونسائم الصباح العليلة تنساب في عذوبة أخاذة، وبعد أن غادر مهياب الإسطبل، خرجت ختام بهدوء لكي لا توقظ والديها، واللذان انتقلا ليسكنا معها، منذ اختفاء طاوي...التحفت رداءً أسودَ ثقيلاً من الصوف، نزلت من الدرج، تتكئ على الجدار، وتخطو خطوات قصيرة مترنحة، خرجت من باب المنزل، أسندت ظهرها إلى الجدار، وما إن لمحها الحصان الأصفر، حتى بدأ بصهيل غريب، فيه حشرجة وحنين، ومد عنقه فوق الشبك الحديدي وكأنه يناديها، وقطع صوت صهيله صوت أبيها من خلفها، يرجوها أن تدخل المنزل، فقد ظنها بدأت نوبة البكاء التي تلازمها كل حين، التفتت

إلى أبيها ورأته بثوب أبيض خفيف، فرجته أن يعود لأن الأجواء باردة، وهي بحاجة للجلوس منفردة، وأخبرته أنها لا تبكي، وإنما تتحرك وتتأمل.. اقترب منها وأمسك رأسها بكلتا يديه، ونظر في عينيها وقد امتلأت عيناه بغشاوة من الدمع، وقبّلها في جبينها، فأمسكت بكفيه وأخذت تقبلهما.. وقال لها: أحسني الظن يا ابنتي، والفرج قريب، ولم ترد عليه إلا بالمزيد من تقبيل يديه، ثم تركها وعاد...

جلست على الأرض، لكن الحصان الأصفر مستمر في صهيله الغريب، ويهز رأسه يمينا ويسارا، وكأنه يناديها، نهضت واقتربت منه بخطوات متثاقلة، وكلما اقتربت ازداد صهيله، وكأنه يرحب بها، وما إن اقتربت من السور الحديدي، حتى أخرج الحصان رأسه، فمدت يدها لتمسح شعر رأسه، وهو يداعب يدها، وينظر إليها، وتندلق من عينيه دمعتان، فأخذتها الدهشة، وقالت بصوت مسموع: كأنك مثلي حزين، أيها الحصان الأصفر.. فيهز رأسه، ويقترب منها، إلا أن السور الحديدي يمنعه.. سألته: من أي قبيلة أنت؟ ومن صاحبك؟ فيهز رأسه، ويداعب كفها، ويصدر صوت صهيل متقطع، وأيقنت بأن الحصان مشتاق لأصحابه وموطنه، ولكن لم يسأل عليه أحد، وحدثته وهي تمسح رأسه قائلة: سنعتني بك، حتى نجد صاحبك، ونجد زوجي، فهز الحصان رأسه، وضرب بحوافره، وكأنه يتراقص فرحاً.. كانت تتأمله بشغف كبير، وتتأمل الحصانين الآخرين، واللذان لم يهتما كثيرا لحضورها، مد الحصان رأسه محاولا لمس رأسها، فقربت رأسها، وحكته برأسه، وقالت: يا لك من حصان أليف! سيفرح بك طاوي كثيرا، نظر إليها متأملاً خدودها القمحية الممتلئة، وعينيها الواسعتين، وابتسامتها الجميلة، وقد اغرورقت عيناه بالدمع، مسحت على رأسه، وعادت أدراجها... بينما يتابعها الحصان الأصفر بنظراته، وحنينه وأشواقه، وكلما حاول الكلام خرج من فمه الصهيل...

كانت معاناة طاوي مع الحصانين الآخرين كبيرة في الأيام الأولى، لكنه

مع الأيام عرف كيفية التصرف، وكيف يتجنب إغضابهما، وقد فطن إشارة الغضب: حين ترسل أذنيها إلى الخلف مع تقليب العين، بحيث يظهر بياضها. أما إذا ترافق ذلك مع تحريك الذيل بقوة، والدوس بالقدمين، فذلك يعني نفاد الصبر. وعرف أيضا أن الأسنان المكشوفة بشكل كامل تشير إلى سلوك عدواني.. وحين يلاحظ تلك العلامات يتجنب الاحتكاك بهما، ويتجنب الأكل والشراب، حتى تهدأ، وعلامة هدوئها تدلي الشفاه والفك الأسفل، بشكل واضح، وكذلك وضعية الأذنين إلى الأمام...

أصبح الحصان الأصفر في وفاق تام مع الحصان البني، أما الحصان الأسود فكان يضايقه باستمرار، ويعضه في رقبته، ويرفسه، وطاوي يتجنبه قدر المستطاع .. كان الحصانان الآخران يقضيان معظم الوقت في الأكل بينما كان الأصفر لا يأكل إلا ما يسد رمقه، وقد أحب الشعير، وكره البرسيم والتبن، وكانا لا ينامان سوى ساعتين، ولا يجلسان على الأرض إلا قليلاً، ويقضيان اليوم كله واقفين.. والأصفر لا يستطيع النوم إلا جالسا أو ممتدا، ومع أنه اتخذ زاوية بعيدة في الإسطبل الواسع، إلا أن الحصان الأسود، يأتي لرفسه أو عضه، ولا يهنأ بالنوم لأكثر من أربع ساعات...

وبعد أيام، أخبرت ختام أباها وأمها بحبها للحصان الأصفر الجديد، ولولا أنها حامل، لركبت على ظهره، وتقافزت به في الحوش الكبير، وطلبت من أبيها، أن يخرج معها، كانت الشمس على وشك المغيب، التحفت رداءها الصوفي الأسود، أمسك والدها بيدها، ونزلت الدرج تهادى، وما إن فتحت باب المنزل، حتى بدأ الحصان بصهيله المعتاد، اقتربت منه ويدها بيد أبيها، والحصان كعادته يقلب رأسه بين كفيها، ويحاول لمس رأسها، وأبوها بعيون مفتوحة يتأمل بغرابة وتعجب، وكأنما الحصان يعرفها منذ الصغر، طلبت من أبيها، أن يفتح باب الإسطبل، ويخرجه، فأخبرها أنها حامل، ولا يمكن التنبؤ بتصرفاته، لكن الحصان أعلن موقفه، فبدأ بصهيل خفيف، ويهز رأسه بسكينة، فقالت ختام:

إنـه يا أبي يريـد الخـروج، فأحـضَرَ لجاما مـن غرفـة صغـيرة مجـاورة وألبـس الحصـان في سهـولة ويسر، وكأنـه يمتثـل للجـام بطريقـة احترافيـة، وفتـح البـاب، فخـرج الحصـان، وأمسـكت ختـام بطـرف اللجـام، وسـارت لخطـوات، والحصان يرافقها، وقد أحنى رأسه، والأب يراقب بصمت، توقفت ختام، ونظرت إلى أبيها وقالت: ألم أقل لك يا أبي، بأنه أليف وودود.. أمسكت برقبة الحصان، فانحنى برأسه ووضعه على ظهرها، يدفعها إليه برفق، وكأنما يطلب منها الاقتراب، احتضنت رقبته بقوة، والتف برأسه حتى شكل دائرة مكتملة، وأبوها مستغرق متعجب، ربتت على رقبته، فرفع رأسه، وأخذت تربت على ظهره، وهو يتأملها بعيون واسعة مبتهجة، وأمسكت برأسه بكلتا يديها وتقول لأبيها : انظر إلى عينيه السوداوين كيف يسترسل عليهما شعر الناصية، وانظر إلى رأسه، فهو ناعم الجلد، خال من الوبر، قليل لحم الخد، كأن رأسه بشكل هرم، كانت تمرر يديها، فيغمض عينيه، وكأنما غفي في نوم عميق...

توقفت سيارة خارج المنزل، وإذا بطارق يطرق الباب، اقترب والد ختام من البوابة، بينما تلثمت ختام، فإذا به حميدان ومعه الحاج جلمود والقاضي وجرير، اقتربوا من ختام، وتحدث الحاج جلمود بأنهم مستمرون في بحثهم، وأضاف القاضي بأن الدكتور أمير أكد في اتصاله، بأن طاوي زاره إلى المركز ليلة اختفائه، وعلق جرير قائلا: لو نجد أثراً لطاوي سنمسك بطرف الخيط، وبعد أن سمع الحوار اقترب الحصان الأصفر، وجعل مؤخرته في مواجهة مؤخرة جرير، وصوب ركلة قوية حتى سقط جرير على الأرض، وتدحرج شاله المربوط على رأسه، ولم ينهض إلا بمساعدة جلمود، ورفع عصاه، وانهال ضربا على الحصان، حتى صاحت ختام: هذا يكفي يا مطوع.. فأمسك أبوها اللجام وقاد الحصان إلى الإسطبل.. كانت ضربات جرير مؤلمة، لكن رفسة الحصان الأصفر أكثر إيلاما، فقد كان تعليق جرير مثيرا ومستفزاً للحصان، ونظر من جدار الإسطبل،

وعيناه تتأمله ويتساءل: أين ثيابي ونقودي وسلاحي؟ أين أخفيتها يا ناكر الجميل؟ ويا قليل المعروف...

ومرت الأيام، ولا أثر لطاوي، وحضر العقيد مردم ابن جلمود، مدير أمن تعز، ومعه فريق من المباحث و التحريات، ولم يتركوا مكانا إلا وصوروه، ولا شخصاً من المقربين إلا وحققوا معه، وفتشوا الآبار، والمزارع.. وبعد أن استيئسوا طووا سجلاتهم، وأخذوا كاميراتهم، وعادوا بخفي حنين، ليسجل الاختفاء، تحت خانة المجهول...

***

كان جرير أكثر أهل القبيلة قلقاً، وأسرعهم مبادرة في البحث، وأكثرهم نشاطا، ولم يغادر فريق التحقيق إلا وقد امتلأ قلقا وذعرا، مع أنه قد تخلص من الثياب، وباع السلاح، في قبيلة أخرى، وخبأ الدولارات في مكان أمين، وقبيل غروب شمس الأربعاء انطلق بسيارته الصفراء إلى بني شامخ، وتوقف غير بعيد من منزل المشعوذة نورة، وتسلل إلى منزلها، وقابلته بترحاب، وقدمت له القهوة، وأخرج من جيبه ربطة من النقود، وأخبرها أن تجدّ في البحث عن الشيخ طاوي، وأخبرها بأنه سيأتي الغد، وعليها أن ترشد ابنه حيدان، على البحث عن أبيه في السد، وأن توصيه أيضاً بملازمة الرقية عند المطوع، فقد تكون الشياطين محتجزة الشيخ عندها.. فهمت نورة الرسالة جيدا، لكنها أشارت لجرير وقالت: ربطة واحدة لا تكفي.. كان جرير حريصاً على أن يَظهر باحثاً بريئاً، ولا يَرغب أن يتسلل أدنى شبهة أو شك من قبل نورة نحوه... فقال ويده تتسلل إلى جيب معطفه لتخرج ربطة أخرى: يا نورة، أنتِ مباركة، وأهم شيء نجد الشيخ، فهو رجل كريم، وسيكرمك كثيرا، وكل أملي أن نجده، ابتسمت نورة، ودست الربطة الثانية تحت الفرش الذي تجلس عليه...

وفي مساء الخميس، وعند الثامنة مساء، وهم في طريق عودتهم بعد لقاء

نورة، وإشاراتها المبشرة، كان حميدان فرحاً ومستبشراً، ويقود السيارة الكروزر الحمراء، بهدوء على غير العادة، وبجانبه المطوع جرير، وفي المقعد الأوسط أمه عشبه وأختاه حمامة ورمانة، وفي المقعد الخلفي بخيت وسعيدان... وفجأة ضرب حميدان بيده، على فخذ جرير بقوة، وقال: لن أنام الليلة، إلا وقد نظفت السد، التفت إليه جرير، ويديه على فخذه، وقال: كسرت رجلي يا ولدي، ما هذا المزاح يا حميدان؟ ابتسم حميدان وقال: دائما أضرب المرافقين، ولا أحد اشتكى.. اسودّ وجه جرير وقال: يا ولدي أنا لست مرافقاً، أنا في مقام أبيك.. ابتسم حميدان، وأخذ يمسح لحية جرير، ويطلب السماح.. وحاول سعيدان إشعال النيران، وقال: ظننت الإطار انفجر... ضحك جرير ساخرا وقال: قد تصالحنا، وفّر تعليقاتك، أيها الأزرق. ولم يمهله سعيدان وقال: يجب أن نذهب إلى المركز كي يفحصوا فخذك.. وأجاب حميدان قائلا: يا سعيدان شكلك مشتاق لعصى المطوع، وزاد السرعة، وتفاجأ بمطب كبير، ضربت معه الرؤوس سقف السيارة، وصوب الجميع انتقاده لحميدان، وسواقته المتهورة... أخبرهم بأنه لن يتوقف إلا أمام السد، ليبدأ الشفط، فاعترضت أمه، واتفق معها جرير، بأن الصباح آت وقريب، وامتثل حميدان على مضض، وتوقف أمام منزل جرير وودعه، وعاد إلى منزله، وبعد دخول أمه وأختيه، اجتمع مع المرافقين، وحثهم على تجهيز الأنابيب، وجمع مواتير الشفط، في الصباح الباكر...

***

وفي صباح الجمعة، وقبل شروق الشمس، أيقظت عشبة حميدان، وخرج من المنزل إلى الديوان الكبير، وتفاجأ بحضور العشرات، من الشباب أمام منزلهم، والتفت إلى سيارتي الشاص و الهايلوكس وقد امتلأتا بالمواتير، وبجوارها سيارة جرير، وعليها أربعة مواتير، اقترب منه بخيت وقال: لقد انتشر خبر الأمس، بأن الشيخ في السد، وأنك تريد شفطه، فأحضر كل واحد ماتوره، وأما الحاج جلمود فقد سبق الجميع، وحمل مواتيره الثلاثة...

تحرك الجميع نحو السد، وكان ممتلأً بالماء حتى المنتصف، ويبلغ عمقه ثلاثين مترا، وطوله يمتد لحوالي كيلومتر، وقفوا على جوانبه، وتسابق الجميع في مد الخراطيم، وغمر أطرافها في الماء، وتشغيل المواتير للشفط، كانت عشرة خراطيم مختلفة الأحجام والألوان، بدأت تشفط ماء السد، لتشكل سيلا كبيرا، وصل إلى بني علي بعد نصف ساعة.. وكان مرور هذا السيل، فرصة ذهبية للكثير من المزارعين، من الذين لا يمتلكون مواتيرا لسقي مزارعهم.. وشكروا طاوي في حياته وبعد اختفائه...

ومرت خمس ساعات إلا أن السد صامد، ولم يظهر عليه الانكسار، أو بوادر الضعف والهزيمة، ولم ينقص من مياهه إلا القليل، في حين أن الكبار والصغار، قد ملأوا السد سباحة وضجيجا، وكأنه احتفال لوداع مياه السد، واستقبال شيخهم الغائب، واقتربت الشمس من المغيب، لتضع لمسات الوداع على مياه السد الصامدة، وتودّع الرؤوس التي تراقب المياه، وتنتظر الشيخ حيا أو ميتا، إلا أن رواية حياة الشيخ كانت أقوى، ولم يكن أحد يتحدث عن موته أو هلاكه، وبعد الغروب، وتوحش الظلام، وإصرار السد على مقاومة الضخ، انهزم الجميع، وانسحبوا مجتمعين تاركين للخراطيم استمرارية الشفط الذاتي على أمل الحضور عند الفجر، وقد خلع السد رداءه الجميل، وأصبح عاريا من المياه...

استمر السد في صراع مع تلك الخراطيم التي تنزع حريته، وتستنزف حيويته، وتحيله إلى سد مهجور، لا حياة فيه للإنس ولا الطيور. انهزمت بعض الخراطيم، وتوقفت عن معركة الاستنزاف، إلا أن ثلاثة منها بقيت صامدة، وكانت أكبرها حجماً، وأسرعها ضخا، ومع بزوغ ساعات الفجر الأولى، كان السد يسحب ذيوله ببطء شديد. وكان أول الحاضرين هما الحاج جلمود والقاضي، وقفا عند ذيل السد، وبأيديهما كشافات صغيرة، تتحرك بسراجها، لاكتشاف كل ما ينكشف عنه الماء، ومع أن القاضي وجلمود لا يؤمنان بخرافات نورة، ولا يصدقان أباطيلها، إلا أن حادثة كشف جثة حيدر في الأشهر الماضية، كانت علامة فارقة وتحول عميق

جعلهما يتوقعان وجود طاوي في السد. توافد الناس، وكانت الشمس آخر الحاضرين، فقد سبقها المئات بل الآلاف في مشهد مهيب، بانتظار الشيخ طاوي، انحسر الماء شيئا فشيئا، وعند العاشرة صباحا كان خرطوم جلمود، ينتزع آخر الماء، من أدنى حفرة في السد، وانتزعت الروح من السد، وانتزع معها أمل الحاضرين، وساد الوجوم، وخيم الحزن، واقترب جرير من حميدان، وبجواره جلمود والقاضي وسعيدان، أمسك بيده، وقرب فمه إلى أذنه وقال: سنجد أباك، وسننتقل للخطوة الثانية.

التفت إليه حميدان وقد رفع حاجبيه، ومط شفتيه، وقال: أي ثانية؟ ورد جرير بهمس: الرقية يا ولدي الرقية. أنسيت وصية نورة، هز رأسه حميدان، وخرج من بين الجموع الحزينة يجر حزنا أكبر، ووجعا أشد، ويده اليسرى يجرها جرير، ويمسك بها بقوة.. حاول التخلص منه، لكن جرير همس في أذنه مجددا، قائلا: سألحق بك بسيارتي، فانتظرني في البيت.. ركب حميدان سيارته، ومعه بخيت وسعيدان، وخالد ومريس...

وبدأت المرحلة الثانية؛ وجرير بطلها، فقد أشعل البخور، وقرأ القرآن في أماكن كثيرة، وعشبة أكثرهم إيمانا برقيته، وحمامة أكثرهم تبرما وحميدان لا يخالف أمه، ولا يفقد الأمل، تنقل مع جرير وبخوره من الديوان الكبير في منزلهم في الوادي الأسفل إلى ديوانهم في الوادي الأعلى، إلى مزارعهم الخمس، إلى جوار مركز الدكتور إلى جبل الولي، إلى جبال القبيلة جبلا جبلا إلى مناطق القبيلة الخمس، وفي كل رقية ينفث جرير ويصيح، وينادي وينوح، وبدأ الرقية بقراءة القرآن، وتطور شيئا فشيئا، حتى أصبح يصيح بأسماء، وتعاويذ، لا يعرفها أحد، وبعد كل رقية، يحتلب النقود، وكان حميدان بخيلا معه، لكن عشبة أكرم وأجود، وهي التي بيدها النقود، وحاول جرير مرارا وتكرارا معرفة الملايين التي جمعوها، من قصة الكنز في جبل الولي، لكن عشبة نهرته وحذرته بشدة، وأنه ليس من حقه السؤال، وأن الشيخ طاوي سيأتي...

34

مولود جديد

وبعد أيام، ومع شروق شمس الأحد أشرق مولود جديد، تلقفته أيادي ختام بفرح شديد وبشارة عظيمة، وقد كان يشبه أباه، في منخريه العريضين، ويشبه أمه في فمه الصغير، وعينيه الواسعتين ... وجاء حميدان وأمه عشبة وأختيه، يمتلئون فرحة في بحر الأحزان، ويستبشرون أملا في تلاطم اليأس، أخذته عشبة في أحضانها، وهي تحمد وتشكر الإله، وتقبله وتناغيه، وكذلك فعلت حمامة ورمانة، وأخذه حميدان وهو يقول: ماذا نسميك؟ ماذا نسميك؟ ... قاطعته ختام قائلة: كان أبوك يقول: إن كان ولداً فسيسميه زوكان على اسم عمك، لكني أقترح أن نسميه: فرج، حتى يفرجها الله ويأتي أبوك، وله الرأي بعد ذلك.. وافق الجميع على رأيها، بانتظار فرج قريب يجلبه فرج الوليد...

لم يكف الحصان الأصفر عن الصهيل، وكانت ختام تقص عليهم خبرها معه: وكيف يتعامل معها، ومع كثرة مديحها.. قررت حمامة أن تجرب بنفسها، فأخذت بيد حميدان، وطلبت منه مرافقتها، وخرجا إلى الإسطبل، وقبل أن يصلا إليه، كان الحصان الأصفر يرفع أذنيه إلى الأمام، ويحرك رأسه، وكأنما يحييهما، وما إن اقتربا يداعبانه مسحا على رأسه، حتى أدركا أنه كما قالت خالتهم ختام أليف وودود، وبينما أمهما تراقب من نافذة غرفة ختام، فتح حميدان باب الإسطبل، وأخرجه بعد أن ألبسه اللجام، فإذا به يلتف حولهما، ويداعبهما برأسه، وينحني لهما، وكأنه قطة أليفه، كان حميدان يقلب كفيه، ويشير إلى حمامة ويقول: لم أرَ حصاناً مثله، دخل الغرفة الصغيرة، وأحضر منها «السرج» وألبسه الحصان، وشد

حزام السرج، وركب.. والحصان مستقر وهادئ، وكأنه يرحب به، أمسك بالعنان وحركه، فإذا بالحصان يجري في حوش المنزل، كفرس سباق، وأخذ حميدان لفة في الحوش، وامتلأت النوافذ بالمشاهدين، وحتى ختام، فقد نهضت من مرقدها، لتشاهد حميدان... وقف الحصان بجوار حمامة، وقد أحنى رأسه بين يديها. نزل حميدان مبتسما، وأمسك بيد حمامة وقال لها: حان دورك فاركبي.. ابتعدت ثلاث خطوات، فتبعها الحصان، ورأسه منحن، نظرت إلى النوافذ، وقالت بصوت مرتفع: هل أجرب يا أمي؟ فتجيبها أمها بألا تخاف وبأن على حميدان أن يمسك باللجام، وركبت وهي تتوسل حميدان ألا يتركها، وهو يقود الحصان، وبعد ثلاثين مترا، طلب منها حميدان أن تمسك اللجام بنفسها، وسيسير بجوارها، فأمسكته بينما الحصان يسير بهدوء ويسر، وطلبت من حميدان أن يسرع الحصان قليلاً... وقبل أن تكمل جملتها، بدأ الحصان يزيد سرعته، حتى أوصلها إلى مكان البداية، فنزلت، وأمسكت برقبته، وقد لف حولها رأسه، وصل حميدان، وأنفاسه تتلاحق، وقال لها: لقد كانت سرعة الحصان كبيرة...

وبعد أيام كان حميدان يحدث مهياب والمرافقين عن الحصان الأصفر، وهل ظهر له صاحب، فيردون بالنفي، ويتحدث مهياب بأن هذا الحصان لا يمتلك من المميزات إلا اللون، وهو عنيد وبليد، ولا يبدو أنه أليف، ووجوده لا فائدة منه.. فيحملق حميدان ببصره إلى مهياب، وقد رفع حاجبيه، وفتح عينيه، وقال: كلامك غريب... فيقاطعه بخيت قائلا: نعم، إنه حصان معتوه، فلم يستطع أحد ركوبه، منذ أمسكنا به. ويضيف سعيدان قائلا: يبدو أنه من الخيول الوحشية، فقد كاد يوم أمسكنا به، يقتل مريس.. أخذ حميدان يقلب عينيه في وجوههم، وقال: أمتأكدون من هذا؟ أجابوا جميعا: نعم... وطلب منهم أن يلحقوا به، وفتح باب الإسطبل من الخارج، وما إن رآه الحصان الأصفر، حتى أقبل يتمسح في

حميدان ويداعبه، ومهياب يمسك رأسه بكلتا يديه، ويقول: لا أصدق ما أرى؟ وقال حميدان لمهياب:

أحضر السرج واللجام.. أحضرهما إليه سريعا، فألبس الحصان وشد حزام السرج، وأمسك باللجام، وركب، وانطلق خارج المنزل لمسافة بعيدة حتى وصل إلى المزرعة الثالثة، ثم عاد وعيون المرافقين تكاد تخرج من محاجرها، ونزل من على ظهره، وطلب من أحدهم أن يتقدم ليركب، فتقدم مهياب، وأمسك باللجام، وما إن رفع رجله حتى باغته الحصان، بخطوات للأمام، فوقع مهياب أرضا.. لتتلقفه تعليقات سعيدان قائلا:

أنت يا مهياب تحتاج زرافة تحملك... ضحكوا جميعا، ورد مهياب قائلا: تعال أيها القرد الأزرق، وأرنا شطارتك.. تقدم سعيدان وهو يخاطب الحصان: لا تفضحني أرجوك، وأمسك باللجام، وقفز على ظهر الحصان، وبعد ثلاث خطوات، وهو يصيح: انظر يا زرافة، انظر إلى الفارس البطل، وقبل أن يكمل جملته، رفع الحصان رجليه، وتقافز بقوة، حتى سقط سعيدان، إلى الأرض.. وحميدان يقف محتارا، ثم يتقدم إلى الحصان، ويركب ثانية، ويعدو به حول المنزل ويعود بسلام.

كان بخيت ومهياب يضحكان على سعيدان، وهو يجفف الدم من رأسه، ويضع على الجرح الصغير ترابا دقيقا، من جدار الحوش.. صاح سعيدان موجها خطابه لبخيت: تعال أيها الدب المرعب، جرب حظك، ضحك بخيت وقال: يكفي ماحل بكما، وأخذ مهياب بلجام الحصان وأدخله الإسطبل ...

***

ومضى الشهر الأول والثاني، ولم يترك الحاج جلمود وسيلة إلا واتخذها في سبيل البحث عن طاوي، يحركه الشعور بالمسؤولية، وتدفعه الحميّة القبلية، وتتحرك في ضميره براكين الحيرة، وتجثم على قلبه جبال الشفقة على أسرة طاوي، فقد جند ولديه للبحث، وتحرك في كل مكان، وسأل جميع القبائل، وشعر بالعار، وقوائم الشنار، فكيف يختفي شيخ القبيلة، ولا يهتدي إلى وسيلة، ولم يعد يحتمل، لكن وما عساه يفعل، وقد طرق كل الطرق، وصدق المشعوذة نورة، وترك لجرير مواصلة المسير في الرقية والتبخير، ولم يعد يشغله شاغل سوى العثور على طاوي. وبينما الصمت يلف ديوانه الطويل، والسكوت يطبق على الجالس بجواره، وكل منهما يسبح في أفكاره، ولا صوت يسمع إلا صوت مضغ أوراق القات. وأراد جلمود أن يقتل الصمت فسأل القاضي عن أخبار الدكتور ومتى سيعود؟ فأجابه القاضي، بمختصر الكلام: بأنه على ما يرام...

35
الغموض

أمضى الدكتور أمير ثلاثة أشهر في ألمانيا، يحاضر حول أبحاثه، ويحضر كثير من المؤتمرات، وفي عصر يوم الأربعاء بدأ يرتب أوراقه وملابسه للعودة إلى اليمن غدا الخميس، وتذكر تلك المرأة وزوجها، وقصتها العجيبة التي لم يعرفها، فقرر ألا يسافر إلا وقد ملأ ذاكرته، بتفاصيل حكايتها، ففتش عن كرتها، ووجده بعد عناء، يرقد أسفل الحقيبة، متخفيا تحت الأوراق، اتصل بها وعرفها بنفسه، فعرفته سريعا ورحبت به، وعزمها على القهوة في مسكنه، أو حيثما تشاء، فقبلت الدعوة في مسكنه، وأنها بعد ساعة من الآن تكون مع زوجها في المكان، قام أمير سريعا ينظف السكن ويطيبه، و يرتب الكراسي والطاولة، وفتح باب البلكونة، وبدأ بتحضير القهوة، وما كاد يستلقي حتى رن جرس باب شقته، فإذا هي وزوجها... تغيرت ملامحها، فقد امتلأ جسمها، وصبغت شعرها بالأصفر، واستدار وجهها، بعد أن امتلأت خدودها، وبدت مبتهجة نضرة، أجلسهما على كرسيين خشبيين، وجلس أمامهما، تتوسطهم طاولة زجاجية مستديرة، صب لهما كوبين من قهوة أعدها للتو، وهو يخاطبها: تذوقي قهوة البن اليمني. أمسكت بالكوب، تقلب نظراتها فيه، وأخرجت من أعماقها نهدة عريضة، ورشفت رشفة خفيفة، ثم ألقت ببصرها إليه وقالت: أتدري أنني أدرى منك بأنواع القهوة اليمنية؟ فتح عينيه وأجابها بابتسامة صامتة... تدفق حديثها عذبا سلسا، وكأنها إحدى أميرات صنعاء القديمة، حدثته عن القهوة البيضاء والتي تشتهر بها محافظة البيضاء، والتي تضاف لها بعض المكسرات، وقهوة الصباح: وهي من البن المطحون مع بعض الزنجبيل والسكر حسب الرغبة، وقهوة القِشْر: وتصنع من القشور الخارجية لثمرة البن، وتكون في المساء... تساقطت كلماتها على مسامعه، كقطرات مطر باردة، ولم يخف

تعجبه وقال لها: لم أكن أعرف إلا نوعين فقط، وهذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن القهوة البيضاء.. ارتشفت القهوة ثانية وقالت: أخبرني كيف وجدت ألمانيا؟ لم يكن يرغب بالحديث بل بالاستماع إليها، فأجابها مختصرا بقوله: إنها مدينة العلم والسحر والجمال... ولم يترك لها فرصة لسؤال آخر، وسألها عن اليمن وما قصة العشر زيارات؟ ولماذا قررت بألا تزور اليمن بعدها؟ وماهي قصتها العجيبة التي أشارت إليها في الطائرة؟ مسحت بكفيها الممتلئين على وجهها، ثم مررتهما على شعرها القصير الأصفر، وشبكت أصابعها وقالت: القصة طويلة ومؤلمة. قاطعها قائلا: وأنا مشتاق لسماعها، وكلي آذان صاغية.. أسندت ظهرها إلى الكرسي، وأخذت نفسا عميقا، وقد احمرّ وجهها، واغرورقت عيناها بالدمع، وقالت:

لقد زرت اليمن عشر مرات، وفي كل مرة أراها أجمل من ذي قبل، ومع أني زرت كل بلاد العالم، إلا أني لم أجد مثل اليمن، في هوائها العليل، وتنوعها المناخي الجميل، وتعدد جغرافيتها الساحرة، فمن صنعاء الفاتنة بسحرها الأخاذ ومبانيها العريقة وأهلها الطيبين، إلى ضواحيها الجميلة، من وادي ظهر ودار الحجر التي زرتها سبع مرات، إلى بني مطر والحيمة وتلك الجبال الشاهقة، وأرحب وهمدان وشجرة القات التي تغطي مساحات شاسعة، وسنحان وخولان وأسواق السلاح فيها، إلى إب الخضراء، وعدن الصهاريج، واحتضان الجبال للبحر، في تناغم وجمال قل نظيره، إلى صعدة وفواكها التي لم أذق مثلها، إلى مأرب، وذلك التاريخ الضارب في أعماق الزمن، إلى حضرموت وتلك الناطحات التي تخبرك بحضارة لا تتكرر، إلى ذمار التي يجبرك أهلها على الضحك، وإن كنت في عمق التأمل... ضحك أمير ضحكة مفاجئة، وغير متوقعة، واعتذر لمقاطعتها، لكنها ذكرته، بذمار وما فيها من نوادر وأخبار، وطلب منها إكمال حديثها الجميل... ابتسمت ورمت ببصرها خارج المكان، ورفعت رأسها نحو السقف وقالت: حتى كانت آخر زيارة، وبرفقتي زوجي تيم، ومسودة روايتي

التي هي عصارة رحلاتي العشر، وبينما نحن مع السائق ومرشدنا السياحي، على متن سيارة كروزر خضراء، استوقفتنا عصابة مسلحة، لا يزيد عدد أفرادها عن ستة، في منطقة جبلية وعرة، وطلبتُ من السائق والمرشد ألا يقاوما، وتوليت مفاوضة الخاطفين، وحاولت إعطائهم ما لدينا من نقود، إلا أنهم رفضوا، وقالوا : بأن لهم حقوقاً عند الحكومة، وعصبوا أعيننا ... وهنا تساقط دمع جوليا، ونزع أمير ثلاثة مناديل ورقية من علبةٍ صغيرة على الطاولة، وناولها لتجفف دمعها، بينما احتضنها زوجها تيم، واعتذر أمير منها، لجرها للحديث عن ذكريات مؤلمة.. جففت دموعها، ونظرت إليه وقالت: لن أنسى تلك اللحظات، وهم يجروننا كالأغنام، وكنا نتوقع القتل، وزوجي تيم لم يترك يدي طوال الوقت، ورعبه أشد، ومفاجأته أكبر، خاصة وهو لا يعرف شيئاً من اللغة العربية، ولا يفهم الحوار الذي دار، ولم تنزع عن أعيننا الربطات، إلا بعد حوالي الساعة والنصف، لأجد نفسي مع زوجي فقط في غرفة صغيرة مظلمة، يغزونا الضوء في النهار من نافذة يتيمة واحدة، ومرتفعة جدا... أمسكت جوليا برأسها وكأنها تتذكر شيئا، وأخذت نفسا عميقا، وأخرجت شهقة كبيرة وقالت: ومع أنهم أجلاف أشداء، إلا أنهم كانوا كرماء، فقد جاءونا بالماء المعدني، والفراش الكافي، ولم نعاني إلا من فقدان الحرية، فقد أُخذت هواتفنا، وحقائبنا، ولم يترك لنا إلا أن نأكل ونشرب، ومع كثرة اللحوم التي يقدمونها، إلا أننا لم نأكل كثيرا، وكان الخوف يسكننا، وخاصة زوجي تيم... قاطعها أمير قائلا: هل عرفتم الخاطفين؟ وكم بقيتم هناك؟

أجابته: لا نعرفهم، ولا نعرف المكان، ولكني سمعت بعض الأسماء، فقائدهم ينادونه الشيخ، وله ولد مزعج، في السادسة عشرة من عمره تقريبا، كان يلح علينا بأكل القات، وعند كثرة إلحاحه، كنا نأكل بعض الأغصان، بعد كل وجبة غداء، ونشعر ببعض الراحة، وتنامي الخيال، وقد بقينا على هذا الحال ثلاثة وعشرين يوما، وعرفت فيما بعد بالفدية التي قدمتها السفارة

بشـكل سري، وهي نصف مليـون دولار، وعرفـت أن الوسـيط قائـد كبـير في الجيـش، لم أكـن أهتم لتلـك التفاصيـل، فقـد كان هاجـس الحريـة هـو السـاكن في خيالنـا طـوال الوقـت، ومـا يؤلمني كلما تذكـرت، هـو ضيـاع روايـتي، والـتي شـارفتُ فيهـا عـلى الانتهـاء، وحـين طالبتهـم بهـا، نهـرني الضابـط وقـال: نريـد أن نطلـقَ سراحـكِ، وانسي مذكراتـكِ وكتبكِ...أخـذَتْ جوليـا نفسـا عميقـا، وحدَّقَـتْ في عيـني أمـير وقالـت: كم أمضيـتُ مـن ليـالي وأيام وأنا أكتبهـا، إنها عصـارة سـنوات، جمعـت فيهـا فرائـد وقلائـد مـن جبـال اليمـن وسـهوله، وترابـه ومزارعـه، وبنيتهـا قويـة وجـزلة، مـن قـوة اليمنيـين وبأسـهم، لكنهـا ضاعـت وكـدت معهـا أضيـع... قاطعهـا أمـير قائـلا: لم تذكـري لي اسماً واحـدا؟

قالـت: نعـم أتذكـر جيـدا، «هُميـدان» ابن الشـيخ، وسـعيدان ذلـك الشـاب الأزرق الأصلع، وهـو كاسمـه مبتـسم دائما... اعتـدل أمـير في كرسـيه، وتنحنح،ولمـلم أصابـع يديـه وفركهـا، وسـألها وقـد اضطربـت كلماتـه: هـلا وصفـت لي الشـيخ؟

قالـت: متوسـط الطـول، شـواربه طويـلة، في خـده الأيسر حفـرة سـوداء، وأحـد أسـنانه ملبسـة بالذهـب... قاطعهـا أمـير وقـد أمسـك برأسـه، ونظراتـه تـكاد تخـترق الطـاولة... مـدت يدهـا ووضعتهـا عـلى رأسـه وسـألته: هـل أزعجتـك قصـتي، أم أن هنـاك أمـراً مـا؟ أجابهـا وكأنـه لم يسـمع سـؤالها قائـلا: هـل هنـاك أسماء أخـرى تتذكرينهـا... لفـت بنظراتهـا حـول المـكان، وأطرقـت برأسـها هنيهـة ثم قالـت : نعـم هنـاك شـابة جميـلة لطيفـة، في السـابعة عـشرة مـن عمرهـا، وكانـت حامـلاً واسمهـا «كتـام»، التقيتهـا في آخـر يـوم، وأنا أغـادر المـنزل، وبعدهـا عصبـوا أعيننـا، حـتى وصلنـا صنعـاء.. أمسـك أمـير بيدهـا وقـال: سـآتيك بروايتـك.. وكررهـا ثـلاثا. قلَّبـت كفيهـا، ونظـرت إلى زوجهـا، ثم سـألته: هـل تعرفهـم؟ فأجابهـا: سـأعرفهم...وما إن ودعهمـا، حـتى أمسـك

بتلفونـه، وحـاول الاتصـال بعمـه، إلا أن تلفونـه مغلـق، فاتصـل إلى مـنزل الحـاج جلمـود...

***

ويرن تلفون جلمود، ويرفع السماعة، فإذا بـه أمير يسلم عليه، ويسأله عن أحـواله، وأخـبره بأنـه حـاول الاتصـال بتلفـون عمـه القـاضي، لكنـه مغلـق... رحـب بـه جلمـود، وأخـبره أن عمـه بجـواره، وسـلم السماعـة للقـاضي، فأخـبره أمـير بانتهـاء أبحاثـه ومناقشـاته، وبأنـه مسـافر صبـاح غـد الخميـس، ولديـه أخبـار عـن طـاوي، وودّع عمـه، وأقفـل الخـط... تهلـل وجـه القـاضي، وقـد مـلأت الابتسـامة وجهـه، وجلمـود ينظـر إليـه ويقلـب كفيـه متسـائلاً، فقـال القـاضي: الدكتـور سيأتي غـدا، ويقـول بأن لديـه أخبـاراً عـن طـاوي...انفـرد وجـه جلمـود، وقَبَّـلَ رأس القـاضي، وقـال: انهـض، فهـذا الخـبر لا يتأخـر. قـام القـاضي متثاقـلاً، فقـد كانـت السـاعة السـليمانية، والـتي يكـون فيهـا طعـم القـات كالسـكر، انطلقـا باتجـاه بيـت طـاوي، ومـا إن وصـلا حـتى اسـتقبلهما بخيـت، فطلبـا منـه أن يدعـو حميـدان، وخـرج حميـدان بثـوب أبيـض، ويمتطـي الجنبيـة، وعـلى رأسـه شـال أحمـر ملفـوف، وفمـه ممتلـئ بالقـات، فسـألهما: مـاذا هنـاك؟ فأخـبراه أن يأتي بأمـه. فطلـب منهـما الدخـول إلى الديـوان الصغـير، في المـنزل القـديم، وسـيأتي بهـا، ولحقـا بـه والتقيـا بهـا في حـوش المـنزل، فقـد كانـت تضـع البرسـيم للبقـرة، أخبراهـا باتصـال الدكتـور أمـير، وأن لديـه بعـض التفاصيـل عـن طـاوي، لم تتمالـك عشـبه نفسـهـا، وزغـردت بأعـلى صوتهـا، وقالـت: نـذرت لله بـذبح عـشرة خرفـان، حـين نلتـقي بطـاوي... ومـا إن غـادرا حـتى اعتمـر حميـدان شـاله، ولـف بعضـه عـلى وجهـه، وطلـب مـن أمـه أن تأتي معـه، إلى منزلهـم الثـاني في الـوادي الأعـلى، ليبـشر خالتـه ختـام، أخـذت عشـبة سـتارة مزركشـة بألـوان عـدة، ووضعتهـا عـلى رأسـها، ولفـت بباقيهـا جسـدها، وخرجـت مـع حميـدان، وانطلـق بالسـيارة الشـاص البيضـاء

بسرعة كبيرة، ولم يأخذ أحدا معه من المرافقين... وطرق بوابة المنزل، وفتحت ختام وفي حضنها فَرَجْ ملفوفاً في قطعة قماش بيضاء، وبجوارها الحصان الأصفر، احتضن حميدان أخاه الرضيع، وأخذ يقبله بينما عشبة تزف لها البشرى، زغردت ختام، وشاركتها عشبة، وبدأ الحصان الأصفر بالصهيل، ورفع أذنيه، وتسلل بهدوء، حتى وقف بين عشبة وختام، وكل واحدة وضعت يدها على ظهره، وضحكاتهما لا تتوقف...

***

وصل جرير إلى الدكان بعد زيارة قصيرة إلى العرافة نورة، فأخبره منير بأن غدا سيأتي الدكتور أمير، ولديه بعض الأخبار، عن الشيخ طاوي، احمرّ وجه جرير، وتنحنح وسأله عن التفاصيل...

وأخذ يفكر مرارا وتكرارا، يا ترى ماذا لدى أمير من أخبار؟ وكيف عرف وهو وراء البحار في بلاد بعيدة؟ وأغمض عينيه، وعضّ شفته السفلى، وأخرج تلفونه واتصل بحميدان، وقال له: أريدك وأمك الآن.. فأجابه بصوت متقطع: بأنهما في الوادي الأعلى في منزلهم الثاني...ركب جرير سيارته، وانطلق بسرعة متجاهلا كل قوانين السلامة، وأقواله التي لا تفارقه والتي يرددها لمن يركب معه، حينما يعاتَبُ على بطء سرعته: بأن في التأني السلامة، وفي العجلة الندامة...

توقف جرير عند بوابة المنزل، وكان حميدان وأمه بانتظاره.. أخبرهما أنه حلم بالأمس حلما عجيبا، ورأى نورة تمسك بيد طاوي، وقام فزعا، وفكر كثيرا، بأن يذهبوا إليها، فلعل لديها خبراً جديداً، وافقت عشبة وركبا سيارة جرير، وانطلقا إلى بني شامخ...

وبُعَيْدَ الغروب كانوا في حجرة نورة، والأبخرة تتصاعد، وقد غطت كل جسمها بقماش أسود، وتنادي وتولول، بكلام غير مفهوم، ثم قالت: سلموا لجرير ثلاثة ملايين ريال يوزعها للمساكين، وألا يعرف بهذا أحد،

وسأجلب طاوي في القريب العاجل، فهو محبوس عند بعض المَرَدَةْ.. ثم سكتت وبدأت ترتعش، وقالت بصوت فيه بكاء: هيا انصرفوا ...

وخرج الثلاثة وركبوا السيارة، وفي طريق العودة وجرير يحدثهما بحنان: إن الصدقة من الإيمان، وإن النجاح في الكتمان، وإنه يشعر بقرب الفرج.. وبينما عشبة صامتة، ولم تعلق بكلمة واحدة، قال حميدان: يا مطوع، ثلاثة ملايين كثير. فأجابه: ليست كثيرة على الشيخ وهي للصدقة، وقد يكون فيها الفرج.. وبعد أن تنحنح أضاف قائلا: والشيخ لديه الكثير، وكل شيء يرخص من أجله. وأمك يا حميدان، امرأة وفية وحكيمة...انتبهت عشبة وقالت: سننتظر إلى غد، ونعرف ماذا عند أمير من أخبار، ثم بعدها نعطيك النقود.. حاول جرير أن يقنعها، بأن خير البر عاجله، وأجابته: غدا سنجمع البِرَّ كله...

***

انتشر خبر عودة أمير، كانتشار النار في الهشيم، وتقاذف الناس الأمل، كما يتقاذف اللاعبون كرة القدم، والجميع بانتظار الهدف، والذي سيأتي به أمير.. لم تمنع شمس الأصيل من توافد الكبار والصغار راكبين وراجلين، من جميع المناطق إلى أطراف القبيلة، كان في مقدمتهم الحاج جلمود، والقاضي شمس الدين، وعقّال المناطق يلتفون حول حميدان، وامتلأت الساحة بالسيارات في انتظار مهيب، ولكل منهم نية وقصد، فالبعض جاء محبة ورغبة، والبعض من أجل الكنز، وآخرون فضول وحيرة...

ووقف الحسن والحسين بين الجموع الغفيرة يتأملان بصمت، وقد لبسا ثوبين أبيضين، ومعطفين أسودين، وعلى خصرهما لف كل منهما حزامه وجنبيته، ويمسكان بثوب جدهما القاضي، وكأنهما يطلبان منه الحديث، فيجلس إليهما، ويلف يديه حولهما، ويحتضنهما، ويرفعهما، فيشاهدان رؤوسا كثيرة، واقفة منتظرة، قال له الحسن: يا جد كل هؤلاء

بانتظار أبي؟ فيبتسم الجد ويقول: نعم يا ولدي.. ويعلق الحسين: كيف سيوزع أبي نقوداً لكل هؤلاء؟ ضحك الجد، وأنزلهما أرضا، وقبلهما وقال: لن يوزع أبوكما نقوداً، إنما يوزع الأمل ... فقاطعه الحسن قائلا: وكيف يوزع الأمل؟ رن تلفون القاضي، فابتسم الجد وقال: سنكمل الحديث في البيت، وأخرج تلفونه من جيبه، ورد على المتصل، فإذا به أمير يخبره بأنه وصل أطراف القبيلة، وبعد قليل يدخل حدودها...

اصطفّ الحاضرون بلا عناء، وتشكلت دائرة كبيرة، كقرص الشمس في السماء، والذي يحاول جاهدا البقاء، ليضع إكليله على لحظات اللقاء، وماهي إلا دقائق، وتظهر سيارة هايلوكس بيضاء، وتوقفت عند طرف الدائرة، وخاف سائقها، وجهز سلاحه، وتسمر مكانه، بينما نزل أمير، في ذهول كبير لهذا الاستقبال المثير، وسلم عليهم واحدا تلو آخر، وما كادت تنتهي الدائرة، إلا وقد أعلنت الشمس الرحيل، واختبأت خلف الجبال، لتترك للظل شرف اللقاء، وبعد أن سلم على الجميع، طلب منه جلمود أن يصعد على إحدى السيارات، ويخاطب الحاضرين، بما عنده من بشارات، فالجميع جاء ليسمع الخبر. صعد أمير على سقف إحدى السيارات، وعلى يمينه ويساره، الحسن والحسين، وصاح بأعلى صوته قائلا: أشكركم جميعا على هذا الاستقبال، وأما ما عندي من خبر عن الشيخ طاوي، فهو سر ولا يقال إلا لأسرته مهما كانت الأحوال...

كانت أسرة طاوي، قد اجتمعت، عند ختام، في الوادي الأعلى، تنتظر الخبر والبشارة، على أحرّ من الجمر، وأقبل أمير ومعه حميدان، وأدخله الديوان، وجاء بأمه وخالته فقط، كما طلب أمير، جلستا أمامه لا يرى منهما إلا العيون... فتوجه بسؤاله إلى حميدان وسأله: هل تتذكر امرأة أجنبية جميلة، جاء بها أبوك؟ أجاب حميدان وقد فتح فاه، وأمسك بيديه على خديه، وقال: نعم أتذكر قبل أن يختفي بأيام، ثم توجه أمير ببصره إلى ختام وسألها السؤال نفسه فأجابت: نعم أتذكر، وابتسمت

وأردفت قائلة: كانت لطيفة .توجه ثانية بالسؤال: هل تعرفون أين كتب وأوراق هذه المرأة؟ أجابا بصوت واحد: لا نعلم وكل شيء عند الشيخ.. انتفضت عشبة ورفعت كفيها تقلبهما، وقالت بصوت حاد: وهي تنظر إلى حميدان؟ ومن هي هذه الأجنبية؟ أجابها حميدان: اهدأي يا أمي: قصتها وزوجها طويلة، سأحدثك عنهما لاحقا.. وتدخل أمير قائلا: لابد أن نجد طاوي، لأن هذه الكتب والأوراق مهمة. صرخت عشبة قائلة: أنت الآن تبحث عن الكتب والأوراق، ولا تعرف عن طاوي شيئاً؟ أجابها: أنا التقيت بهذه المرأة وزوجها في ألمانيا، وأخبرتني القصة كاملة... ويقاطعه حميدان قائلاً: هل تعرف أين أبي الآن؟ فيجيبه أمير وقد شبك أصابعه: أنا لا أعرف، ولكن سنبحث عنه جميعا. وسأل عن سعيدان؟ فأجابه حميدان: إنه في سكن المرافقين.. وطلبه أمير، فجاء ووقف بين يديه وسأله عن كل ما يعرف عن المرأة الأجنبية وزوجها.. التفت سعيدان إلى حميدان، وبعد أن أخذ الإذن والأمان، أخذ يسرد القصة من بداية خطفهما إلى تسليمهما، وأنه لا يعرف شيئا عن الكتب والأوراق.. أمسك أمير بكفي حميدان وسعيدان وقال: أريدكما صباح الغد في المركز، نبحث الأمر خطوة خطوة من آخر لحظة التقيت فيها بالشيخ، حتى نصل إلى نتيجة...نهضت عشبة، وخرجت وهي تلطم خدها وتقول: يا لخيبة الانتظار! ثم التفتت إلى حميدان قائلة: خذني إلى عند المطوع...

***

وبعد ثلاثة أيام وجد أمير نفسه يحمل أقفالاً مغلقة، وخرزا مبعثرة، وخيوطا متقاطعة، ولم يجد البداية، وتباعدت النهاية... زار جبالاً كثيرة، وطاف بجميع المزارع، ومعه حميدان، وبعض المرافقين، وقف على السد، وغاص بقدميه في قاعه الرخوة، وتأمل الحشائش المتيبسة، وزار الآبار السطحية الثلاث، وتنقل بين المناطق، من بني ناجي غربا إلى بني علي شرقا، وسأل أقارب الشيخ والمقربين، ولم يجد سوى الحيرة جوابا،

والغموض نتيجة. أخبره حميدان عن زياراتهم للعرافة نورة، ورواياتها المتناقضة، وضحك أمير كثيرا، لكنه قرر زيارتها، والوقوف على معرفتها...

وفي مساء الإثنين ركب سيارته الجيب الحمراء، وانطلق إلى بني شامخ، وسأل عن بيت العرافة نورة، وما إن توقف هناك، وأراد دخول منزلها، حتى استوقفه أحد الصبية، وطلب منه الانتظار حتى يخرج من قبله، وبعد لحظات أدخله إلى غرفتها، وهي لا تعرفه ولا يعرفها، الغرفة ممتلئة بالبخور، ويكاد يخفيها عن عيون الحاضرين، ردت عليه السلام، وطلبت منه الجلوس على يمينها، وقدمت له صحنا فيه الأحجار الصغيرة، وطلبت منه إمساك واحدة منها، فأمسك الحجرة الحمراء، فسألته عن حاجته، فأخبرها أنه يريد منها أن تخبره عن حياته ومستقبله، فأخذت الحجر الحمراء من يده، ونفخت فيها، وقذفتها في حجرها، وأمسكت قلما ودفترا بجوارها، وأخذت تخط خطوطا متداخلة، وقالت: أنت تمتلك بيتين، وأرضَين، واحدة من الأراضي عليها إشكال، وإياك أن تدخل معهم في قتال، وتزوجت زوجتك الأولى وخطبت الثانية، وهي من بني ناجي أو أقرب قليلا، ولديك أموال كثيرة...

ضحك أمير وقال: أريدك أن تحددي مكان الشيخ؟ فانتبهت وكأنما لدغتها عقرب وقالت: أي شيخ؟ فأجابها: الشيخ طاوي. فسألته ومن أنت؟ فأجابها: يفترض أنك تعرفي! فتلعثمت، ولم تدر ما تجيب، ورددت بعض الأدعية، مع بعض الأسماء، ولم يستطع بعد ذلك أن يحاورها، فقال لها: خافي ربك يا امرأة، أنتِ تخدعين الناس، وتكذبين عليهم، وكل ما قلتيه عني غير صحيح ألبتة، وعَرَّفَها من هو ومن يكون. أوقفت ولولتها بعد أن خفضت صوتها، وقالت: أنا لا أجبر أحدا على تصديقي، والناس هم من يأتون إلي، وأنا مسكينة لا أقرأ ولا أكتب، وهذه هي لقمة عيشي، نظر إليها أمير وهو يغادر غرفتها وقال: لا تخدعي نفسك والناس، فالحياة قصيرة ...

36
تحت المجهر

رن تلفون حميدان، فإذا بخالته ختام، تخبره بهروب الحصان الأصفر، فأخذ معه بخيت وسعيدان، وانطلق مسرعا نحو الوادي الأعلى، وصل إليها وهي تبكي، وتروي له القصة، فقد كان الحصان كعادته أليفا ودودا، وأخرجته من الإسطبل بمساعدة أبيها، وما إن رأى البوابة مفتوحة حتى انطلق هاربا، ولاحقناه بأبصارنا، فإذا به يتوجه نحو أطراف القبيلة، باتجاه مركز الدكتور، وكانت دموعها تتقاطر، كمطر منهمر.. تحرك حميدان بالاتجاه نفسه، وتوقف عند مركز الدكتور، وإذا بالحارس وفي يده عصاه في معركة مع الحصان، وما إن توقف حميدان، حتى اقترب الحصان منه، في تودد وألفة، وحين رأى ذلك الحارس، أمسك شعره بكلتا يديه، وقال: لقد كاد الحصان يقتلني رفسا وعضاً، ولولا العصا لدخل المركز...

طلب حميدان من سعيدان أن يركب الحصان، وما إن اقترب منه، حتى كاد يعضه، فقال سعيدان: هذا حصان معتوه. فتقدم حميدان وربط رقبة الحصان بشاله، وركب على ظهره، بكل سهولة ويسر، ثم نزل وطلب من سعيدان أن يركب ثانيةً بهدوء، وما إن تقدم سعيدان حتى هم الحصان بعضّه، فحاول ثالثة فرفسه، لولا أنه هرب بسرعة.. وحين باءت المحاولات بالفشل، طلب حميدان من بخيت أن يقود السيارة خلفه، وركب الحصان، وانطلق بسرعة متوجها نحو المنزل، وما إن رأته ختام حتى تهلل وجهها، وأمسكت به، فإذا هو يتذلل بين يديها، أليفا ودودا كعادته...

وفي صباح الأربعاء، وقبل شروق الشمس كان الحصان الأصفر يصدر صهيلاً حاداً، تعرفه ختام بأنه موعد الخروج، ففتحت له الإسطبل، ليتقافز في الحوش الكبير، ويسير بجوارها، ويلتف حولها، كقط أليف، خرجت وفي حضنها فرج، والحصان يشمه وكأنه يقبله، فتحت بوابة المنزل، لتختبر الحصان، هل سيهرب أم لا، وما إن فتحت البوابة، حتى انطلق مسرعا

بالاتجاه نفسه مثل الأمس، صعدت إلى غرفتها، واتصلت بحميدان، فأجابها بصوت يملأه النوم، وطلب منها أن تخبر مهياب، فأيقظت أباها، وأخبرته الخبر، وأن يخبر مهياب أن يبحث عن الحصان الأصفر، وأن يتحرك بداية باتجاه المركز...

وصل مهياب إلى المركز ووجد الحارس والحصان في معركة شديدة، فالحصان يحاول الدخول، ويرفس الباب بأقدامه، والحارس يغلق الباب، ويضربه بالعصا. أقبل مهياب، وأمسك بالحصان، وربطه بلجام أحضره معه، وحاول ركوبه، إلا أنه يسقطه أرضا، في كل مرة.. أخذ باللجام، وقاده سيرا على الأقدام، نحو البيت، وما إن وصلا منتصف الطريق، وفي غفلة من مهياب، شد الحصان اللجام، وسحبه من يد مهياب، وفر هاربا نحو المركز، وما إن رآه الحارس قادما، حتى أغلق الباب، واستمر الحصان في رفسه وصهيله، إلى أن أقبل مهياب، وجره ثانية نحو المنزل ...

***

أقبل الدكتور أمير، وما إن همّ بدخول المركز، حتى استوقفه الحارس، وأخبره عن الحصان الأصفر، وأن صبره كاد ينفد، فقد جاءه ثلاث مرات، ويحاول الدخول بالقوة، وطلب منه أن يخبر حميدان بربط هذا الحصان، وإلا فسيقتله دفاعا عن نفسه، وأراه آثار عضة في يده، ورفسة في فخذه، وقبل أن ينهي كلامه.. أقبل الحصان الأصفر، وصهيله يملأ المكان، وأغلق الحارس الباب سريعا، وأمير يشاهد المشهد من خلال فتحات صغيرة في الباب، واستمرّ الحصان في رفس الباب بقوة، حتى أقبل حميدان بالسيارة، فهدأ الحصان، وأخذه بلجامه، وخرج الحارس والدكتور وانزويا بعيدا، بينما الحصان يحاول الاقتراب إلا أن الدكتور طلب من حميدان إبعاده، وأخبره بأنه ربما يكون مريضاً، ركب حميدان على الحصان، وتحرك به نحو المنزل، إلا أنه يرفض، ويتجه نحو بوابة المركز، حاول مرارا ولم يفلح، فنزل من على ظهره، وأخذ يجره، لكنه يرفض ويقاوم بشدة، ولاحظ الحارس أنه لا يرفس حميدان، ولا يظهر أي عدوانية، كما كان يفعلها معه، أخرج بخيت

حبلا من السيارة، وربط رقبة الحصان، والطرف الآخر بالسيارة، فاستسلم بعدها الحصان، وأخذ يسير بطريقة طبيعية.

والتفت الحارس إلى الدكتور، وأخبره أنه محتار من تعامل الحصان بهدوء واطمئنان مع حميدان، وبعدوانية وجنون مع الآخرين...صعد الدكتور إلى مختبرات الأبحاث في الطابق الثاني، ووضع صندوقا صغيرا أحضره معه، بداخله أرنب رمادي اللون، وأخذ يتأمل بعينيه الأرنب، وتفكيره مع الحصان، وعضّ شفته السفلى ندما، وقال: لو أني أخذت منه عينة من الدم، وخزعة من النسيج للأبحاث، ومقارنة النتائج، بتحاليل أنسجة الأحصنة السابقة، اشتعلت الفكرة أكثر، وحدّث نفسه: لمَ لا أذهب الآن والحصان في مرحلة الهيجان، ثم آخذ منه عينة أخرى في مرحلة الهدوء...

نضجت الفكرة، وعقد العزم، وأخذ ثلاث إبر، ومشرطاً صغيراً، وثلاثة أنابيب صغيرة، وعلبة صغيرة، وأغلق باب الطابق الثاني، ونزل سريعا، وحرك سيارته نحو منزل الشيخ في الوادي الأعلى، استقبله حميدان، وما إن تجاوزا البوابة، فإذا بالحصان يجلس بجوار ختام، وهي تقرب طفلها فرج، يعبث بأذني الحصان. لم يصدق أمير ما يراه، أمسك رأسه بكلتا يديه، فعلق حميدان قائلا: ألم أقل لك بأنه حصان ذكي... أغلق حميدان البوابة، وأخذ بيد الدكتور، واقتربا من الحصان، فنهض وأقبل نحو الدكتور، وقد خفض رأسه، وأخذ يتمسح فيه، وكأنه يداعبه بألفة وودّ.. وأضافت ختام قائلة: هذا الحصان يا دكتور، أليف مع البعض، وشرس مع الآخرين.. أخذ الدكتور يمسح بيده على ظهر الحصان، ورقبته، ويمسك رأسه، أخذ بلجامه وخطا به خطوات، والحصان يسير خلفه بهدوء، بينما ختام وحميدان يخبرانه بقصة الحصان، وتفاصيل حياته، منذ مجيئه إلى اليوم...

رفضت ختام، أخذ خزعة أو دم من الحصان، لأن ذلك مؤلم، وأخذ الدكتور يشرح لها فوائد ذلك وأهميته، فاقتنعت على مضض، وأخذت وليدها فرج ودخلت المنزل وهي تبكي، وتراقب من نافذتها المطلة. جاء

حميـدان بالحبـال، ونادى بخيـت وسـعيدان، وبعـد شـدّ اللجـام، وربـط الحبـال، في اليـدين والقدمين، وتمديـد الحصان على الأرض، ولم يقـاوم برفسـة واحـدة، وبعـد وضـع السـائل المطهـر، أخـذ الدكتـور إبرة، وغرزهـا في رقبـة الحصـان، وسحـب بعـض الـدم، وأفرغـه في ثلاثـة أنابيـب صغـيرة، ثم دهـن ورك الحصـان بمـادة مخـدرة، وأخـذ المـشرط وأحـدث فتحـة صغـيرة جـداً، وقطـع بعـض النسـيج، ووضعـه في علبـة محكمـة الإغـلاق، ووضـع عـلى الجـرح لاصقـاً قـوياً، ثم فكـت الحبـال، ونهـض الحصـان...

جَمعَ الدكتـور عدتـه في صنـدوق صغـير، وودعهـم ومـا إن اتجـه صـوب البوابـة، حتى لحقـه الحصان بصهيـل فيـه استرحام، ورأسـه منخفض، وكأنـه يريـد اللحـاق بـه، أمسـك حميـدان باللجـام، وأغلـق البوابـة... وخرجـت ختـام، ولم يتوقـف بكاؤهـا إلا حـين رأت بأم عينهـا أن الـدم متوقـف، وأن الحصـان عـلى مـا يرام...

دخـل الدكتـور مختبره، ووضـع الشرائـح تحـت المجهـر، وشـاهد الخلايا، وتأمل كـرات الـدم الحمـراء والبيضـاء، فـإذا بهـا مختلفـة، وتشـبه كثـيرا خـلايا البشر، صنـع شرائـح كثيرة، وكلهـا تشـير إلى النتيجـة نفسـها، ذهـب إلى غرفـة الأنسـجة، ليأخـذ عينـة مـن نسـيج حصـان سابق، ويقـارن تلـك الخلايا بهـذه الخلايا، دخـل الغرفـة، وفتـح القفـص الزجـاجي، وأخـذ العلبـة الخضراء، وتأمـل غطـاا، وقـد اعـوجّ، وتظهـر عليـه آثار أنيـاب وأسـنان، قلـب العلبـة بـين يديـه، وتسـاءل عـن الفاعـل، ومـن يسـتطع دخـول المختـبر في غيابـه، وقـد أغلقـه بنفسـه، ذهـب إلى الحـارس وسـأله، وكان جوابـه بأن الطابـق الثـاني لا يدخلـه أحـد...

اتصـل بزوجتـه سهـام وسـألها إن كانـت سـلمت المفاتيـح لأحـد، وكان جوابهـا بأنـه لم يـترك المفاتيـح، بـل أخذهـا معـه في سـفره. عـاد إلى العلبـة الخضراء، وأخـذ منهـا قطعـة صغـيرة كـرأس دبـوس، ووضعهـا عـلى شريحـة، ووضعهـا تحـت المجهـر، ووجـد فرقـا كبـيرا بـين خـلايا الحصـان الأصفـر، وخـلايا الحصـان المحفوظـة..عـاد أمـير إلى غرفـة الأنسـجة، يتفقـد القفـص جيـدا، فـإذا بـه يجد قطعـة صغـيرة مـن الذهـب، أخذهـا مع العلبـة الخضراء،

وجلس على مكتبه، وأخذ يفكر، من هو الفاعل؟ وما مصلحته؟ ومن أين أتت هذه القطعة الذهبية؟ وتذكر أن الرجل الوحيد الذي دخل تلك الغرفة، هو الشيخ طاوي عندما جاء يودعه، لكن ماهي مصلحته، ولِمَ يفتحها بأسنانه، وأخذت الفكرة تأتي وتهرب، وتقبل وتدبر. هل يكون الشيخ طاوي هو الفاعل، وهل أكل من هذه العلبة...

اشتعلت الأفكار، وتشعبت الاحتمالات، واضطرب أمير، وازداد قلقه، فهل يخبر أحدا بأمر العلبة الخضراء، أم يترك سرها حبيس جوفه، بدأ الغليان يسري في عروقه، والرجفة تتحكم في يديه، فأعاد العلبة إلى قفصها، وأغلق الطابق الثاني، وتدحرج في الدرج، وركب سيارته، وانطلق إلى بيت طاوي، واستقبله مهياب، فطلب منه رؤية الحصان الأصفر، ففتح له الإسطبل من الباب الخارجي، واقترب من الحصان، ومهياب يحذره، أمسك برقبته، ومسح على ظهره، وهو هادئ، وأذناه إلى الأمام، ويصهل بصوت خفيف، وطلب اللجام، وجاء به مهياب، وألبسه وهو هادئ، كانت رائحة الإسطبل كريهة، وفضَّلَ إخراجه من الإسطبل، فطلب مهياب مهلة، حتى يأخذ الإذن من ختام، وعاد مهياب وفتح الباب، وزمام الحصان بيده، لكن الدكتور أخذ الزمام، وحين اطمأن للحصان وهدوئه ترك الزمام، وأخذ يتأمله، وفجأة هرب الحصان...

وضع مهياب يديه خلف رقبته، وقال: لن يتوقف إلا عند مركزك يا دكتور. فأجابه قائلا: لا تلحق به وأنا سأتولى الأمر، وسأتصل بحميدان. توقف الحصان على بعد حوالي نصف كيلومتر، وكأنه ينتظر..ركب أمير سيارته وقبيل أن يصل إليه تحرك بجانب السيارة.. يسرع حين تسرع، ويبطئ سرعته حين تبطئ وما إن اقترب من المركز، حتى أسرع في الجري.. وصل الحصان إلى جوار المركز.. قبل وصول السيارة.. لكنه لم يذهب إلى البوابة.. بينما كان الحارس يقفل باب المركز.. لانتهاء دوام الفترة الصباحية... وصل أمير وطلب منه الذهاب، فركب الحارس دراجته وذهب...

***

وأمسك أمير بزمام الحصان، فإذا به يتحرك إلى البوابة. اقتربا منها.. وفتح أمير الباب، ودخلا حوش المركز، فإذا به يتمسح برأسه في كتف أمير، ويدفعه لدخول المبنى، ويصدر صوتا يشبه النحيب، تأمل أمير عيني الحصان، وفيهما دمعتان على وشك السقوط، ربط طرف خيط اللجام في شبك حديدي، لإحدى النوافذ، وصعد إلى الطابق الثاني، وأخذ يراقبه في صمت، والحصان ينظر إليه، ويصهل بصوت حاد، ولم يبعد عنه عينيه، خاطبه أمير بسخرية وقال: هل تريد الدخول؟ فهز رأسه للأعلى والأسفل. فتح أمير عينيه وأمسك رأسه، وسأله ثانية: هل تريد أخذك للمنزل؟ فحرك رأسه يمنة ويسرة. وأخذ يكرر السؤالين فإذا به يجيب الإجابة السابقة نفسها، نزل أمير من الدرج، ووقف بجانبه وسأله قائلا: هل تحبني فهز رأسه بالموافقة. وسأله ثانية: هل تحب مياب؟ فهز رأسه بالنفي. وسأله عن كثير... فأجاب بالإيجاب عن حميدان وبخيت، وأجاب بالنفي عن سعيدان ومريس. أمسك أمير برأسه، وأخذ يتأمل عينيه وأذنيه، وفك خيط لجامه، فإذا به يحاول الدخول بهدوء، ويدفع أمير برفق، كي يدخل قبله، تقدم أمير فدخل وراءه، فإذا به يدفعه إلى الدرج، فقال أمير: هل تريد الصعود فهز رأسه بالإيجاب. صعد أمير فإذا بالحصان يصعد وراءه درجة درجة، بصعوبة بالغة، وما أن وصل الطابق الثاني. سأله أمير أين تريد الآن.. فأشار برأسه إلى غرفة الأنسجة..أمسك أمير رأسه بكلتا يديه، وقال للحصان : تقدم أنت وسأمشي خلفك، تقدم الحصان، بخطوات هادئة، وحوافره تصدر صوت له صدى، حتى وقف عند الغرفة الأخيرة، وفتحها أمير، وتقدم الحصان ومط شفتيه إلى الصندوق الزجاجي، أمسك أمير العلبة الخضراء، بيده اليمنى، قلبها في يده، وسأله: هل أكلت من هذه؟ فهز الحصان رأسه بالإيجاب، وسأله: إذا أنت طاوي؟ فهز الحصان رأسه بالإيجاب، أمسك أمير رأس الحصان وأخذ يتأمله، فإذا به يلاحظ حفرة سوداء صغيرة، في الخد الأيسر للحصان. وأخذ يسأله أسئلة كثيرة، فيجيبه بالإيجاب والنفي بشكل صحيح. كان الشك يعصف بأمير، فتذكر قطعة الذهب الصغيرة، وكانت بجوار تلفونه، وأحضرها من

مكتبـه، ووضعهـا عـلى راحـة كفـه اليسرى، وسـأله لمـن هـذه؟ فـإذا بـه يرفـع شـفته العليـا، ويـدلي السـفلى، حينهـا تأكـد أمـير بـأن الحصـان هـو طـاوي، وأنـه قـد أكل مـن تلـك العلبـة، التـي كانـت معـدة للأبحـاث في مجـال الاستنسـاخ...

فكـر أمـير مـاذا يفعـل، وكيـف يخـبر أسرة طـاوي بهـذا الخـبر، وهـل سـيصدقونه أم لا؟ أخـذ يـدور في الطابـق الثـاني، ويتأمـل الحصـان، ويصيـح: يـا لهـا مـن ورطـة! ثـم ربـت عـلى ظهـر الحصـان، وقـال: كيـف أخـبر أهلـك الآن، وأنـت تعـرف ولـدك حميـدان أنـه نصـف مجنـون، وقـد يحملنـي المسـؤولية أو يقتلنـي، تحـرك الحصـان بضـع خطـوات، حـتى وقـف عنـد مكتـب الدكتـور، ووضـع فمـه فـوق الهاتـف النقـال، وأمـير ينظـر إليـه وقـال: تريـد أن تتصـل؟ فهـز الحصـان بالنـفي، فسـأله ثانيـة: تريـدني أن أتصـل؟ فهـز رأسـه بالإيجـاب. وتسـاءل: بمـن أتصـل؟ بحميـدان! هـز الحصـان رأسـه بالنـفي، فقـال أمـير: بمهيـاب؟ فهـز بالنـفي، فقـال: بزوجتـك عشـبة! فهـز بالنـفي، فقـال: بزوجتـك ختـام! فهـز بالنـفي، فقـال: للمرافقـين؟ فهـز بالنـفي، صـاح أمـير غاضبـاً: إذا أتصـل بالجـنّ؟ فهـز رأسـه بالنـفي أيضـا...

أدار أمـير ظهـره، ووضـع رأسـه عـلى جـدار الممـر، ويـداه ممسـكتان برقبتـه، وقـال: يـا رب اهـدني! هـل أخـبر عمـي القـاضي أن يسـاعدني في هـذه الورطـة، فـإذا بالحصـان يصهـل بصـوت حـاد، التفـت أمـير إليـه، فوجـده يهـز رأسـه بالإيجـاب. فقـال: أتريـدني أن أتصـل بعـمي؟ فهـز رأسـه بالإيجاب...أمسـك أمـير بهاتفـه، واتصـل بعمـه القـاضي، بينـما تدحـرج الحصـان في الـدرج، إلى الـدور الأول، ولحـق بـه أمـير، وأخـذه إلى الحـوش متبعـاً إشـاراته...

وأقبـل القـاضي مسرعـاً لا يـدري مـا الخـبر، وسـأل أمـير: مـاهي الورطـة؟ ومـاذا يفعـل الحصـان عنـده؟ فضحـك أمـير، وأشـار إلى الحصـان وقـال: هـذا هـو الورطـة! وأخـبره بالقصـة كاملـة، وأخـذ القـاضي يختـبر الحصـان بأسـئلة النـفي والإيجـاب، والخطـأ والصـواب... وأشـار إلى أمـير بـأن الأمـر خطـير، وله عواقـب ومحـاذير، ولابـد مـن الاسـتعانة بجلمـود، واتصـل بـه القـاضي وجـاء سريعـا يسـأل عـن الورطـة، وبعـد الـشرح والامتحـان... التفـت جلمـود

إلى الحصان وسأله: هل تعرف الطريق إلى بيتك الثاني؟ فهز الحصان رأسه بالإيجاب. ثم خاطبه قائلاً: ترجع البيت مكانك، حتى تتشاور في أمرك، ونخرج بحل لمشكلتك. فهز الحصان رأسه بالموافقة، وفتح أمير باب المركز، وانطلق الحصان باتجاه المنزل...

وتم التنسيق لاجتماع في عصر ذلك اليوم في الوادي الأعلى، في المنزل الثاني لطاوي... حضر حميدان وأمه عشبة، وختام وأبيها، لا يدرون عن الأمر شيئاً، وحضر أمير والقاضي وجلمود...

اجتمع السبعة في الديوان، وكان الجميع على أحرّ من الجمر لمعرفة الأمر، ولماذا اقتصر الاجتماع عليهم دون غيرهم... وتحدث الحاج جلمود، أنه سمع عن الحصان الأصفر وذكائه، وأنه يرغب برؤيته، بل ويرغب بحضوره الاجتماع. ضحك حميدان وقال ساخراً: كيف ندخل الحصان الديوان؟ وأجابه جلمود: إذاً نسأل الحصان إن كان يرغب بالاجتماع معنا أم لا؟ ضحك حميدان وقال: يا عم جلمود، ما هذا الكلام؟ بالتأكيد، أنت تمزح...

قاطعته ختام قائلة: حتى لو العم جلمود يمزح، لكن الحصان فعلاً ذكي، وأليف وودود... وأجابها حميدان: لكنه شرس مع الغرباء، وقد أعذر من أنذر... ضحك جلمود وقال: نخرج إلى الحصان ونرى. فقالت ختام: يمكننا إخراج الحصان إلى الحوش...

***

تحلَّق الجميع حول الحصان، أخذ جلمود يسأل الحصان ويقول: هل تريد الاجتماع معنا: فيهز رأسه بالإيجاب للأعلى، ثم يسأله : هل تريد الإسطبل؟ فيهز رأسه بالنفي يمينا ويسارا، ويسأله : هل لونك أبيض؟ فيهز رأسه بالنفي؟ ويسأله : هل لونك أصفر؟ فيهز بالإيجاب؟ كانت عشبة وختام في ذهول تام! علّق أمير بالقول: ويمكننا توجيه أوامر للحصان، وينفذها.. وسألت عشبة قائلة: كيف ذلك؟ اقترب أمير من الحصان، وقال له: ارفع رأسك. فإذا بالحصان يرفعه. وقال له: اخفض رأسك

فيخفضه، وقال له: اجلس على الأرض فيجلس، ويأمره أن يقوم فيقوم.. اقترب حميدان، وقال: دعني أجرب، وأخذ يأمر الحصان وهو ينفذ، وهنا قال القاضي: وأنا أريد أن أختبر ذكا، وطلب من الجميع أن يتركوا مسافة بينهم. ثم قال للحصان: اذهب إلى حميدان. فتحرك الحصان حتى وضع رأسه على كتف حميدان، ثم قال له: اذهب إلى ختام، فتحرك إلى ختام. فأمره بالتحرك إلى الحاج جلمود فتحرك إليه. كانت عشبة مندهشة أشد الاندهاش، وقالت: كيف عرف الجميع؟ بأسمائهم؟ إن هذا لأمر محير! وهنا قال جلمود: لو جئتم بأي شخص من القبيلة، سيعرفه بكل سهولة، بل ويعرف الأماكن.. واليوم جمعناكم لأمر خطير ومفاجأة كبيرة، وسأترك الكلام للدكتور أمير...

حدثهم أمير بما حدث، وكيف أكل طاوي من علبة مخصصة للأبحاث فتحول إلى حصان، وبقيت منه هذه العلامة، وأشار إلى الحفرة السوداء على وجه الحصان... وما إن أكمل أمير حديثه، حتى انتفض حميدان، واقترب من الحصان، وقال: أيعقل أن هذا أبي! أبي يصبح حماراً! هذا لا يعقل! كيف أحدّث القبيلة عن هذا! اقترب منه القاضي واحتضنه، وقال: يا ولدي ليس حماراً بل حصاناً، والأمر سيبقى سرا، ولن نخبر أحدا، والدكتور سيتولى علاجه، حتى يعود إلى طبيعته...

37

الدواء

وبعد ثلاثة أيام وعند الساعة العاشرة صباحا أقبل الدكتور أمير ليطمئن على الحصان، والذي وُضِعَ في غرفة مستقلة مفروشة بموكيت أزرق، وبجوارها غرفة صغيرة، خصصت لقضاء الحاجة وسأل عن طعامه، والذي يجب أن يكون خبزاً وحليباً وتمراً وشعيراً، وكانت عشبة وختام تجيبان: بأن كل شيء يسير حسب توجيهه... أخرج أمير علبة من حقيبته، وألقم الحصان منها ملعقة، وسأله: هل تشعر بتغير؟ فهز الحصان رأسه بالنفي! فأخبره أمير أن النتائج ستظهر خلال أسبوع، وأنه في تواصل مستمر، مع مستشارين في برلين. هز الحصان رأسه، وقربه إلى بين يدي الدكتور، فمسح على خدوده وعينيه، وخرج أمير ترافقه دعوات عشبة وختام. وقبل أن يصعد سيارته الجيب الحمراء، أقبل حميدان بسيارة أبيه الكروزر الحمراء، وبجواره المطوع جرير، توقف بجواره، وسأله: كيف أبي الآن يا دكتور؟ ففتح أمير عينيه بقوة، ورفع حاجبيه، وقال له: انزل من السيارة أخبرك، ونزل حميدان، وأخذه أمير خلف سيارته وقال له: لماذا تتحدث أمام المطوع، ألم نتفق على أن الأمر سر. وأجابه حميدان: الأمر سر، لكن المطوع يجب إخباره، فهو صديق أبي. ورد عليه أمير: هذا محتال. وأجاب حميدان: لا يا دكتور، لا تغلط على المطوع، أنت تعالج وهو يعالج، كلكم متساوون... ضحك أمير وقد أعيته الحيلة في إقناع حميدان، وقال: إذاً أخبره بأن يبقى الأمر سراً. هز حميدان رأسه موافقاً، وودعهما أمير ومضى.

دخل حميدان، ويده اليمنى تمسك يد المطوع جرير، وما إن رآهما الحصان، حتى أقبل نحو جرير، يرفسه ويعضه، وجرير يضربه بالعصا، ويصيح بأعلى صوته... حاول حميدان منعه، ولم يتوقف حتى أقبلت ختام وعشبة، وشكلتا جدارا أمام جرير، وساعدتاه بالنهوض، وأدخلتاه

المنزل، بينما مهياب وخلفه سعيدان، يطرقان البوابة، حين سمعا الصراخ.. لكن حميدان نهرهما، وأمرهما بالعودة إلى سكن الحراس...

عضتان نالهما جرير، واحدة في ذراعه الأيمن، وأخرى في فخذه الأيسر، وثلاث رفسات في بطنه وظهره.. أدخل حميدان الحصان إلى غرفته، وأغلق بابها، وتوجه إلى المنزل، ووجد جرير ممددا، يتحسس ذراعه، وبطنه، ووجد العضات والرفسات خفيفة، ولم تخرج قطرة دم واحدة، بينما كانت قطرتان من الدمع تحاولان الهبوط من عيني جرير إلا أنه يجرهما للعودة بتحريك أجفانه. وعشبة وختام تقفان في حيرة وتعجب.. أمسك حميدان يده وقال: حاول النهوض؟ فنهض جرير، وهو يشتكي الألم، في ذراعه الأيمن، أخذ عصاه، وتوكأ عليها بينما حميدان يمسك يده اليسرى.. وسأل حميدان: هل ربطت الحصان؟ فأجابه: بأنه أدخله غرفته، وقد أغلق عليه الباب. فخرجا من المنزل، وحميدان يجره إلى غرفة الحصان، ليراه من النافذة، وما إن اقترب جرير، حتى أخرج الحصان رأسه، ويصهل بصوت قوي، وكأنه يريد الخروج، أمسك حميدان برأسه، يمسحه ويطلب منه الهدوء، وقال له: هل تعرف هذا؟ فهز الحصان رأسه للأعلى. ثم سأله: هل هو جرير: فهز رأسه للأعلى. التفت حميدان إلى جرير وقال له: ألا ترى أنه يفهم؟ فهل هو فعلاً أبي؟ ضحك جرير وأمسك بذراعه الأيمن، وقال: يا ولدي هذا حصان، حيوان، لا يعقِل ولا يفهم، هيا بنا إلى العرافة نورة، كما اتفقنا، أخبر أمك أن تأتي. وما إن سمع الحصان قوله، حتى ازداد صهيله، وأدخل رأسه من النافذة، وقام برفس الباب بقوة. خرجت ختام، تحدثه من النافذة، وتطلب منه الهدوء، بينما انسحبت عشبة، لتلحق بجرير وحميدان، ركبت في المقعد الأوسط، وانطلق حميدان، وقبيل الظهر وصلوا منزل العرافة نورة، نزل جرير من السيارة، وطلب من حميدان أن يحركها قليلا، تحت شجرة السدر، كي تستظل من الشمس...

ودخل قبلهما منزل نورة ودلف إلى غرفتها، وأخرج ربطتين من النقود، وناولها وقال: قولي لهما هو حصان وليس آدمياً، وبعد لحظات

دخلت عشبة وحميدان، ونورة تهذي بكلام غير مفهوم، وقد وضعت غطاء يغطي كل جسمها، ولا يسمع إلا صوتها، وجرير يضع كفيه على وجهه ويقول: متى تتوقف حتى نخبرها.. وبعد لحظات ارتعشت رعشة قوية، ثم هدأت وقالت: ماذا تريدون؟ فأجابتها عشبة قائلة: يا نورة عندنا حصان أصفر، وقالوا أنه الشيخ طاوي، فما رأيك؟...

فولولت، ورددت بعض الأدعية والأسماء، ورمت ببعض البخور، في موقد مليء بالجمر.. ثم قالت: هو حصان وليس آدمياً وكررتها ثلاثاً، وحاولت عشبة أن تقنعها: بأنه يفهم كل شيء، فترد عليها: هو حصان وليس آدمياً، وحاول حميدان أن يشرح لها، لكنها صاحت: قلت لكم هو حصان، حيوان، فكيف يكون آدمياً، لا تصدقوا الكذابين.. ثم قالت: هيا اخرجوا من عندي.. أخرجت لها عشبة ربطة صغيرة، ودستها في يدها، وخرجت وتبعها حميدان ثم جرير...

كان جرير يريد التخلص من الحصان، بسبب رفساته وعضاته، مع أنه لم يكن متأكدا من حقيقته، ولم يكن مؤمناً بأنه طاوي، لكن حديث حميدان وأمه عشبة، وتأكيداتهما بأن الحصان مختلف جدا عن الحصانين الآخرين في فهمه واستجابته أدخل الشك في قلبه...

***

وبعد أيام من المشاورات والاستشارات بين جرير وحميدان، وقبل شروق شمس الجمعة قرر جرير أن يتخلص من الحصان، فتحرك إلى منزل حميدان، وأخذه على انفراد، وقال له: بأن أباك اختفى، وربما دعوة جدك أصابت أباك، كما أصابت عمك زوكان من قبل، ومكان أبيك الآن شاغر، ولابد أن تغتنم الفرصة قبل أن يفكر فيها جلمود... تهلل وجه حميدان، ونظر إلى عيني جرير، وقال: أخبرني ماذا أعمل؟ أمسك جرير بكتفه وقال: أنت الآن رجل وأنا صديق أبيك.. فقاطعه حميدان وقد أمسك بكف جرير قائلا: نعم أعرف ذلك، لكن ماهي الطريقة؟ طلب منه جرير أن ينفذ كل ما يقوله له بالحرف الواحد حتى يتحقق المراد، ويصبح

شيخا للقبيلة، والبداية تبدأ بقتل الحصان الأصفر، والتخلص منه.. تلقى حميدان التوجيه بعيون خائفة، وفكرٍ مضطرب.. لكن جرير لم يترك له فرصة، وقال: الآن تتحرك، وتذهب إلى البيت الثاني، وتقتل الحصان، ولا تلتفت لأحد، ومن سألك لماذا فعلت هذا؟ فقل: لأنه حصان شرس، وقد رفس المطوع جرير وعضه.. حك حميدان رأسه، وقال: كلامك صحيح، هل يعقل أن أبي حمار! سأقتله يا مطوع...

أخذ حميدان رشاشه ومسدسه، وركب السيارة الشاص، والتحق به بخيت وانطلق بها نحو الوادي الأعلى، وترك السيارة خارج المنزل، ودخل بمفرده متوجها نحو الغرفة المخصصة للحصان، وبينما كان يجهز الرشاش، كانت ختام في نافذة غرفتها تسأله عن سبب مجيئه في هذا الصباح الباكر على غير عادته؟ فقال لها: جئت أقتل الحصان، فصاحت من النافذة بأعلى صوتها: لا يا حميدان...

وتدحرجت في الدرج بسرعة كبيرة، وهي تصيح لأبيها أن يلحق بها بينما كان حميدان يصوب رشاشه نحو نافذة غرفة الحصان، وخرجت ختام خلفه تصيح وتبكي وخلفها أبوها، وصل حميدان إلى النافذة، ووضع فوهة الرشاش على حافتها، وكان الحصان نائما وممددا، لكنه مغطى، وحميدان يريد أن يصوبه في الرأس، ووصلت ختام، وأمسكت فوهة الرشاش، ووضعتها على بطنها.. وتقول لحميدان: اقتلني ولا تقتل الحصان، إنه أبوك... وحين سمع الحصان، صراخ ختام أخرج رأسه من تحت البطانية، والتي غطته بها ختام، فإذا برأسه قد تحوّل، وهز رأسه وحركه يمينا ويسارا، وقال: ما بك يا حميدان؟ التفت حميدان إلى الصوت، فإذا به صوت أبيه، وتأمل الرأس فإذا هو رأس أبيه، اقتربت ختام من النافذة، وما إن رأته حتى أغمي عليها، أمسك بها أبوها، وأخذ يرشها بالماء، بينما حميدان يقف كأنما تصلبت قدماه، وقف الحصان برأس إنسان، يحدث حميدان قائلا: لا تخف يا ولدي، أنا أبوك، وقد عاد رأسي، ومع استمرار الدواء، سأعود كما كنت...

أفاقت ختام، وأسرعت لفتح باب الغرفة، وقفزت نحو الحصان، وأمسكت برقبته الطويلة، وهي تبكي وتصيح، بالحمد والشكر، وتقول: قلبي يخبرني كل يوم، أنك ستعود.. أخذت تقبل خديه، وتتلمس أنفه، وجبهته وحواجبه، وجميعها عادت كما كانت، خرجت أم ختام وفي حضنها فرج، وما إن رأت الحصان بوجه طاوي، حتى هربت تستعيذ وتستغفر، لحقت بها ختام، وأخذت منها فرج، وأمسكت بيدها وهي تقول: الحمد لله العلاج نجح، والتمّ الأربعة حوله، يحكي لهم عن تلك الليلة، والتي أكل فيها من العلبة الخضراء، وبينما هم حوله، إذ أقبل الدكتور كعادته، وفتح له حميدان وهو يقول: مفاجأة يا دكتور مفاجأة.. أخذ حقيبته، وأمسك يده، وتقدم به نحو الغرفة، فإذا بصوت طاوي يرحب به.. احتضنه أمير، وهو يحمد الله ويشكره، ويضحك ويقول: لماذا أكلت من علبة الاستنساخ يا شيخ؟ فيجيبه قائلا: الطمع مُردٍ.. ويضحك ويقول: لا تقل لي شيخ، ما زلت نصف حصان! امتلأت الغرفة بفرح عارم، وألقمه أمير ملعقة صغيرة، وحقنه بثلاث إبر، وقبل أن يغادر سأل طاوي عن كتب وأوراق الألمانية وزوجها؟ فضحك طاوي وقال: وما أدراك بقصتهم؟ ابتسم أمير وقال: سيخبرك حميدان.. التفت طاوي إلى زوجته ختام وأخبرها أن تحضر الكرتونة الصغيرة، في المخزن المخصص للسلاح، فذهبت وأقبلت بها، وأخذ أمير يقلب ما فيها، ووجد رواية جوليا، ومذكراتها. فأخذها وطلب منهم أن يظل الأمر سرا حتى ينجح العلاج بشكل كامل.. وشكره طاوي على اهتمامه، وودعهم وخرج. بينما حميدان لا يزال صامتا، كانت ختام ترفع فرج وطاوي يقبله، ويقول: أنه يشبه أباه، وسيبقى اسمه فرج...

كانت ختام تتراقص من الفرحة، وقالت لطاوي: ماذا تريد؟ حرك رأسه طاوي، وقال: أريد تلفزيون الديوان تضعوه هنا، وتوصلوا «لمبة» للغرفة، وحميدان يهز رأسه بالموافقة، وأضاف طاوي: اشتقت لرؤية حمامة ورمانة، ولماذا لم تأتوا بهما؟ فأجابت ختام: أردنا ألا تخافا.. فطلب طاوي قطعة كبيرة من القماش السميك ليغطي بها بقية جسمه، حين

يأتي الآخرون.. ثم التفت إلى حميدان، وقد اتسعت حدقتا عينيه وقال: قبل أن تأتي بأمك وأخواتك، أحضر لي المطوع جرير.. تلعثم حميدان وهز رأسه وقال: حاضر. فكرر طاوي وقال: الآن...

وبعد حوالي الساعة أقبل حميدان وبجانبه جرير، ينتفض خوفا، وتثاقل خطاه، فلم يصدق ما قاله حميدان، ويخاف أن يهجم عليه الحصان، ولولا أنه لابد من الحضور، لما تقدم خطوة واحدة، اقتربا من الغرفة، فإذا بطاوي يناديه: اقترب يا مطوع...

توقف جرير، والتفت نحو الباب، يريد الهرب، لكن حميدان أمسكه بيده، وقال: أين تذهب؟ لا تخف.. وأخذ يجره.. وقفا أمام باب الغرفة، فدفع حميدان الباب، وطاوي جالس لا يظهر منه سوى رأسه، بينما باقي الجسد مغطى بقطعة قماش زرقاء، طلب من حميدان الذهاب، وإغلاق الباب، إلا أن جرير صاح بأعلى صوته قائلا: لا تتركني يا حميدان؟ وأمسك به بقوة.. سأله طاوي عن الملابس والسلاح التي تركها حول البركة، فتلعثم جرير، ولم يدر بما يجيب، وقلب كفيه وقال: لا أدري عما تتحدث، ورد عليه طاوي بأن يحضرها كاملة غير منقوصة، والنقود التي كانت فيها، تلعثم جرير ثانية وقال: تقوم أنت بالسلامة، وسنفديك بأرواحنا.. وأظهر ابتسامة خفيفة وقال: أهم شيء سلامتك وعافيتك يا شيخ.. واستأذن بالرحيل مستندا على حميدان، وفي طريق عودتهما، أخبرَ حميدان: بأن الخطة ملغية.. وضحك حميدان وقال: بالتأكيد يا مطوع، فكيف أقتل أبي.. فيعلق جرير قائلا: لكنه في مرحلة التشافي وهو الآن يهذي بقصص وحكايات، لا بد أن تسايروه! فهز حميدان رأسه وقال: نعم سنسايره حتى يتعافى تماماً...

38
إختفاء

وما إن وصل جرير منزله حتى أعلن الطوارئ، وطلب من منير جمع الأشياء الخفيفة من الدكان، في كراتين وربطها وحزمها، وجمع كل أدوات المنزل، وحملها فوق سيارته الهايلوكس الصفراء، وأخذ زوجتيه وابنه شادي وبناته، وودع منير، وطلب منه الاهتمام بالبيت والدكان، ورحل جرير، واختفى عن القبيلة فجأة، كما حضر إليها فجأة، ولم يكن خبر اختفائه محزنا لأحد...

وبعد ثلاثة أسابيع من اختفاء جرير كان طاوي قد استعاد كل جسده، ولم يتبقَ سوى الذيل، وحين يلبس ثوبا فضفاضا، لا يلاحظ ذيله أحد، وكان الدكتور أمير، قد اتفق مع عمه القاضي، بالضغط على طاوي أن يتنازل عن المشيخة، ويعيدها إلى أهلها بيت زيرم، حتى يتم استكمال العلاج.

وفي صباح الأربعاء أقبل الدكتور، واستقبله طاوي والفرحة تملأ وجهه، فأخبره أمير أن شفاءه معجزة، وأنه لابد أن يقابل هذه النعمة بشيء كبير، ابتسم طاوي وقال: اطلب ملايين يا دكتور فأنا حاضر.. أمسك أمير بيده وقال: لا أريد ملايين، ولا أريد منك إلا شيئا واحدا. ضرب طاوي بكفه على صدره وقال: أنا رهن الإشارة، وهذا وعد، فاطلب ما تريد؟ أجابه: أريدك أن تعيد الأمانة لأهلها؟ قلب طاوي كفيه، وقال: أي أمانة؟ فأجابه: أمانة المشيخة يجب عودتها إلى بيت زيرم. وأضاف قائلا: حتى يتيسر أمر علاجك، وننجح في إكماله...

وافق طاوي على الفور، وأخبره أنه قرر التخلص من كل ظلم، وطلب من أمير أن يكون الموعد مع القاضي وجلمود، وبقية عقّال المناطق الأربعة، وسيتنازل علنا، ويوقع ويبصم، وأن يكون ذلك يوم الخميس القادم، حيث سيتم فيه زواج بخيت من حمامة...

وبعد شهر من الزمان، وقد أصبح الشيخ جلمود هو شيخ القبيلة ومرجعها، وبينما كان في ديوانه وعلى يمينه القاضي، ويساره طاوي الليل، وأمامهم التلفزيون، يشاهدون الأخبار إذا بخبر عاجل من إحدى القنوات يقول: إن جماعة أبي القرقاع زوكان جولبة قد أمسكت بالخائن أبو شادي جرير المقص، والذي سرق أموال الجماعة...